النص الكامل
الطبعة القانونية الأولى باللغة العربية

أغاثا كريستي



لُغْز سيتَافوردْ



الأجيال
للترجمة والنشر
AJIAL Publishers



Agatha Christie



The Sittaford Mystery



لُغْز سيتَافوردْ

في بيت بعيد في منطقة غمرتها الثلوج جلس ستة أشخاص حول طاولة صغيرة يقطعون الوقت بلعبة غريبة، ولكن التوتر خيم على الجلسة حين سمعوا تلك الرسالة الغريبة: "الكابتن تريفيليان ميت ... مقتول"!

ولكن الكابتن تريفيليان يسكن على بعد ستة أميال من هذا المكان، فمن الذي سيذهب للاطمئنان عليه وسط تلك الثلوج المتراكمة؟

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ. وهي -بلا جدال- أشهر من كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية. وقارب عدد ما طُبع منها ألفَيْ مليون نسخة!

ISBN9953-30-019-4



9 789953 300191

سعر البيع في السعودية ١٢ ريالاً
في بقية أنحاء العالم 3.2 دولاراً

دار الراتب الجامعية

الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers



الفصل الأول

منزل سيتافورد

لبس الميجر بيرنابي حذاءه المطاطي الثقيل، وأحكم أزرار ياقة معطفه حول عنقه، وأخذ من رف قرب الباب مصباحاً مقاوماً للريح، ثم فتح بحذرٍ الباب الأمامي لبيته الصغير وأطلّ للخارج.

كان المنظر الذي رأته عيناه المنظرَ النموذجي المعتاد للريف الإنكليزي كما تصوّره بطاقات أعياد الميلاد والميلودراميات القديمة. كان الثلج في كل مكان؛ طبقات عميقة منه وليس مجرد غلالة لا تعدو بضع بوصات. كان الثلج قد تساقط فوق إنكلترا كلها خلال الأيام الأربعة الأخيرة، وقد بلغ عمقه هنا في ضواحي دارتمور عدة أقدام. وفي طول إنكلترا وعرضها كان الناس يتذمرون من انفجار أنابيب المياه، وكان الحصول على سبّاك (أو حتى على مساعد سبّاك) يُعدُّ امتيازاً يُحسَد المرء عليه أيما حسد.

وهنا في قرية سيتافورد الصغيرة البعيدة في كل الأوقات عن العالم، والمنقطعة الآن انقطاعاً يكاد يكون تاماً، كانت ظروف الشتاء

القاسية مشكلة حقيقية تماماً. ولكن الميجر بيرنابي كان –على أية حال– رجلاً شديد المراس. زفر مرتين، ودمدم مرة، ثم شق طريقه بحزم خارجاً إلى الثلج.

ولم تكن وجهته بعيدة؛ فقد مشى بضع خطوات في طريق دائري، ثم دخل بوابة، وسار في ممشى تمت تنحية الثلج عنه جزئياً إلى بيت كبير بعض الشيء مبني من حجر الغرانيت.

فتحت له البابَ خادمةٌ مرتبة الثياب، فنزع وسائل تدفئته؛ حذاءه المطاطي ولفاعه القديم، ثم عَبَرَ الباب إلى غرفة أحس فيها إحساساً قوياً بتغير المشهد؛ فمع أن الساعة لم تتجاوز الثالثة والنصف إلاّ أن الستائر كانت مُسدلة، وقد أُشعلت الأضواء الكهربائية، وتأججت نار مُبهِجة في الموقد.

نهضت امرأتان في ملابس المساء لتحية المحارب المخلص القديم. قالت الكبرى منهما: رائع منك أن تأتي يا ميجر بيرنابي.

– أبداً يا سيدة ويليت، أبداً. بل كان من لطفك أن تدعيني.

ثم صافح كلا المرأتين، فيما مضت السيدة ويليت قائلة: السيد غارفيلد قادم، وكذلك السيد ديوك، والسيد رايكروفت قال إنه سيأتي... ولكن لا يكاد المرء يتوقع حضوره في مثل هذا الطقس وهو في تلك السن. إنه حقاً طقس فظيع جداً، والمرء يشعر أن عليه أن يفعل شيئاً ليبقى مبتهجاً. ضعي حطبة في النار يا فايوليت.

نهض الميجور بشهامة ليؤدي هو هذه المهمة قائلاً: اسمحي لي يا آنسة فايوليت.

قام هو يوضع الحطبة بإتقان في موضعها الصحيح وعاد ثانية ليجلس في الكرسي الذي أشارت له مضيفته. ألقى على الغرفة حوله نظرات رجل يؤمن بالخرافات، محاولاً أن لا يُظهر تلك النظرات. من المدهش كيف يمكن لامرأتين أن تغيرا شخصية الغرفة كلها... ودون أن تفعلا أي شيء يمكن للمرء وضع يده عليه وتحديده.

كان منزل سيتافورد قد بُني قبل عشر سنوات على يد الكابتن جوزيف تريفيليان، ضابط البحرية الملكية، وذلك بمناسبة تقاعده من البحرية. كان رجلاً غنياً، وكان لديه دوماً توقٌ عظيم للعيش في دارتمور، وقد وضع خياره على قرية سيتافورد الصغيرة جداً. ولم تكن سيتافورد في وادٍ كما كانت معظم القرى والمزارع، بل تستقر على كتف أرض مرتفعة في ظل منارة سيتافورد. كان قد اشترى قطعة واسعة من الأرض، وبنى بيتاً مريحاً له مولّدُه الكهربائي الخاص ومضخته الكهربائية لتوفير الجهد في ضخ المياه. ثم بنى –على سبيل الاستثمار– ستة بيوت صغيرة على امتداد الطريق، كل واحد منها على ربع فدان من الأرض.

وقد خصص أول تلك البيوت الصغيرة (وهو الواقع قرب بوابة البيت تماماً) لصديقه ورفيقه القديم جون بيرنابي، أما البيوت الباقية فقد بيعت تدريجياً؛ إذ ما زال يوجد بعض الناس الذين يحبون العيش خارج العالم تماماً، إما باختيارهم أو لضرورات الحياة.

أما القرية نفسها فقد كانت تتألف من ثلاثة بيوت جميلة ولكنها خربة، ومحل حدادة، ومبنى يشترك فيه مكتب بريد ومحل حلويات. وكانت أقرب بلدة هي إيكزامبتن، على بعد ستة أميال، والطريق إليها

شديد الانحدار، مما يبرر ضرورة العلامة المرورية المألوفة في طرق دارتمور والقائلة: "على السائقين استعمال ناقل الحركة الأول".

وقد كان الكابتن تريفيليان -كما أسلفنا- رجلاً غنياً. ورغم ذلك -وربما بسبب ذلك- كان رجلاً يحب المال حباً جماً. وفي نهاية تشرين الأول (أكتوبر) كتب إليه أحد أصحاب المكاتب العقارية في إيكزامبتن يسأله إن كان يفكر في تأجير منزل سيتافورد؛ فقد قام أحد المستأجرين بالاستفسار عنه متمنياً استئجاره لفترة الشتاء.

كانت أول فكرة خطرت للكابتن تريفيليان هي الرفض، أما الثانية فكانت أن يطلب المزيد من المعلومات. وقد ظهر أن المستأجر المقصود امرأة تدعى السيدة ويليت، وهي أرملة لها ابنة واحدة، وقد وصلت حديثاً من جنوب أفريقيا وأرادت بيتاً في دارتمور لقضاء فصل الشتاء.

وقد قال الكابتن تريفيليان: دعك من كل شيء، ولكن المرأة لا بد مجنونة. ألا تظن ذلك يا بيرنابي؟

وقد ظن بيرنابي ذلك بالفعل، وقاله بنفس القوة التي استخدمها صديقه. ولكنه أردف قائلاً: ولكنك لا تريد تأجيره على أية حال، دع المرأة المغفلة تذهب إلى مكان آخر إذا أرادت أن تتجمد. وهي القادمة من جنوب أفريقيا فوق ذلك!

ولكن عند هذه النقطة فرضت عقدة المال لدى الكابتن تريفيليان نفسها. فالمرء لا تتاح له الفرصة، ولا واحد بالمئة، ليؤجر منزله في وسط الشتاء. وهكذا استفسر عن المبلغ الذي تقبل المستأجرة دفعه.

وجاء عرضٌ بدفع اثني عشر جنيهاً في الأسبوع ليحسم المسألة. وهكذا فقد ذهب الكابتن تريفيليان إلى إيكزامبتن واستأجر بيتاً صغيراً في ضواحيها مقابل جنيهين في الأسبوع، وسلّم منزل سيتافورد للسيدة ويليت على أن يتم دفع نصف الأجرة مقدماً. وقد دمدم قائلاً: المغفل وماله سرعان ما يفترقان!

ولكن بيرنابي كان يفكر هذا المساء وهو ينظر خفيةً إلى السيدة ويليت بأنها لا تبدو مغفلة. كانت امرأة طويلة القامة ذات سَمْت لا يخلو من شيء من السخف، ولكن ملامحها وهيئتها كانت أقرب إلى الذكاء منها إلى الحماقة. كانت تميل إلى ارتداء الثياب الرسمية، ولها لكنة المستعمرات المميزة، وبدت مقتنعة تماماً بالصفقة التي أجرتها. بدا واضحاً أنها غنية تماماً، ولكن ذلك (كما فكر الميجر بيرنابي مراراً) قد جعل القضية كلها أكثر غرابة بالفعل. فلم تكن امرأةً من النوع الذي يمكن للمرء أن يصدق أنها ذات ميل للعزلة.

وقد أثبتت السيدة ويليت أنها جارةٌ ودودة إلى حد يكاد يكون مُحرجاً. فقد انهمرت الدعوات إلى منزل سيتافورد على الجميع. وقد تم حثُّ الكابتن تريفيليان على «التعامل مع البيت وكأنه لم يؤجره». ولكن تريفيليان لم يكن يحب النساء، ويقال إنه قد تعرض في شبابه إلى تجربة هجرته فيها حبيبته. وقد رفض كل الدعوات بإصرار. وقد مضى شهران على استقرار عائلة ويليت، وانتهى العجب الأولي من وصولهما.

استمر بيرنابي (وهو الصموت بطبعه) في دراسة مضيفته دون أي وعي منه لأية حاجة لكلام المجاملات، وقد لخّص الموقف قائلاً

لنفسه إنها تحب الظهور بمظهر المغفلة، ولكنها ليست كذلك حقاً. انتقلت نظرته إلى فايوليت... فتاة جميلة، ولكنها نحيلة بالطبع... كلهن هكذا في هذه الأيام. ما نفع المرأة إن لم يكن شكلُها شكلَ امرأة؟ تقول الصحف إن الاهتمام بامتلاء جسم المرأة قد عاد ليصبح «موضة»، وقد حان وقت ذلك.

حضّر نفسه لمقتضيات الحديث، إذ قالت السيدة ويليت: لقد خشينا -بدايةً- ألاّ تستطيع المجيء؛ فقد قلتَ ذلك إن كنتَ تذكر. وقد سُررنا كثيراً عندما قلتَ إنك ستأتي.

قال الميجر بيرنابي بأسلوب الإيضاح التفصيلي: الجمعة.

بدت السيدة ويليت حائرة وقالت: الجمعة؟

– في كل جمعة أذهب إلى تريفيليان، ويأتي هو إليّ كل ثلاثاء. لقد اعتدنا على ذلك منذ سنين.

– آه! فهمت. طبعاً، وأنتما تعيشان بمثل هذا القرب...

– نوع من العادة.

– ولكن أما زلتما تحافظان عليها؟ أعني الآن وهو يعيش في إيكزامبتن؟

– من المؤسف كسر عادة من العادات. سنفتقد كلانا تلك الأمسيات.

سألت فايوليت: وأنتما تجتمعان لأجل المسابقات، أليس كذلك؟

مسابقات الألغاز الشعرية والكلمات المتقاطعة وغير ذلك.

أومأ بيرنابي بالإيجاب وقال: أنا أحل الكلمات المتقاطعة، ويحل تريفيليان الأحاجي الشعرية. وكلانا يحدد نفسه ضمن مجاله. لقد فزتُ بثلاثة كتب الشهر الماضي في مسابقة الكلمات المتقاطعة.

– آه! حقاً؟ ما أروع ذلك! أكانت كتباً ممتعة؟

– لا أدري؛ فلم أقرأها. تبدو مملة جداً.

قالت السيدة ويليت بشيء من الغموض: إن الفوز بها هو الذي يهم، أليس كذلك؟

سألت فايوليت: كيف تذهب إلى إيكزامبتن؟ ليس عندك سيارة.

– أمشي.

– ماذا؟ حقاً! ستة أميال؟

– إنها رياضة جيدة. وما صعوبة اثني عشر ميلاً؟ إنها تُبقي المرء صحيحَ الجسم؛ وهو أمر عظيم.

– تخيلوا، اثني عشر ميلاً! ولكنكما (أنت والكابتن تريفيليان) كنتما رياضيين كلاكما، أليس كذلك؟

– كنا نذهب إلى سويسرا معاً. نمارس الرياضات الشتوية في الشتاء، ونتسلق الجبال في الصيف. تريفيليان رياضي ممتاز في ألعاب الثلج، ولكننا كبرنا كثيراً على مثل هذه الأمور الآن.

سألته فايوليت: لقد فزتَ ببطولة الجيش لألعاب المضرب أيضاً، أليس كذلك؟

احمر وجه الميجر بيرنابي مثل فتاة وقال: من قال لك ذلك؟

- الكابتن تريفيليان.

- يجب على جو أن يمسك لسانه؛ إنه يتكلم كثيراً. كيف أصبح الجو الآن؟

تبعتهُ فايوليت إلى النافذة وقد احترمَتْ حرجه. ثم فتح الاثنان الستارة ونظرا إلى المشهد الفارغ المهجور في الخارج، وقال بيرنابي: سيهطل المزيد من الثلج، وسوف تتساقط أمطار غزيرة جداً أيضاً كما أظن.

هتفت فايوليت: آه، يا للإثارة! إنني أرى الثلج رومانسياً جداً، فأنا لم أره أبداً من قبل.

أجابتها أمها: لن يكون كذلك عندما تتجمد أنابيب المياه أيتها الطفلة الحمقاء.

سأل الميجر بيرنابي: هل عشتِ كل حياتكِ في جنوب أفريقيا يا آنسة ويليت؟

تلاشى عن الفتاة شيء من حيويتها، وبدت وكأنها متحفظة في أسلوبها وهي تجيب قائلة: نعم... هذه أول مرة أخرج فيها منها، والأمر كله مثير جداً.

مثير جداً أن يكون المرء منعزلاً مقطوعاً هكذا في قرية بعيدة؟ أفكار غريبة. إنه لا يستطيع فهم هؤلاء الناس.

انفتح الباب وأعلنت الخادمة: السيد رايكروفت والسيد غارفيلد.

دخل رجل كهل ضئيل الجسم أعجَفُه، وشاب نضر الهيئة صبيانيُّ السَمْت. وقد تكلم الأخير بداية: لقد أحضرته معي يا سيدة ويليت. قلتُ لنفسي: "لن أدعه يُدفن تحت موجة ثلجية". ها ها... يبدو هذا رائعاً؛ حطبٌ ضخم يشتعل.

قال السيد رايكروفت وهو يحيي مضيفته بشيء من الحفاوة: الأمر كما يقول؛ فقد قادني صاحبي الشاب بلطف إلى هنا. كيف حالك يا آنسة ويليت. إنه طقس شتويٌّ تماماً... بل أخشى أن يكون شتوياً أكثر مما ينبغي.

ثم اقترب من النار وهو يتحدث مع السيدة ويليت. أما رونالد غارفيلد فقد احتجز فايوليت وقال: ألا نستطيع ممارسة التزلج في مكان ما؟

- أظن أن رياضتك الوحيدة ستكون فتح الطرق.

- لقد كنتُ منشغلاً بها طوال الصباح.

- آه! يا لك من رجل حقيقي.

- لا تسخري مني. لقد انتشرت الثآليل في يدي بسبب ذلك.

- كيف حال خالتك؟

- آه! إنها على حالها دوماً. تقول أحياناً إنها أحسن حالاً، وأحياناً تقول إنها أسوأ حالاً، ولكنني أحسبها على نفس الحال فعلاً. إنها لحياة كريهة. في كل عام أتعجب كيف أستطيع تحمل الوضع، ولكن هذا ما يحصل... إن لم يحدب المرء على عجوزه في عيد الميلاد فإنها قادرة تماماً على ترك كل مالها لجمعية رعاية القطط. إن لديها خمس قطط، وأنا أمسّد تلك المخلوقات التعيسة دوماً وأنا أتظاهر بالتعلق بها.

- أكانت عمتك دوماً مغرمة بالقطط؟

- أحسب أن ذلك مجرد أمر تأخذ النساء العجائز بالتعلق به. أوف! إنني أكره تلك القطط.

- إن خالتك لطيفة جداً، ولكنها مخيفة بعض الشيء.

- أحسبها كذلك. إنها تخاطبني أحياناً بأقذع الكلام، وهي ترى أنني بلا عقل.

- أحقاً؟

- آه! اسمعي، لا تقولي ذلك على هذا النحو. إن العديد من الناس يبدون مغفلين وهم يضحكون في قرارة أنفسهم.

جاءت الخادمة معلنة: السيد ديوك.

كان السيد ديوك ممن قدموا حديثاً للمنطقة، وقد اشترى آخر بيت من البيوت الستة الصغيرة في أيلول (سبتمبر) الماضي. كان رجلاً

ضخماً، وكان هادئاً جداً ومتعلقاً بأعمال البستنة. وقد أنشأ معه السيد رايكروفت (المحب للطيور والذي كان يعيش في المنزل المجاور لمنزله) علاقةً ودية، رغم أنه لم يتَبَيَّن تماماً فكرة الذين ذهبوا إلى أن السيد ديوك رجل لطيف عادي لا يثير الريبة. حسناً، ولكن ألا يمكن له... ألا يمكن أن يكون الرجل فقط تاجراً متقاعداً؟

ولكن أحداً لم يحب أن يسأله... والحقيقة أن الجهل اعتُبر أفضل؛ لأن المرء إذا ما عرف فقد يكون الأمر محرجاً تماماً، وفي مثل هذا المجتمع الصغير كان من الأفضل معرفة الجميع.

توجه بسؤال إلى الميجر بيرنابي: ألا تسير إلى إيكزامبتن في هذا الطقس؟

- لا، لا أظن أن تريفيليان يتوقع زيارتي الليلة.

قالت السيدة ويليت وهي ترتعد: إنه لمن الفظيع أن يُدفن المرء هنا عاماً بعد عام... لا بد أن ذلك كريه جداً.

رمقها السيد ديوك بنظرة سريعة، كما حدق الميجر بيرنابي فيها باستغراب. ولكن في تلك اللحظة تم إدخال الشاي.

* * *

الفصل الثاني

الرسالة

بعد شرب الشاي اقترحت السيدة ويليت لعب البريدج قائلة: هنا ستة منا. يمكن لاثنين أن يلعبا في جولة ثانية.

التمعت عينا رونالد وقال: ابدؤوا أنتم الأربعة، وسنلعب أنا والآنسة ويليت لاحقاً.

ولكن السيد ديوك قال إنه لا يتقن لعب البريدج. بدت خيبة الأمل على وجه رونالد، وقالت السيدة ويليت: يمكننا أن نلعب لعبة من جولة واحدة.

قال رونالد: أو نقوم بتحضير الأرواح على طاولة. إنها ليلة روحانية مخيفة. لقد كنا نتحدث عن ذلك قبل أيام كما تذكرون، وقد كنا نتحدث أنا والسيد رايكروفت عن هذا الأمر مساء اليوم ونحن قادمان إلى هنا.

علّق السيد رايكروفت بأسلوبه الدقيق: إنني عضو في جمعية

أبحاث الخوارق النفسية. وقد استطعتُ أن أُصحح لصديقي الشاب أفكاره حول نقطة أو نقطتين.

قال الميجر بيرنابي بأسلوب محدد: هراء.

قالت فايوليت ويليت: آه! ولكن ألا ترون أن في ذلك متعة كبيرة؟ لا أعني أن المرء يؤمن بذلك، ولكنها مجرد تسلية. ما رأيك يا سيد ديوك؟

– كما تحبين يا آنسة ويليت.

– يجب أن نطفئ الأنوار، ويجب أن نعثر على طاولة مناسبة. كلا... ليس تلك الطاولة يا أمي. إنها ثقيلة جداً بالتأكيد.

تم ترتيب الأمور أخيراً بما يُرضي الجميع؛ إذ تم إحضار طاولة صغيرة ذات سطح لامع من الغرفة المجاورة، وقد وُضعت أمام النار وأخذ كل واحد منهم مكانه حولها وقد أُطفئت الأنوار.

كان الميجر بيرنابي يجلس بين مضيفته وابنتها فايوليت، وعلى الجانب الآخر من الفتاة جلس رونالد غارفيلد. وقد ارتسمت على فم الميجر ابتسامة ساخرة، وسادت جميع الضحكات والهمسات والملاحظات التقليدية المعتادة في مثل هذا الموقف:

– الأرواح تستغرق وقتاً طويلاً.

– ذلك لأنها تقطع مسافة طويلة.

– هششش... لن يحدث شيء ما لم نكن جادين.

- آه! اهدؤوا... جميعاً.

- لا شيء يحدث.

- بالطبع لا يحدث شيء... ففي البداية لا يحدث شيء.

- لو سكتُم جميعاً.

وأخيراً وبعد شيء من الوقت خمدت همهمة الأصوات.

تمتم رونالد غارفيلد باستياء: هذه الطاولة أكثر موتاً من الموتى.

- هششش.

سرت رعدة خلال السطح اللامع، وبدأت الطاولة تهتز.

- اطرحوا عليها أسئلة. من سيسأل؟ أنت يا رونالد.

- أوه... همم... ماذا أسألها؟

قالت فايوليت بسرعة: هل معنا روح حاضرة؟

- آه! مرحباً... هل معنا روح حاضرة؟

هزة حادة.

قالت فايوليت: هذا يعني نعم.

- آه! هممم... من أنتِ؟

لا جواب.

- اطلب منها أن تتهجى اسمها.

بدأت الطاولة تهتز بعنف هزات تدل على حروف الهجاء. كان اسم الروح إيدا.

- هل لديك رسالة لأي شخص هنا؟

- نعم.

- لمن هي؟ للآنسة ويليت؟

- كلا.

- للسيد رايكروفت؟

- كلا.

- لي أنا؟

- نعم.

- إنها لك يا رونالد. هيا، اجعلها تتهجاها.

تهجّت الطاولة: ديانا.

- من هي ديانا؟ أتعرف واحدة تدعى ديانا؟

- لا، لا أعرف. إلاّ إذا...

- هذا يكفي... إنه يعرف.

واستمر اللعب. ابتسم السيد رايكروفت بمحبة؛ إذ ينبغي أن يستمتع الشباب بنكاتهم. لمح -بنظرة سريعة- وجه مضيفته في توهج

مفاجئ للنار. بدا قلِقاً شارداً. كانت أفكارها في مكان بعيد ما.

كان الميجر بيرنابي يفكر بالثلج، إذ سيتساقط الثلج ثانية هذه الليلة. إنه أقسى شتاء مر عليه فيما يذكر.

كان السيد ديوك يلعب بكل جدية. ولكن الأرواح –مع الأسف– لم تهتم به كثيراً، إذ بدا أن كل الرسائل موجهة لفايوليت ورونالد.

قيل لفايوليت إنها ستسافر إلى إيطاليا وإن أحدهم سيسافر معها، وهو رجل وليس امرأة، واسمه ليونارد.

مزيد من الضحك. تهجّت الطاولة اسم المدينة. كومة روسية من الأحرف لا تمت بصلة للغة الإيطالية... وتم توجيه الاتهامات المعتادة.

– اسمعي يا فايوليت... إنك تدفعين الطاولة.

– أنا لا أدفعها. انظر، إنني أرفع يديّ تماماً عن الطاولة وهي تهتز بنفس الطريقة.

ساد بعض الصمت. وكانت الطاولة هادئة، ولم تجب على الأسئلة.

– هل ذهبت إيدا؟

هزة واحدة خفيفة.

– هل يمكن أن تأتي روح أخرى رجاء؟

لا شيء. وفجأة بدأت الطاولة ترتعد وتهتز بشدة.

– ها هي. هل أنت روح جديدة؟

– نعم.

– هل لديك رسالة لأحد؟

– نعم.

– لي؟

– كلا.

– لفايوليت؟

– كلا.

– للميجر بيرنابي؟

– نعم.

– إنها لك يا ميجر بيرنابي. هل لكِ بتهجئتها رجاءً؟

بدأت الطاولة تهتز ببطء.

– ت ر ي ف... أأنت واثقة أنها ف؟ لا يمكن. تريف... إنها لا تعني شيئاً.

قالت السيدة ويليت: تريفيليان بالطبع، الكابتن تريفيليان.

– هل تعنين الكابتن تريفيليان؟

– نعم.

– لديك رسالة للكابتن تريفيليان؟

– لا.

– حسناً، ما الأمر إذن؟

بدأت الطاولة تهتز... ببطء وإيقاع. ببطء شديد بحيث كان من السهل عدُّ الأحرف.

– م... ي... ت.

– أتعنين أن تريفيليان ميت؟

هزة حادة جداً: "نعم".

شهق أحدهم، وسادت حركة خفيفة حول الطاولة كلها. وعندما استأنف رونالد أسئلته كان في صوته نبرة مختلفة... نبرة خشية وقلق: أتعنين... أن الكابتن تريفيليان ميت؟

– نعم.

ساد شيء من الصمت، وكأن أحداً منهم لم يعرف ماذا يسأل بعد ذلك أو كيف يتعامل مع هذا التطور غير المتوقع.

وخلال هذا الصمت بدأت الطاولة تهتز ثانية، وبإيقاع وبطء تهجى رونالد الأحرف بصوت عالٍ: م – ق – ت – و – ل!

صدرت عن السيدة ويليت صرخة ورفعت يدها عن الطاولة قائلة: لن أستمر في هذا. إنه فظيع... لا أحب ذلك.

علا صوت السيد ديوك رخيماً عالياً يستجوب الطاولة: هل تعنين أن الكابتن تريفيليان قد قُتل؟

لم تكد الكلمة الأخيرة تخرج من شفتيه حتى جاء الجواب. اهتزت الطاولة بعنف وتأكيد بالغ بحيث كادت تقع. هزة واحدة فقط: نعم.

رفع رونالد يديه عن الطاولة وقال بصوت مرتعد: اسمعوا، إنني أسمي هذا نكتة قذرة.

قال السيد رايكروفت: أشعلوا الأضواء.

نهض الميجر بيرنابي وفعل ذلك. وقد أظهر الضوء المفاجئ مجموعة من الأوجه الشاحبة القلقة. نظر الجميع إلى بعضهم البعض، وعلى نحوٍ ما لم يعرف أحدٌ ماذا يقول. وأخيراً قال رونالد بضحكة قلقة: هذا كله سخف بالطبع.

علقت السيدة ويليت: هراء سخيف. لا ينبغي لأحد أن... أن يمزح مزحات كهذه.

قالت فايوليت: ليس عن موت أناس. إنها... آه، لا أحب ذلك.

قال رونالد وهو يحس بنقد ضمني يُوجّه إليه: لم أكن أدفع الطاولة... أقسم أنني لم أدفعها.

قال السيد ديوك: ويمكنني أنا أن أقول نفس الشيء. ماذا عنك يا سيد رايكروفت؟

أجاب السيد رايكروفت بحماسة: لم أدفعها بالتأكيد.

دمدم الميجر بيرنابي قائلاً: لا أظنكم تحسبون أنني يمكن أن أمزح مزحة كهذه؟ ذوق فاسد سيء.

– عزيزتي فايوليت...

– أنا لم أمزها يا أماه... حقاً لم أمزها. ما كنتُ لأفعل شيئاً كهذا.

كادت الفتاة تبكي، وكان الجميع محرَجين؛ فقد وقعت مصيبة مفاجئة على المجموعة السعيدة.

دفع الميجر بيرنابي كرسيه إلى الوراء وذهب إلى النافذة ففتح الستارة، ثم وقف هناك ينظر إلى الخارج وظهره للغرفة.

قال السيد رايكروفت وهو ينظر إلى الساعة الجدارية: "الخامسة وخمس وعشرون دقيقة". ثم قارن ذلك بساعته الخاصة، وشعر الجميع –بشكلٍ ما– بأن هذا التصرف كان ذا مغزى على نحو ما.

قالت السيدة ويليت بمرح تحاول اصطناعه: أظن من الأفضل أن نشرب شيئاً من الشاي. هل لك أن تقرع الجرس يا سيد غارفيلد؟

أطاعها رونالد. وهكذا أُحضر الشاي، وبدا الموقف أقل توتراً بقليل. وشرب الكل ما عدا الصامت الواقف قرب النافذة.

– ميجر بيرنابي... الشاي.

انتبه الميجر بما يشبه الجفلة، واستدار ببطء وقال: "شكراً يا سيدة ويليت، لا أريد". حدق ثانية في الليل خارج النافذة، ثم عاد

ببطء إلى المجموعة قرب الموقد وقال: شكراً جزيلاً على الوقت الممتع، وطابت ليلتكم.

– لا أظنك ذاهباً؟

– يجب أن أذهب.

– ما زال الوقت مبكراً، وفي ليلة كهذه.

– آسف يا سيدة ويليت، ولكن لا بد من القيام بذلك. لو كان هناك هاتف فقط.

– هاتف؟

– نعم، فبصراحة، أنا... إنني أريد التأكد من أن جو تريفيليان على ما يرام. صحيح أنها خرافات سخيفة وكل ذلك، ولكن هكذا الأمر. من الطبيعي انني لا أؤمن بهذا الهراء، ولكن...

– ولكنك لا تستطيع أن تخابر من أي مكان. فليس في سيتافورد هاتف.

– هذه هي المشكلة بالضبط. وطالما أنني لا أستطيع الاتصال فسيتعين عليّ الذهاب إلى هناك.

– الذهاب... ولكنك لا تستطيع تأمين سيارة تقطع بك ذلك الطريق! ما كان إيلمر ليُخرج سيارته في مثل هذه الليلة.

كان إيلمر صاحب السيارة الوحيدة في القرية، وهي سيارة فورد قديمة يستأجرها بأجر عالٍ أولئك الذين يرغبون بالذهاب إلى

إيكزامبتن.

– كلا، كلا... لا مجال للذهاب بالسيارة. ستأخذني قدماي إلى هناك يا سيدة ويليت.

انطلقت الاحتجاجات من كل مكان.

– آه! ذلك مستحيل يا ميجر بيرنابي. أنت نفسك قلتَ إن الثلج سيهطل.

– ليس قبل ساعة من الآن... وربما أكثر. سأصل إلى هناك؛ لا تخافي.

– آه! غير ممكن. لا يمكن أن نسمح بذلك.

كانت قلقة متزعجة تماماً، ولكن النقاش والحوار مع الميجر بيرنابي لم يكن ليؤثر إلاّ بقدر ما يمكن لصخرة أن تتأثر بذلك؛ فقد كان رجلاً عنيداً، إن يقر قراره على شيء فلا تستطيع قوة على الأرض أن تزحزحه عنه. وقد قرر أن يمشي إلى إيكزامبتن ويرى بنفسه إن كان صديقه القديم بخير، وقد كرر تلك العبارة البسيطة مراراً وتكراراً.

وفي النهاية أدركوا أنه يعني ما يقول. لفّ نفسه بمعطفه، وأضاء المصباح المقاوم للريح، وخرج إلى الليل قائلاً بمرح: سوف أمر لحظة فقط على بيتي لآخذ ما يعينني على البرد، وسوف يستضيفني تريفيليان لهذه الليلة عندما أصل هناك. أعرف أن ذلك قلق سخيف، ومن المؤكد أن كل شيء سيكون على ما يرام. لا تقلقي يا سيدة ويليت، وسواء

بثلج أو دون ثلج فإنني سأصل هناك خلال ساعتين. طابت ليلتكم.

ثم مضى للخارج، وعاد الآخرون إلى النار.

كان رايكروفت قد نظر إلى السماء وتمتم قائلاً لديوك: سوف يسقط الثلج بالتأكيد. وسوف يبدأ بالتساقط قبل أن يصل إيكزامبتن بوقت طويل. إنني... إنني أرجو أن يصل إلى هناك سالماً.

قطب ديوك جبينه وقال: أعرف. أشعر بأنه كان من واجبي أن أذهب معه... كان ينبغي لأحدنا أن يذهب معه.

أما السيدة ويليت فقالت: أمر محزن جداً، محزن جداً. فايوليت، أنا لن أسمح بلعب تلك اللعبة السخيفة أبداً بعد الآن. مسكين الميجر بيرنابي، فربما غلبته عاصفة ثلجية... وإن نجا من ذلك فربما مات برداً في العراء. وهو في مثل هذا السن أيضاً... إنها لحماقة منه أن يذهب بهذا الشكل. إن الكابتن تريفيليان في أحسن حال بالطبع.

ردد الجميع: بالطبع، بالطبع.

ولكن حتى الآن لم يكونوا يشعرون بارتياح حقيقي. فماذا لو حدث شيء فعلاً للكابتن تريفيليان؟

ماذا لو...؟

* * *

الفصل الثالث

الخامسة وخمس وعشرون دقيقة

بعد ساعتين ونصف الساعة، وقبل الثامنة تماماً، كان الميجر بيرنابي يمسك بمصباحه المقاوم للريح في يده، ويطأطئ رأسه للأمام ليتجنب لفح تيارات الثلج التي تكاد تعمي، ويشق طريقه عبر الممر المؤدي إلى باب منزل هيزلمور الصغير الذي استأجره الكابتن تريفيليان.

كان الثلج قد بدأ يتساقط قبل ساعة من ذلك على شكل قطع كبيرة لا تترك مجالاً للرؤية، وكان الميجر بيرنابي يلهث بصوت عال عميق لرجل نال منه التعب تماماً، وقد جمّد البرد أوصاله. ضرب برجليه الأرض ثم وضع إصبعاً متجمدة على جرس الباب.

صاح الجرس بصوت حاد. وانتظر بيرنابي، وبعد انتظار بضع دقائق لم يحدث فيها شيء عاد وقرع الجرس. ومرة أخرى لم يبدُ أثر لحياة. قرع بيرنابي الجرس مرة ثالثة، مُبقياً إصبعه على الجرس هذه المرة. ومضى الجرس يرن ويرن... ولكن لم يكن في المنزل أثر للحياة.

كانت هناك يدٌ حديدية لقرع الباب. أمسكها الميجر بيرنابي وأخذ يطرق الباب بقوة مُصدراً صوتاً كالرعد، ومع ذلك بقي البيت الصغير ساكناً سكون الموتى.

توقف الميجر. وقف لحظات وكأنه متحير... ثم مضى ببطء في الممر عائداً، ثم خرج من البوابة ومضى في الطريق الذي جاء منه إلى إيكزاميتن. وبعد نحو مئة متر وصل إلى مركز الشرطة. تردد ثانية، ثم عزم أمره أخيراً ودخل.

نهض الشرطي غريفز -الذي يعرف الميجر جيداً- مندهشاً وقال: لم يُخيل لي يا سيدي أنك تخرج في مثل هذه الليلة.

قال بيرنابي باقتضاب: اسمعني، لقد كنتُ أقرع جرس بيت الكابتن ولم أحصل على أي جواب.

قال غريفز الذي يعرف عادات الاثنين تمام المعرفة: آه، طبعاً تذكرت، إنه يوم الجمعة. ولكن لا أحسبك تقصد أنك جئت من سيتافورد في ليلة كهذه؟ من المؤكد أن الكابتن ما كان ليتوقع حضورك.

- سواء توقع حضوري أم لم يتوقعه فقد حضرت، وأنا أقول لك إنني لم أستطع الدخول. لقد قرعت الجرس وضربت المطرقة الحديدية ولم يجبني أحد.

بدا أن شيئاً من قلقه قد بدأ ينتقل للشرطي، فقد قال وهو يقطب جبينه: هذا غريب.

- إنه غريب بالطبع.

- ولا يبدو من المحتمل أن يكون قد خرج... في ليلة كهذه.

- هذا غير محتمل بالطبع.

كور غريفز مرة أخرى: ذلك غريب بالفعل.

أظهر بيرنابي نفاد صبره من بطء الرجل وقال بحدة: ألن تفعل شيئاً؟

- أفعل شيئاً؟

- نعم، تفعل شيئاً.

راح الشرطي يتأمل، ثم انفرجت أساريره وقال: أتظن أنه ربما كان مريضاً؟ سأجرب الاتصال به بالهاتف.

كان الهاتف عند مرفقه، ورفع السماعة وأدار الرقم، ولكن الكابتن تريفيليان لم يجب على الهاتف كما لم يجب على الباب. قال غريفز وهو يعيد السماعة: يبدو وكأنه قد وقع مريضاً فعلاً، وهو بمفرده في البيت أيضاً. من الأفضل أن نستدعي الطبيب وورين ونأخذه معنا.

كان بيت الطبيب وورين مجاوراً تماماً لمركز الشرطة، وكان قد جلس لتوه لتناول العشاء مع زوجته، فلم يسرّه كثيراً هذا الاستدعاء. ولكنه وافق على مرافقتهما على مضض، فارتدى معطفاً ثقيلاً وحذاء مطاطياً، ولفّ على عنقه وشاحاً.

كان الثلج ما يزال يتساقط. تمتم الطبيب: ليلة رهيبة. أرجو ألا

تكونا قد أحضرتماني في مهمة لا طائل منها. إن تريفيليان أقوى من حصان، ولا يعاني من شيء أبداً.

لم يجبه بيرنابي. وبعد أن وصلوا إلى هيزلمور ثانية قرعوا الجرس من جديد، وطرقوا بمطرقة الباب الحديدية، ولكنهم لم يحصلوا على جواب. ثم اقترح الطبيب أن يلتفوا حول البيت على إحدى النوافذ قائلاً: سيكون فتحها بالقوة أسهل من فتح الباب.

وافق غريفز، فالتفوا حول البيت. كان هناك باب جانبي حاولوا فتحه في طريقهم ولكنه كان مقفلاً، وسرعان ما وصلوا إلى المرجة العشبية المغطاة بالثلج والتي تؤدي إلى النوافذ الخلفية. وفجأة أطلق وورين هتاف تعجب وقال: الباب الزجاجي للمكتب... إنه مفتوح!

وبالفعل، كان الباب الزجاجي مفتوحاً قليلاً، فسارعوا خطواتهم إليه. ما كان لأحد عاقل أن يترك الباب مفتوحاً في ليلة كهذه. وكان في الغرفة بعض الضوء ينبعث إلى الخارج في حزمة رفيعة صفراء.

وصل الرجال الثلاثة في وقت واحد إلى الباب. كان بيرنابي أول من دخل، والشرطي يتبعه مباشرة. ووقف الاثنان جامدين في الداخل، وصدر عن الجندي السابق شيء أشبه بصيحة مكتومة. وبعد لحظات كان وورين بجانبهما ورأى ما شاهداه.

كان الكابتن تريفيليان ممدداً على الأرض ووجهه للأسفل، وقد انفتحت ذراعاه على اتساعهما. وكانت الغرفة في حالة فوضى؛ فأدراج المكتب مفتوحة، والأوراق متناثرة على الأرض. وكان زجاج الباب

بجانبهم مهشماً قرب القفل حيث تم كسره. وقرب الكابتن تريفيليان كان أنبوب طويل من قماش ثخين أخضر غامق عرضه يقرب من بوصتين.

قفز وورين إلى الأمام، وجثا قرب الجسد الممدد. وكانت دقيقة واحدة تكفي؛ فقد نهض واقفاً شاحب الوجه. سأله بيرنابي: أهو ميت؟

أومأ الطبيب برأسه بالإيجاب، ثم التفت إلى غريفز وقال: أنتِ من ينبغي أن يقول ماذا نفعل الآن. لا أستطيع فعل شيء باستثناء فحص الجثة، وربما كنتَ تفضل ألاّ أفعل ذلك حتى يأتي المفتش. أستطيع أن أخبر كما بسبب الوفاة الآن. إنه تهشم في الجزء الأسفل من الجمجمة، وأحسب أن بوسعي أن أخمِّن السلاح المُستخدم.

ثم أشار إلى الأنبوب القماشي الأخضر، فقال الميجر بيرنابي: لقد كان تريفيليان يضع دوماً هذه الأشياء المملوءة بالرمل عند قاعدة الباب... لمنع التيارات الهوائية من الدخول.

كان صوته أجشّ خشناً.

– نعم، إنه أشبه بكيس رملي ثقيل، وهو كافٍ تماماً كسلاح للقتل.

– يا إلهي!

قال الشرطي وقد وصلت ملكاته العقلية أخيراً لإدراك الموقف: "ولكن اسمع... أتعني... أن هذه جريمة قتل؟". ثم تقدم إلى الطاولة

التي وُضع عليها جهاز هاتف.

تقدم بيرنابي من الطبيب وقال وهو يتنفس بصعوبة: هل لديك أية فكرة عن الوقت الذي مرّ على وفاته؟

– أحسب أنه توفي منذ نحو ساعتين، وربما ثلاثة. هذا تقدير أولي.

مرر بيرنابي لسانه على شفتيه الجافتين وسأل: أترى أنه ربما يكون قد قُتل في الساعة الخامسة وخمس وعشرين دقيقة؟

نظر إليه الطبيب باستغراب وقال: لو كان لي أن أعطي وقتاً محدداً لكان هذا هو الوقت الذي أقترحه تقريباً.

قال بيرنابي: يا إلهي!

حدق به وورين مندهشاً. وتلمس الميجر طريقه إلى كرسي وانهار عليه، ثم تمتم مع نفسه فيما ارتسم على وجهه رعب شديد: الخامسة وخمس وعشرون دقيقة... آه، يا إلهي؛ فقد كان ذلك صحيحاً فعلاً في نهاية الأمر!

* * *

الفصل الرابع

المفتش ناراكوت

كان ذلك في الصباح الذي تلا المأساة، وكان رجلان يقفان في المكتب الصغير في منزل هيزلمور.

نظر المفتش ناراكوت حوله، وقد ارتسمت على جبينه تقطيبة صغيرة، وقال متأملاً: نعم... نعم.

كان المفتش ناراكوت ضابطاً شديد الكفاءة، ذا مثابرة هادئة، وعقل منطقي، وعناية شديدة بالتفاصيل، وهو ما قاده إلى النجاح في قضايا كان من شأن العديد أن يفشلوا فيها. وكان طويل القامة، هادئ السمت، ذا عينين رماديتين فيهما شيء من الشرود وصوت هادئ بطيء فيه لكنة منطقة ديفونشير. وقد استُدعي من إيكزيتر ليتولى القضية، ووصل في أول قطار في ذلك الصباح. وقد كانت الطرقات مغلقة لا تستطيع السيارات السير فيها حتى باستعمال الجنازير، وإلاّ

لكان وصل في الليلة السابقة. وكان يقف الآن في مكتب الكابتن تريفيليان بعد أن أكمل لتوه فحص الغرفة. وكان معه الرقيب بولوك من مركز شرطة إيكزامبتن.

دخل الغرفة شيء من ضوء الشمس الشتوي الشاحب من النافذة، وفي الخارج كانت الأرض مكسوة بالثلج. وعلى بعد نحو مئة متر من النافذة كان يوجد سياج، وخلف السياج المنحدر الشديد للتلة التي تغطيها الثلوج.

انحنى المفتش ناراكوت من جديد فوق الجثة التي تُركت على حالها ليأتي ويتفحصها. وإذ كان هو شخصياً رياضي الجسم فقد ميّز الشكل الرياضي للضحية؛ الكتفين العريضين، والجانبين الدقيقين، والنمو العضلي الواضح. كان الرأس صغيراً يستقر على الكتفين بشكل مناسب، ولحية البحّار المستدقة مُشذّبة بعناية. وقد تأكد له أن الكابتن تريفيليان كان في الستين من عمره، ولكن بدا أنه لم يتجاوز كثيراً الحادية والخمسين أو الثانية والخمسين.

قال الرقيب بولوك: آه!

التفت المفتش إليه وقال: ما رأيك؟

حكّ الرقيب بولوك رأسه بتردد، فقد كان رجلاً حذراً لا يرغب بالتسرع أكثر من اللازم. قال: كما أرى الأمر يا سيدي، أحسب أن الرجل قد جاء إلى الباب الزجاجي، فكسر القفل وبدأ يعبث بالغرفة. وأحسب أن الكابتن تريفيليان كان في الطابق العلوي دون شك. ولا

ريب أن اللص قد ظن البيت فارغاً...

- أين مكان غرفة نوم الكابتن تريفيليان؟

- في الطابق العلوي يا سيدي؛ فوق هذه الغرفة.

- في هذا الوقت من السنة يحل الظلام في الساعة الرابعة عصراً. فلو كان الكابتن تريفيليان في غرفة نومه في الأعلى لكان الضوء الكهربائي مُضاءً، ولكان من شأن اللص أن يراه وهو يقترب من الباب الزجاجي.

- أتعني أنه كان سينتظر؟

- ما من رجل عاقل يمكن أن يقتحم بيتاً مصابيحُه مضاءة. فإن كان قد اقتحم الباب الزجاجي... فذلك لأنه ظن البيت فارغاً.

حكّ الرقيب بولوك رأسه وقال: أعترف أن الأمر يبدو غريباً بعض الشيء، ولكن هذا ما حصل.

- سنتغاضى عن هذه النقطة مؤقتاً. استمر.

- فلنفترض أن الكابتن سمع أصواتاً في الطابق الأسفل، فنزل ليتحقق. وقد سمعه اللص قادماً، فأخذ واحداً من تلك الأكياس الرملية الطويلة وكَمَنَ وراء الباب، وما أن دخل الكابتن الغرفة حتى عاجله بضربة من الخلف.

أومأ المفتش ناراكوت برأسه وقال: نعم، هذا صحيح. فقد ضُرب

ووقع وهو يواجه الباب الزجاجي. ولكن مع ذلك فإنني غير مرتاح لذلك يا بولوك.

- أحقاً يا سيدي؟

- نعم، فكما قلتُ لك: أنا لا أؤمن ببيوت تُقتحم في الساعة الخامسة عصراً.

- ولكن، ربما رأى فيها فرصة سانحة...

- إنها ليست مسألة فرصة. ليست مسألة تسلل لمجرد أنه رأى باباً زجاجياً غير مقفل؛ لقد كان ذلك اقتحاماً مُتعمداً للبيت. انظر إلى الفوضى في كل مكان... ما هو أول شيء يهرع إليه أي لص؟ غرفة الأواني حيث يجد الفضيات هناك.

- هذا صحيح تماماً.

- وانظر إلى هذا الاضطراب... وهذه الفوضى. هذه الأدراج المفتوحة وقد تناثرت محتوياتها. ها! هذا هراء.

- هراء؟

- انظر إلى الباب الزجاجي أيها الرقيب. لم يكن ذلك الباب مقفلاً وتم كسره! لقد كان مغلقاً فقط، ثم تم كسره من الخارج ليعطي مظهر الكسر والاقتحام.

تفحص بولوك قفل الباب الزجاجي ملياً وهو يُطلق صوت تعجب

مع نفسه، ثم قال ونبرة الاحترام في صوته: أنت محق يا سيدي. مَنْذا كان يفكر بمثل هذا الأمر؟!

– كان يفكر به امرؤ أراد أن يرمي التراب في عيوننا... ولم ينجح.

شعر الرقيب بولوك بالامتنان لهذه الـ«نا» في صيغة الجمع التي قالها المفتش؛ فبمثل هذه الطرق الصغيرة كان المفتش ناراكوت يحبب نفسه لمرؤوسيه.

قال الرقيب: إذن فلم تكن عملية سطو. هل تعني يا سيدي أنها قضية من داخل البيت؟

أومأ المفتش برأسه وقال: نعم، ومع ذلك فإن الأمر الغريب الوحيد هو أنني أظن أن القاتل قد دخل بالفعل من الباب الزجاجي. فكما ذكرتَ أنت وغريفز، وكما أستطيع أن أرى بنفسي حتى الآن، توجد بقع رطبة ما زالت مرئية حيث ذاب الثلج الذي علق بحذاء القاتل، وهذه البقع الرطبة غير موجودة إلاّ في هذه الغرفة. لقد أكد الشرطي غريفز –جازماً– أنه لم تكن مثل هذه البقع في الصالة عندما مر منها هو والطبيب وورين، بينما لاحظ مباشرة وجود هذه البقع في هذه الغرفة. ويبدو واضحاً في هذه الحالة أن الكابتن تريفيليان هو الذي أدخل القاتل من الباب الزجاجي، ولذلك فلا بد أنه كان شخصاً يعرفه الكابتن تريفيليان. أنت من هذه المنطقة يا بولوك، هل يمكنك أن تخبرني إن كان الكابتن تريفيليان من أولئك الرجال الذين يثيرون العداوات بسهولة؟

– لا يا سيدي. يمكنني القول إنه رجل لم يكن له عدو في هذا العالم. كان حريصاً بعض الشيء فيما يخص المال، ومتعلقاً قليلاً بمسألة الانضباط، ولا يتحمل الكسل والوقاحة... ولكنه –والله– كان مُحترماً لتلك الصفات.

قال ناراكوت متأملاً: لا أعداء له...

– ليس هنا، على الأقل.

– هذا صحيح تماماً. لا نعرف ما يمكن أن يكون قد أثاره من عداوات خلال مسيرته المهنية في البحرية. إن خبرتي –أيها الرقيب– تقول إن من يثير العداوات في مكان ما يمكن أن يثيرها في أي مكان آخر، ولكنني أوافق على أننا لا نستطيع استبعاد هذا الاحتمال كلياً. نأتي الآن منطقياً للدافع الثاني (وهو أكثر الدوافع شيوعاً في أية جريمة): لقد فهمتُ أن الكابتن تريفيليان كان رجلاً غنياً.

– كان غنياً جداً بالفعل بكل الاعتبارات، ولكنه ممسك اليد. ليس من السهل أن يحصل المرء منه على تبرع.

قال ناراكوت متأملاً: آه!

قال الرقيب: من المؤسف أن الثلج قد تساقط بتلك الكثافة، ولولا ذلك لاستطعنا العثور على آثار أقدام القاتل لنستدل بها عليه.

– ألم يكن في البيت أحد آخر؟

– لا؛ فخلال السنوات الخمس الماضية لم يكن لدي الكابتن

تريفيليان إلاّ خادم واحد، وهو رجل متقاعد من البحرية. وهناك في بيته في سيتافورد كانت امرأة تأتي يومياً لتنظف، ولكن هذا الرجل (واسمه إيفانز) كان يطبخ لسيده ويرعاه. ومنذ نحو شهر تزوج الرجل... الأمر الذي أزعج الكابتن كثيراً، فهو ما كان ليقبل أن تعيش أي امرأة في البيت. ويعيش إيفانز قريباً من هنا عند الزاوية، في شارع فور مع زوجته، ويأتي يومياً ليقوم بأعباء المنزل لسيده. لقد أحضرته لك الآن لتراه، وهو يقول في شهادته إنه غادر البيت في الساعة الثانية والنصف عصراً بعد إذ لم تبقَ للكابتن حاجة له.

– نعم، سأطلب رؤيته. ربما كان قادراً على أن يخبرنا شيئاً... مفيداً.

نظر الرقيب بولوك إلى رئيسه بفضول؛ فقد كان في نبرة المفتش شيء غريب. قال الرقيب: أتظن...

قاطعه المفتش ناراكوت متعمداً: أظن أن في هذه القضية أكثر بكثير مما تراه العين.

– بأي معنى يا سيدي؟

ولكن المفتش رفض أن يُستدرج، بل سأل: أتقول إن هذا الرجل، إيفانز، موجود هنا الآن؟

– إنه ينتظر في غرفة الطعام.

– جيد، سأراه على الفور. أي نوع من الرجال هو؟

كان الرقيب بولوك أمهر في تقرير الحقائق منه في تقديم وصف دقيق. قال: إنه رجل متقاعد من البحرية، وأظنه رجلاً بشعاً إذا ما دخل مشاجرة.

– ماذا عن زوجته؟ أكان الكابتن يحبها مثلاً؟

– آه! لا يا سيدي. لم يكن في الكابتن شيء من هذا القبيل؛ لم يكن أبداً من هذا النوع، ولئن كان مشهوراً بشيء فبكرهه للنساء.

– والمفترض أن إيفانز كان يحب سيده، أليس كذلك؟

– تلك هي الفكرة العامة يا سيدي. وأظن أنه لو لم يكن كذلك لشاع الأمر؛ إن إيكزاميتن بلدة صغيرة.

أومأ المفتش ناراكوت وقال: حسناً، لم يبقَ شيء يمكن رؤيته هنا. سأقابل إيفانز، ثم سألقي نظرة على باقي البيت، وبعد ذلك سنذهب إلى فندق ثري كراونز ونرى ذلك الميجر بيرنابي. إن إشارته تلك حول وقت الجريمة غريبة تماماً... الخامسة وخمس وعشرون دقيقة، أليس كذلك؟ لا بد أنه يعرف شيئاً لم يقله، وإلاّ لماذا يشير إلى وقت الجريمة بهذه الدقة؟

تحرك الرجلان باتجاه الباب، وقال الرقيب بولوك وعيناه تستعرضان الأرض التي امتلأت بالفوضى: إنه لأمر غريب... كل هذا الهراء عن عملية سطو!

– ليس هذا الذي لفت انتباهي باعتباره غريباً؛ ففي مثل هذه

الظروف ربما كان ذلك هو التصرف الطبيعي. كلا... إن ما لفت انتباهي كأمر غريب هو الباب الزجاجي.

– الباب الزجاجي يا سيدي؟

– نعم. لماذا يذهب القاتل إلى الباب الزجاجي؟ فإذا افترضنا أنه شخص يعرفه الكابتن تريفيليان وقد أدخله دون سؤال، فلماذا لم يذهب إلى الباب الأمامي؟ إن الالتفاف إلى الباب الزجاجي من خلف المنزل في ليلة كليلة أمس من شأنه أن يكون مهمة صعبة وكريهة مع وجود الثلج بتلك الكثافة. ومع ذلك لا بد من وجود سبب ما.

– ربما لم يشأ الرجل أن يراه أحد يدخل المنزل من الشارع.

– لم يكن من المحتمل وجود الكثير من الناس في الشارع مساء أمس ليروه؛ فما كان أحد ليترك بيته مختاراً. كلا... يوجد سبب آخر، وربما ظهر مع الوقت.

* * *

الفصل الخامس
إيفانز

وجدا إيفانز ينتظر في غرفة الطعام. وقد وقف باحترام عند دخولهما.

كان قصيرَ القامة مُجتمِع الجسم ذا يدين طويلتين جداً، ولديه عادة الوقوف ويداه نصف مقبوضتين. وكان حليق اللحية والشارب وذا عينين صغيرتين أشبه بعيني خنزير، ومع ذلك يبدو عليه شيء من البهجة والكفاءة يعوّض شكله الشبيه بكلب البولدوغ.

رتّب المفتش ناراكوت انطباعاته ذهنياً: "ذكي، وحاد الذهن، وعملي، ويبدو قلقاً". ثم تكلم: أنت إيفانز، أليس كذلك؟

– نعم يا سيدي.

– وما اسمك الأول واسم أبيك؟

– روبرت هنري.

- حسناً. والآن، ما الذي تعرفه عن هذا الأمر؟

- لا أعرف أي شيء يا سيدي. لقد أذهلني هذا الأمر تماماً؛ فما كنت لأفكر بأن الكابتن قتل!

- متى رأيت سيدك آخر مرة؟

- أظن ذلك كان في الثانية من بعد الظهر يا سيدي. نظفت أواني الغداء ورتبت المائدة هذه كما تراها لغرض العشاء، وقد أخبرني الكابتن ألاّ حاجة لعودتي.

- ما الذي تفعله عادة؟

- عموماً أعود في حوالي الساعة السابعة لمدة ساعتين تقريباً. ولكن ليس دائماً... إذ يخبرني الكابتن أحياناً بألاّ حاجة لعودتي.

- لم تندهش -إذن- عندما قال لك البارحة إنه لن يحتاجك ثانية؟

- نعم يا سيدي. كما أنني لم أعد إليه في الليلة السابقة أيضاً... بسبب الطقس؛ فقد كان الكابتن رجلاً شديد المراعاة للآخرين، طالما أن المرء لا يتنصل من واجباته معه. إنني أعرفه وأعرف طباعه جيداً.

- ما الذي قاله بالضبط؟

- لقد نظر من النافذة وقال: "لا أمل في مجيء بيرنابي اليوم". ثم قال: "لن أعجب إذا ما انعزلت سيتافورد كلياً؛ فأنا لا أتذكر مثل هذا

الشتاء منذ أن كنتُ صبياً". كان ذلك الذي يشير إليه صديقه الميجر بيرنابي الذي يعيش في سيتافورد؛ فقد كان يأتيه دائماً أيام الجُمعة فيلعبان الشطرنج ويحلان الأحاجي الشعرية. وفي أيام الثلاثاء كان الكابتن يذهب إلى بيرنابي، وقد كان الكابتن مُنتظماً جداً في عاداته. ثم قال لي: "يمكنك الذهاب الآن يا إيفانز، ولا حاجة لعودتك حتى صباح الغد".

- وفيما عدا إشارته إلى الميجر بيرنابي، ألم يتحدث عن توقعه زيارة أحد مساء؟

- لا يا سيدي، لم يقل كلمة واحدة من ذلك.

- ألم يكن في سلوكه أي شيء غير طبيعي أو مختلف بأي شكل؟

- لا يا سيدي، لم أرَ شيئاً كهذا.

- حسناً. لقد فهمتُ -يا إيفانز- أنك قد تزوجتَ حديثاً.

- نعم يا سيدي. تزوجتُ ابنة السيدة بيلينغ، صاحبة فندق ثري كراونز... منذ نحو شهرين يا سيدي.

- ولم يُسرّ الكابتن تريفيليان كثيراً بذلك.

ارتسمت ابتسامة خفيفة جداً للحظة على وجه إيفانز وقال: لقد أظهر الكابتن غضباً شديداً من ذلك. إن زوجتي ربيكا فتاة لطيفة يا سيدي، وهي طباخة ماهرة جداً. وكنتُ آمل أن نستطيع خدمة الكابتن

معاً، ولكنه... ولكنه رفض رفضاً باتاً. قال إنه لن يضع خادمات من النساء في بيته. والحقيقة -يا سيدي- أن الأمور كانت قد وصلت إلى طريق مسدود عندما جاءت تلك السيدة من جنوب أفريقيا وأرادت استئجار منزل سيتافورد لفترة الشتاء، وعندها استأجر الكابتن هذا البيت، وأصبحتُ آتي لخدمته كل يوم. ولا أخفيك -يا سيدي- أنني كنتُ آمل أن الكابتن سيقتنع مع انتهاء فصل الشتاء بالفكرة، وأنني سأعود أنا وربيكا إلى سيتافورد معه. ما كان حتى ليُحسّ بوجودها في البيت، فقد كان من شأنها أن تبقى في المطبخ وأن تتدبر أمرها بحيث لا يلتقي بها على الدرج.

– هل لديك أية فكرة عن السبب الكامن وراء كره الكابتن تريفيليان للنساء؟

– ليس في ذلك سر يا سيدي... إنها مجرد عادة يا سيدي. لقد رأيتُ الكثير من الرجال من أمثاله من قبل، ورأيي أن ذلك لا يعدو أن يكون خجلاً. تكون فتاة ما قد ازدرتهم أيام شبابهم... فيتخذون تلك العادة.

– ألم يسبق للكابتن تريفيليان أن تزوج؟

– كلا يا سيدي.

– ماذا لديه من أقارب؟ هل تعرف؟

– أظن أن لديه أختاً تعيش في إيكزيتر يا سيدي، وأظنني سمعته مرة يذكر ابن أخت أو أبناء أخت.

– ولكن أحداً منهم لم يسبق أن جاء لرؤيته؟

– نعم يا سيدي. أظنه تشاجر مع أخته في إيكزيتر.

– هل تعرف اسم عائلة زوجها؟

– أحسب أنه غاردنر يا سيدي، ولكنني لستُ واثقاً.

– ألا تعرف عنوانها؟

– أخشى أنني لا أعرفه يا سيدي.

– حسناً، لا بد أن نجد ذلك ونحن نستعرض أوراق الكابتن تريفيليان. والآن يا إيفانز، ما الذي كنتَ تفعله أنت منذ الرابعة عصر أمس صعوداً؟

– كنتُ في البيت يا سيدي.

– أين بيتك؟

– إنه عند المنعطف يا سيدي، رقم ٨٥ بشارع فور.

– ألم تخرج مطلقاً؟

– ما كنتُ لأخرج يا سيدي؛ فقد كان الثلج ينهمر أكداساً.

– نعم، نعم. هل يوجد أي شخص يمكن أن يدعم أقوالك؟

– عفواً يا سيدي، لم أفهم.

- هل يعرف أي شخص أنك كنتَ في البيت خلال ذلك الوقت؟

- زوجتي يا سيدي.

- أكنتما وحيدين في المنزل؟

- نعم يا سيدي.

- حسناً، حسناً، لا شك عندي أن ذلك على ما يرام. هذا كل ما لديّ حالياً يا إيفانز.

تردد البحار السابق، وانتقل في وقفته من قدم إلى الأخرى ثم قال: هل أستطيع المساعدة يا سيدي... بتنظيف المكان؟

- لا... يجب إبقاء المكان كله كما هو تماماً في الوقت الحاضر.

- فهمت.

- ومع ذلك فمن الأفضل أن تنتظر حتى أكمل رؤية البيت، خشية أن ينشأ أي سؤال أريد طرحه عليك.

- حسناً يا سيدي.

حول المفتش نظره من إيفانز إلى الغرفة حوله. كانت المقابلة قد جرت في غرفة الطعام، وعلى المائدة كانت توجد وجبة مسائية: لسان بارد ومخللات وجبن، وعلى طبّاخ غازي قرب النار كان قدر فيه حساء. وعلى رف قريب كان يوجد صفٌ طويل من الكؤوس الفضية،

ومع الكؤوس كان شيء لا ينسجم مع باقي الموجودات... ثلاث روايات تبدو جديدة تماماً.

تفحص المفتش ناراكوت كأساً او كأسين وقرأ ما هو محفور عليهما. ثم قال: يبدو أن الكابتن تريفيليان كان رياضياً.

أجاب إيفانز: نعم، بالفعل يا سيدي. لقد كان رياضياً طوال حياته.

قرأ المفتش عناوين الروايات: «الحب يدير المفتاح»، «رجال لينكولن السعداء»، «سجين الحب». ثم قال: هممم، إن ذوق الكابتن في الأدب يبدو غير منسجم مع طباعه بعض الشيء.

ضحك إيفانز وقال: آه! الروايات... هذه ليست للقراءة يا سيدي. هذه هي الجوائز التي ربحها في تلك المسابقات الخاصة بأسماء الأقلام التي تجريها سكك الحديد. لقد أرسل لهم الكابتن عشر إجابات بأسماء مختلفة، بما في ذلك اسمي أنا، لأنه قال إن عنوان ٨٥ شارع فور كان من تلك العناوين التي يُحتمل أن تنال جائزة! فقد كان يرى أن الاسم والعنوان الأكثر شيوعاً له فرصة أفضل في نيل الجوائز. وقد حصلتُ على جائزة بالفعل، ولكن ليس الألفي جنيه الموعودة، بل مجرد ثلاث روايات... وهي -برأيي- من تلك الروايات التي لا يدفع أحدٌ مالاً لشرائها من مكتبة أبداً.

ابتسم ناراكوت، ثم أشار ثانية إلى ضرورة انتظار إيفانز ومضى في جولته التفتيشية. كانت في إحدى زوايا الغرف خزانة ضخمة،

وكادت تلك الخزانة تكون غرفة صغيرة بحد ذاتها، وفي الخزانة وُضع -دون ترتيب- زوجٌ من ألواح التزلج، ومجدافان، ونحو عشر أنياب لحيوان فرس النهر، وبعض العصي التي يحملها ضباط الجيش، والعديد من أدوات صيد السمك، وكتاب عن الحشرات، وكيس مليء بمضارب الغولف، ومضرب تنس، وقدم فيل محشوة ومحنطة، وجلد نمر. وقد بدا واضحاً أن الكابتن تريفيليان -عندما أجّر منزل سيتافورد مفروشاً- قد أخذ منه كل ممتلكاته القيمة الخاصة... من قلة ثقته بالنساء!

قال المفتش: فكرة غريبة... أن يحضر كل هذا معه؛ فهو لم يؤجر بيته إلاّ لبضعة أشهر، أليس كذلك؟

- هذا صحيح يا سيدي.

- من المؤكد أنه كان ممكناً إقفال خزانة على مثل هذه الأشياء في سيتافورد؟

وللمرة الثانية خلال هذه المقابلة ضحك إيفانز وقال موافقاً: كان من شأن ذلك أن يكون أسهل بكثير، رغم أن منزل سيتافورد لا يحتوي الكثير من الخزائن. لقد صممه المهندس المعماري والكابتن معاً، وإدراكُ ضرورة وجود غرفة خزائن يتطلب امرأة. ومع ذلك -كما تقول يا سيدي- كان الطبيعي أن يبقيها هناك. لقد كان حمل كل هذه الأشياء إلى هنا مهمة صعبة... نعم، أرى أنها كانت مهمة صعبة! ولكن الكابتن لم يكن يتحمل فكرة عبث أحد بأشيائه الخاصة، وكان يقول إنك مهما أقفلت على الأشياء فستجد المرأة طريقها إليها. كان يقول إنه الفضول، وإن من الأفضل ألاّ تقفل على أغراضك أبداً إن

كنتَ لا تريد للمرأة أن تعبث بها، والأفضل أن تأخذ أشياءك، وعندها ستكون مطمئناً. وهكذا فقد أخذناها، وكما قلتُ: كانت تلك مهمة صعبة، وقد كلفتنا كثيراً أيضاً. ولكن لا حيلة في ذلك؛ فقد كانت هذه الأشياء بالنسبة للكابتن أشبه بأبنائه.

ثم توقف إيفانز وقد تقطعت أنفاسه، وأومأ المفتش ناراكوت برأسه متأملاً. كانت لديه نقطة أخرى يريد معلومات عنها، وبدا له أن هذه لحظة مناسبة إذ أن الموضوع قد طُرح بشكل طبيعي. قال بشكل عرضي: تلك السيدة ويليت... أكانت صديقة قديمة للكابتن أو من معارفه؟

- آه، كلا يا سيدي؛ كانت غريبة تماماً بالنسبة له.

قال المفتش بحدة: أأنت واثق من ذلك؟

فوجئ البحار القديم من حدة السؤال وقال: حسناً... إن الكابتن لم يقل ذلك فعلياً. ولكن... نعم، إنني متأكد من ذلك.

شرح المفتش قائلاً: أنا أسأل لأن من الغريب تماماً استئجار بيت في هذا الوقت من العام. ولكن إن كانت تلك السيدة ويليت من معارف الكابتن وكانت تعرف البيت فربما تكون قد كتبت له واقترحت عليه أن تستأجره منه.

- لقد كان المكتب العقاري هو الذي كتب له... مكتب ويليامسن، وقالوا إن لديهم عرضاً من سيدة.

قطب المفتش ناراكوت جبينه، فقد وجد أن مسألة استئجار

منزل سيتافورد غريبة تماماً. سأل: أحسب أن الكابتن تريفيليان والسيدة ويليت قد التقيا، أليس كذلك؟

- نعم؛ فقد جاءت لرؤية البيت، وقد رافقها لتراه.

- وأنت واثق أنهما لم يلتقيا من قبل؟

- واثق تماماً يا سيدي.

- وهل...؟

توقف المفتش ليصوغ سؤاله بشكل طبيعي، ثم قال: وهل انسجما معاً؟ هل كانا ودودين؟

لاحت على شفتي إيفانز ابتسامةٌ خفيفة وقال: كانت السيدة ودودة. يمكنك القول إنها كانت مفرطة في الحفاوة به؛ تتعجب من البيت، وتسأله إن كان هو الذي صمم بناءه. كانت تبالغ -إجمالاً- في مديحها.

- والكابتن؟

اتسعت ابتسامة إيفانز وقال: مثل هؤلاء النساء ما كُنّ ليؤثرن في الكابتن. لقد كان مؤدباً ولبقاً، ولكن ليس أكثر من ذلك، وقد رفض دعواتها.

- دعواتها؟!

- نعم؛ لكي يعتبر البيت بيته في أي وقت، وأن يمر... هكذا

عبرت عن الزيارة... أن يمر. إن المرء لا «يمر» على مكان إن كان يسكن على بعد ستة أميال.

- لقد بدت إذن متلهفة على... على أن ترى منه شيئاً؟

كان ناراكوت يتساءل متعجباً. أكان ذلك هو سبب استئجار البيت؟ أكان مجرد مقدمة لمعرفة الكابتن تريفيليان؟ أكانت تلك هي اللعبة الحقيقية؟ ربما لم يكن يخطر لها أن الكابتن تريفيليان سيذهب بعيداً ليسكن في إيكزامبتن، وربما كانت قد وضعت حساباتها على انتقاله للسكن في واحد من البيوت الصغيرة حول المنزل، وربما اشتراكه في السكن مع الميجر بيرنابي.

لم يكن جواب إيفانز مُساعداً كثيراً، إذ قال: إنها سيدة مضيافة جداً بكل المقاييس؛ فلا يخلو البيت دوماً من ضيف على الغداء أو على العشاء.

أومأ ناراكوت برأسه. وأحسّ أنه لن يعلم شيئاً إضافياً هنا، ولكنه صمم على السعي لمقابلة هذه السيدة ويليت في وقت مبكر؛ فوصولها المفاجئ بحاجة إلى من ينظر فيه. قال: هيا يا بولوك، سنصعد إلى الطابق العلوي.

تركا إيفانز في غرفة الطعام وصعدا. وقال الرقيب بصوت منخفض وهو يومئ برأسه نحو غرفة الطعام المغلقة: أتظنه على ما يرام؟

- يبدو كذلك، ولكن المرء لا يستطيع الجزم. إن هذا الرجل ليس مغفلاً، كائناً ما كانت صفاته الأخرى.

– نعم؛ إنه من النوع الذكي.

– تبدو قصته صحيحة لا غبار عليها. واضحة تماماً ولا أسرار فيها. ومع ذلك، فكما قلت، لا يستطيع المرء الجزم.

وبهذه العبارة (التي كانت تدل أبلغ دلالة على عقل المفتش الحذر الشكاك) مضى ليفتش غرف الطابق الأول. كانت هناك ثلاث غرف نوم وحمام، وكانت غرفتان من غرف النوم فارغتين، وبدا واضحاً أنهما لم تُدخلا منذ أسابيع. أما الثالثة (وهي غرفة نوم الكابتن) فقد كانت جميلة مرتبة غاية الترتيب. دار المفتش فيها يفتح الأدراج والخزائن، وكان كل شيء في مكانه المناسب، وبدا أنها غرفة رجل مرتب إلى حد يكاد يكون خيالياً. أنهى ناراكوت تفتيشه ونظر إلى غرفة الحمام المجاورة، وكانت تلك أيضاً في غاية الترتيب. ألقى نظرة أخيرة على السرير المرتب وقد وُضعت عليه منامة (بيجاما) مطوية جاهزة، ثم هزّ رأسه وقال: لا يوجد شيء هنا.

– نعم، يبدو كل شيء في غاية الترتيب.

– بقيت الأوراق الموجودة في طاولة المكتب في الأسفل. من الأفضل أن تنظر فيها يا بولوك، وسأخبر إيفانز بأن باستطاعته الذهاب. ربما عدت لزيارته في بيته لاحقاً.

– حسناً يا سيدي.

– يمكن نقل الجثة، وسوف أحتاج لرؤية وورين بالمناسبة. إنه يعيش قريباً من هنا، أليس كذلك؟

– نعم يا سيدي.

– هل بيته أقرب إلينا من فندق ثري كراونز أم العكس؟

– بل الفندق أقرب يا سيدي.

– سأمر على الفندق أولاً إذن. استمرّ أنت أيها الرقيب.

نزل بولوك إلى غرفة الطعام ليطلب من إيفانز الانصراف. وخرج المفتش من الباب الأمامي ومشى بسرعة باتجاه فندق ثري كراونز.

* * *

الفصل السادس

في الفندق

لم يُقدّر للمفتش ناراكوت أن يرى الميجر بيرنابي قبل أن يتعرض لمقابلة مطولة مع السيدة بيلينغ، مالكة فندق ثري كراونز. كانت السيدة بيلينغ سمينة منفعلة ومهذارة إلى حد لم يكن معه ما يمكن فعله سوى الاستماع بصبر حتى يأتي الوقت الذي يجف فيه فيض حديثها. وقد أنهت ذلك الحديث بالقول: كما أننا لم نرَ مثل تلك الليلة، ولم يفكر أحد منا بما كان يحدث للكابتن العزيز المسكين. يا لأولئك المشردين القذرين! لقد قلتها عشرات المرات دون مبالغة... إنني لا أتحمل أولئك المشردين؛ فمن شأنهم قتل أي شخص، وليس للكابتن حتى كلب يحميه. لا يستطيع المشردون مواجهة كلب. آه، لا يعرف المرء أبداً ما الذي يحصل على بعد خطوات منه.

وجواباً على سؤال منه قالت: نعم يا سيد ناراكوت. إن الميجر يتناول إفطاره الآن، وستجده في غرفة القهوة... ويا لليلة التي قضاها دون ملابس نوم! وأنا امرأة أرملة ليس لديّ ما أُعيره إياه، ولكنه قال إن

ذلك لا يهم. كان في غاية الانزعاج، وبدا غريباً جداً. ولا عجب في ذلك بعد أن قُتل أعز صديق لديه؛ فقد كان الاثنان رجلين لطيفين تماماً، مع أن للكابتن سمعة تقول إنه بخيل بماله. آه، لقد كنتُ دوماً أرى أن من الخطورة العيش في سيتافورد؛ فهي تبعد أميالاً عن أي مكان، ولكن ها هو الكابتن يُقتل في إيكزامبتن نفسها. إن ما لا تتوقعه في هذه الحياة هو دائماً الذي يقع، أليس كذلك يا سيد ناراكوت؟

قال المفتش إن ذلك صحيح دون شك. ثم أضاف: مَن كان يقيم عندك هنا يوم أمس يا سيدة بيليتغ؟ هل جاء غرباء؟

– دعني أنظر. كان عندنا السيد مورسبي والسيد جونز، وهما تاجران، وأيضاً شاب من لندن. لا أحد غير هؤلاء، ومن الطبيعي ألاّ يكون عندنا الكثير من النزلاء في مثل هذا الوقت من السنة؛ فالحياة هادئة جداً هنا في الشتاء. آه، وقد جاء شاب آخر أيضاً... وصل في آخر قطار. شاب فضولي متطفل، ولكنه لم يستيقظ بعد.

– وصل في آخر قطار؟ الذي يصل في الساعة العاشرة؟ لا أظن أننا بحاجة لأن نشغل أنفسنا به. ماذا عن الآخر... الشاب القادم من لندن؟ هل تعرفينه؟

– لم أره في حياتي أبداً من قبل. وهو ليس تاجراً، كلا، إنه أعلى منزلة من ذلك. لا أذكر اسمه الآن، ولكنك ستجده في السجل. وقد غادر على أول قطار إلى إيكزيتر صباح اليوم؛ قطار السادسة وعشر دقائق. أمره غريب بعض الشيء، فما الذي أراده من هنا على أية حال، هذا ما أود معرفته.

- ألم يذكر عمله؟

- أبداً.

- وهل خرج أمس؟

- لقد وصل وقت الغداء، وخرج في حوالي الرابعة والنصف وعاد في حوالي السادسة والثلث.

- إلى أين ذهب عندما خرج؟

- ليست لديّ أي فكرة عن ذلك يا سيدي. ربما خرج فقط ليتمشى، فقد كان ذلك قبل سقوط الثلج، ولكن لم يكن من السارِّ أن يتمشى المرء في يوم كيوم أمس.

قال المفتش متأملاً: خرج في الرابعة والنصف وعاد في حوالي السادسة والثلث... هذا غريب نوعاً ما. ألم يذكر الكابتن تريفيليان؟

- لا يا سيد ناراكوت؛ لم يذكر أي شخص على الإطلاق. كان يحتفظ بشؤونه لنفسه، وكان شاباً جميل الطلعة... ولكنه قلق، فيما أظن.

أومأ المفتش برأسه وتقدم ليتفحص السجل، ثم قال: «جيمس بيرسن، لندن»... هذا لا يخبرنا بالكثير. سيتعين علينا أن نقوم ببعض التحريات حول السيد جيمس بيرسن.

ثم مضى إلى غرفة القهوة بحثاً عن الميجر بيرنابي.

كان الميجر وحيداً في الغرفة، يشرب قهوة بدت كأنها موحلة وقد انتصبت أمامه صحيفة التايمز.

- الميجر بيرنابي؟

- هذا اسمي.

- أنا المفتش ناراكوت من إيكزيتر.

- صباح الخير أيها المفتش. هل من تقدّم؟

- نعم يا سيدي... أظن أننا تقدمنا قليلاً. بوسعي قول ذلك باطمئنان.

قال الميجر ببرود: "يسعدني سماع ذلك". ولكن أسلوبه كان أسلوب مُرتاب مُستسلم.

- لديّ الآن بعض النقاط التي أريد معلومات عنها يا سيد بيرنابي، وأظن أنك ربما استطعت إخباري بما أريد معرفته.

- سأفعل ما أستطيع.

- هل لدى الكابتن تريفيليان أي أعداء حسب معلوماتك؟

قال بيرنابي بحزم: ولا أي عدو في العالم.

- هذا الرجل إيفانز... هل تعتبره أنت موضع ثقة؟

- أظن ذلك، وأعرف أن تريفيليان كان يثق به.

- ألم تتكون مشاعر حقد بسبب زواجه هذا؟

- ليس حقداً، كلا. ولكن تريفيليان انزعج... لم يرد أن تضطرب عاداته؛ إنه أعزب مُسن كما تعلم.

- موضوع العُزّاب هذا موضوع آخر. لم يكن الميجر تريفيليان متزوجاً... فهل تعرف إن كان قد كتب وصية؟ وإلّم تكن له وصية فهل لديك فكرة عمّن سيرث ممتلكاته؟

أجاب بيرنابي بحزم: لقد كتب تريفيليان وصية.

- آه... أنت تعرف ذلك؟

- نعم، وقد جعلني وصياً على تنفيذها. هو أخبرني بذلك.

- هل تعرف كيف وزّع أمواله؟

- هذا ما لا أستطيع قوله.

- لقد فهمتُ أنه كان غنياً ميسوراً؟

- لقد كان تريفيليان غنياً، وأحسب أنه كان أغنى بكثير مما يظن أي امرئ هنا.

- هل تعرف إن كان له أقارب؟

- أظن أن له أختاً وبعض أبناء وبنات الأخت. لم يكن يراهم كثيراً، ولكن لم تكن بينهم قطيعة.

- بالنسبة لتلك الوصية، هل تعرف أين يحتفظ بها؟

- إنها في مكتب وولترز وكيركوود، وهم المحامون هنا في إيكزامبتن. هم الذين كتبوها له.

- إذن فباعتبارك وصياً على تنفيذها فإنني أتساءل إن كان بوسعك الذهاب معي إلى ذلك المكتب الآن. أود أن أطّلع على محتويات تلك الوصية بأسرع ما يمكن.

رفع الميجر بيرنابي نظره متيقظاً وقال: ما الأمر؟ ما علاقة الوصية بالأمر؟

لم يكن المفتش ناراكوت في مزاج يجعله يكشف أوراقه بمثل هذه السرعة، ولذلك قال: إن القضية ليست على ذلك القدر من الوضوح الذي ظنناه. وبالمناسبة، لديّ نقطة أخرى أردتُ سؤالك عنها؛ فقد فهمتُ -يا ميجر بيرنابي- أنك سألتَ الطبيب إن كانت الوفاة قد حدثت في الساعة الخامسة والثلث، أليس كذلك؟

قال الميجر بجفاء: وماذا لو سألته؟

- ما الذي جعلك تختار ذلك الوقت تحديداً أيها الميجر؟

- ولماذا لا أختاره؟

- لا بد أن شيئاً جعلك تفكر فيه.

ساد صمت طويل قبل أن يجيب الميجر بيرنابي. وقد اشتد اهتمام المفتش ناراكوت؛ فلدى الميجر شيء يتمنى -بوضوح- إخفاءه، وقد كادت مراقبته وهو يفعل ذلك تثير الضحك. وأخيراً سأل الميجر

بتحد: ولماذا لا أقول الخامسة وخمساً وعشرين دقيقة؟ أو السادسة إلاّ ثلثاً... أو الرابعة والثلث إذا شئت؟

قال المفتش يهدئه: هذا صحيح يا سيدي.

لم يكن يرغب بإثارة عداء الميجر في هذه اللحظة، ولكنه وعد نفسه بأن يصل إلى قرارة الأمر قبل انتهاء النهار، ولذلك مضى قائلاً: يوجد شيء لفت انتباهي باعتباره غريباً يا سيدي.

– وما هو؟

– قضية تأجير منزل سيتافورد هذه. لا أدري ما هو رأيك بها، ولكن حدوثها يبدو لي أمراً غريباً.

– إن أردت رأيي فهي غريبة جداً.

– أهذا هو رأيك؟

– بل هو رأي الجميع.

– في سيتافورد؟

– في سيتافورد، وفي إيكزامبتن أيضاً. لا بد أن المرأة مجنونة.

قال المفتش: حسناً، لا أحسب أن للأذواق ضابطاً يحكمها.

– ولكنه ذوق غريب جداً لامرأة من ذلك النوع.

– هل تعرف السيدة؟

– أنا أعرفها، بل كنتُ في بيتها عندما...

سأل المفتش عندما توقف الميجر فجأة: عندما ماذا؟

– لا شيء.

نظر إليه المفتش بإمعان. لدى الميجر شيء بوده لو يصل إليه، ولم تفُت المفتش ملاحظة اضطراب الميجر وحرجه، ولكنه قال لنفسه: "كل شيء بأوانه. ليست هذه هي اللحظة التي أغيظه فيها بحيث يتكلم". ثم قال للميجر ببراءة: تقول إنك كنت في منزل سيتافورد يا سيدي. منذ متى تسكن السيدة هناك؟

– منذ شهرين.

كان الميجر تواقاً للهرب من نتيجة كلماته الطائشة التي أفلتت منه، وقد جعله ذلك ثرثاراً أكثر من المعتاد.

– وهي أرملة مع ابنتها؟

– نعم.

– هل أعطت أي سبب لاختيارها سُكناها؟

حكّ الميجر أنفه بارتياب وقال: إنها تتكلم كثيراً؛ فهي من ذلك النوع من النساء. جمال الطبيعة... والعزلة عن العالم... مثل هذه الأشياء. ولكن...

توقف كالعاجز، ولكن المفتش ناراكوت بادر لمساعدته قائلاً:

لم ترَ أنت أن هذا الكلام طبيعي منها؟

- لنقل إن الأمر كما يلي: إنها من ذلك النوع المعاصر الذي يتبع الموضة وتتأنق في ملبسها، وابنتها فتاة جميلة ذكية. وكان من الطبيعي بالنسبة لهما أن تقيما في فندق ريتز أو كلاريدج، أو في فندق ضخم آخر في مكان ما. أنت تعرف تلك النوعية.

أومأ ناراكوت برأسه ثم سأل: وهما غير متكتمتين أو منغلقتين، أليس كذلك؟ لا أحسبك تظن أنهما... تخفيان شيئاً؟

هز الميجر بيرنابي رأسه بتأكيد وقال: لا، لا شيء من ذلك؛ فهما اجتماعيتان جداً... بل مسرفتان قليلاً في ذلك. أعني أنك -في مكان صغير مثل سيتافورد- لا تكون لك ارتباطات مسبقة، وعندما تنهال عليك الدعوات يصبح الأمر فظيعاً بعض الشيء. إنهما في غاية اللطف وحسن الضيافة، ولكن ضيافتهما تتعدى قليلاً المقاييس الإنكليزية.

- تأثير المستعمرات؟

- نعم، أظنه كذلك.

- أليس لديك سبب يدفعك للظن بأنهما كانتا تعرفان الميجر تريفليان من قبل؟

- من المؤكد أنهما لم تعرفاه.

- تبدو جازماً جداً.

- كان من شأن جو أن يخبرني.

- ألا ترى أن دافعهما قد يكون... محاولة التعرف على الكابتن تريفليان؟

بدا واضحاً أن تلك الفكرة كانت جديدة تماماً على الميجر بيرنابي. فكر فيها للحظات ثم قال: أنا لم أفكر في ذلك. لقد كانتا -بالتأكيد- شديدتي الإفراط في مجاملته، رغم أنهما لم يحصلا على أي تغيير من جو. ولكن كلا، أظنه كان أسلوبهما المعتاد.

ثم أضاف العسكري ذو العقلية الضيقة: إنهما مفرطتان في الود، كما هي حال أهل المستعمرات.

- فهمت. بالنسبة للبيت نفسه، سمعتُ أن الكابتن بناه بنفسه؟

- نعم.

- ألم يسكن فيه أحد آخر من قبل؟ أعني أنه لم يؤجّر من قبل؟

- أبداً.

- إذن لا يبدو أن في البيت شيئاً محدداً كان هو ما جذب السيدتين إليه. إنها أحجية! والأغلب ألاّ يكون لهذا الأمر علاقة بالقضية، ولكنه استرعى انتباهي كمصادفة غريبة. وهذا البيت الذي استأجره الكابتن تريفليان، لمن هو؟

- إنه لامرأة تدعى السيدة لاربنت، وهي امرأة في أواسط عمرها

ذهبت لقضاء الشتاء في نُزُل في تشيلتنهام، وهي تفعل ذلك كل سنة. وكانت عادة تقفل البيت، ولكنها تؤجره إن استطاعت، وهو أمر نادر الحدوث.

لم يبدُ في هذا الموضوع ما يغري بمتابعته. هز المفتش رأسه بشيء من خيبة الأمل، ثم قال: لقد فهمتُ أن وكلاء البيت كانوا مكتب ويليامسن العقاري، أليس كذلك؟

- بلى.

- ومكتبهم في إيكزامبتن؟

- مجاور تماماً لمكتب وولترز وكيركوود للمحاماة.

- آه! إذن فإن بوسعنا -إذا لم تمانع- أن نمر عليهم في طريقنا.

- لا بأس؛ فأنت -على أية حال- لن تجد كيركوود في مكتبه قبل العاشرة... أنت تعرف المحامين.

- هل نذهب إذن؟

أومأ الميجر (الذي كان قد أنهى إفطاره منذ زمن) بالموافقة، ونهض واقفاً.

* * *

الفصل السابع
الوصية

نهض شاب يقظ الهيئة لاستقبالهما في مكتب ويليامسن العقاري قائلاً: صباح الخير يا ميجر بيرنابي.

- صباح الخير.

قال الشاب لمجرد الحديث: إن ذلك لأمر فظيع. لم يحدث مثل هذا الأمر في إيكزامبتن منذ سنوات طويلة.

كان يتكلم بحماسة، وقد رمشت عينا الميجر وقال: هذا هو المفتش ناراكوت.

قال الشاب وقد تحمس وانفعل: آه! نعم.

قال المفتش: أريد بعض المعلومات التي أظن أن بوسعك أن تخبرني بها. لقد فهمتُ أنكم أنتم الذين قمتم بعملية تأجير منزل سيتافورد.

- للسيدة ويليت؟ نعم، نحن الذين أجّرناه.

- هل لك أن تعطيني -من فضلك- تفاصيل كاملة عن كيفية حدوث ذلك؟ هل تقدمت السيدة بطلب شخصي أم عبر رسالة؟

- عن طريق رسالة. لقد كتبت، دعني أنظر...

ثم فتح درجاً وأخرج منه ملفاً وقال: نعم، كتبت من فندق كارلتون في لندن.

- هل ذكرت منزل سيتافورد بالاسم؟

- لا، بل اكتفت بالقول إنها تريد استئجار بيت لفترة الشتاء، وينبغي أن يكون على طريق دارتمور وفيه ثماني غرف نوم. وليس من المهم أن يكون قريباً من محطة قطارات أو من مدينة.

- هل كان منزل سيتافورد في سجلاتكم؟

- لا، لم يكن. ولكن الحقيقة أنه كان البيت الوحيد في المنطقة الذي يلبي كل الشروط معاً. وقد ذكرت السيدة في رسالتها أنها مستعدة لدفع ما يصل إلى اثني عشر جنيهاً، وفي هذه الظروف رأيت أن من المجدي أن أكتب للكابتن تريفيليان وأسأله إن كان مستعداً للتفكير بتأجير البيت. وقد أجابني بالإيجاب، فقمنا بإبرام الإتفاق.

- دون أن ترى السيدة ويليت المنزل؟

- وافقت على استئجاره دون أن تراه، ووقعت على الاتفاق، ثم

جاءت إلى هنا في أحد الأيام واستأجرت سيارة إلى سيتافورد ورأت الكابتن تريفيليان واتفقت معه على مسائل الأواني والشراشف وغير ذلك ورأت البيت.

- وهل اقتنعت تماماً؟

- جاءتنا وقالت إنها سعيدة بالأمر.

قال المفتش ناراكوت وهو ينظر إليه بإمعان: وماذا كان رأيك أنت؟

رفع الشاب كتفيه حيرة وقال: المرء يتعلم -في مهنة العقارات- ألاّ يندهش أبداً من أي شيء.

وبهذه الملاحظة الفلسفية غادر الرجلان بعد أن شكر المفتش الشابَّ على مساعدته.

* * *

كان مكتب وولترز وكيركوود للمحاماة -كما قال الميجر بيرنابي- مجاوراً للمكتب العقاري، ولدى وصولهما إلى هناك قيل لهما إن السيد كيركوود قد وصل لتوه وأخذا إلى غرفته.

كان السيد كيركوود رجلاً كهلاً ذا سمت رقيق لطيف، وهو من أهالي إيكزامبتن، وقد خلف والده وجدّه في إدارة هذا المكتب. نهض راسماً أسلوب الحداد على وجهه وصافح الميجر قائلاً: صباح الخير يا ميجر بيرنابي. إن هذه قضية تثير الصدمة تماماً، فظيعة جداً، يا

لتريفيليان المسكين!

ثم نظر متسائلاً إلى المفتش فقام الميجر بشرح سبب وجوده ببضع كلمات مقتضبة، فقال المحامي: أأنت المسؤول عن القضية أيها المفتش؟

– نعم يا سيد كيركوود، ومتابعةً لتحرياتي فقد جئتُ لأطلب منك بعض المعلومات.

– سيسعدني أن أعطيك أية معلومات إن كان مناسباً لي أن أفعل ذلك.

– إنها تخص وصية الكابتن الراحل تريفيليان. فقد فهمتُ أن الوصية هنا في مكتبك.

– هذا صحيح.

– هل كُتبت منذ زمن بعيد؟

– منذ خمس سنوات أو ست؛ لا أستطيع الجزم بالتاريخ الدقيق حالياً.

– أنا حريص –يا سيد كيركوود– على معرفة محتويات تلك الوصية بأسرع ما يمكن؛ فقد تكون لها علاقة قوية بالقضية.

– حقاً؟ حقاً! ما كنتُ لأظن ذلك، ولكن من الطبيعي أنك تعرف عملك أكثر مني أيها المفتش. حسناً...

ثم نظر إلى الميجر بيرنابي وقال: أنا والميجر بيرنابي وصيان مشتركان على تنفيذ الوصية، فإن لم يكن لديه اعتراض...

– أبداً.

– إذن فأنا لا أرى سبباً لعدم الاستجابة لطلبك أيها المفتش.

تناول سماعة الهاتف وتكلم بها بضع كلمات، وبعد قليل دخل الغرفةَ موظفٌ فوضع مغلفاً مختوماً أمام المحامي ثم غادر الغرفة. أخذ السيد كيركوود المغلف ففتحه بسكين لفتح الرسائل وأخرج منه وثيقة ضخمة ظاهرة الأهمية، ثم تنحنح وبدأ يقرأ:

أنا جوزيف آرثر تريفيليان، الساكن في منزل سيتافورد، في سيتافورد، مقاطعة ديفون، أعلن أن هذه هي وصيتي الأخيرة التي كتبتها في هذا اليوم، الثلاثين من آب عام ألف وتسعمئة وستة وعشرين.

١– إنني أعيّن جون إدوارد بيرنابي الساكن في البيت رقم ١ في سيتافورد، والسيد فريديريك كيركوود الساكن في إيكزامبتن ليكونا وصيين ومنفذين لوصيتي هذه.

٢– إنني أعطي لروبرت هنري إيفانز الذي خدمني بإخلاص لفترة طويلة مبلغ ١٠٠ (مئة جنيه) معفاة من ضريبة الإرث لفائدته كلياً، شريطة أن يكون في خدمتي وقت وفاتي وليس مُقدّماً إشعاراً بترك العمل عندي.

٣– إنني أعطي للمذكور جون إدوارد بيرنابي –عربوناً

لصداقتنا ولحبي واحترامي له- كل جوائزي الرياضية، بما في ذلك مجموعتي من الرؤوس والأحزمة التي نلتها في الصيد، وكذلك كل الكؤوس والجوائز التي مُنحت لي في أي مجال من مجالات الرياضة وأية غنائم أملكها من مجال الصيد.

٤- إنني أعطي كل ممتلكاتي المنقولة وغير المنقولة التي لم يتم توزيعها في وصيتي هذه أو في أي ملحق لها، لوصيَّ المذكورين بحيث يبيعان تلك الممتلكات ويسحباتها من التداول ويحولانها إلى مال.

٥- سيقوم وصياي -بما حصل لديهما من أموال من عمليات البيع ووقف التداول والتحويل إلى مال- بدفع كل نفقات الجنازة والوصية والديون، والحصص المنصوص عليها في وصيتي هذه أو في أي ملحق لها، وكل ضرائب التركة وغيرها من النفقات.

٦- سيقسم وصياي تلك الأموال إلى أربعة أقسام أو حصص متساوية، وبعدها سيقوم وصياي بتخصيص قسم أو حصة من تلك الحصص لدفعها لأختي جينيفر غاردنر لاستخدامها الخاص وتصرفها كلية. كما سيقوم وصياي بدفع الحصص المتساوية الثلاث المتبقية بواقع حصة واحدة لكلٍ من الأبناء الثلاثة لأختي الراحلة ماري بيرسن، لاستخدامِ كل واحد من أولئك الأبناء وتصرفه كلية.

وشهادة على ذلك فإنني -أنا جوزيف آرثر تريفيليان-

أضع توقيعي في اليوم والسنة المذكورين أعلاه.

وُقّعت من قبل الموصي المذكور أعلاه كآخر وصية له بحضورنا كلينا في نفس الوقت، وبحضوره وبناء على طلبه وضعنا توقيعنا كشاهدين.

ثم سلم السيد كيركوود الوصية للمفتش وقال: لقد شهد عليها اثنان من موظفيَّ في هذا المكتب.

نظر المفتش في الوصية متأملاً وقال: أختي الراحلة ماري بيرسن، هل تستطيع أن تخبرني شيئاً عن السيدة بيرسن يا سيد كيركوود؟

- لا أستطيع إخبارك سوى بالقليل. لقد توفيت منذ نحو عشر سنوات كما أظن، وقد توفي زوجها (وكان سمسار أسهم) قبل وفاتها. وحسبما أعرفه فإنها لم تزُر الكابتن تريفيليان هنا أبداً.

قال المفتش ثانية: شيء آخر. لم يرد ذكر لقيمة أملاك الكابتن تريفيليان. كم تبلغ قيمتها بتقديرك؟

قال السيد كيركوود وهو يستمتع (ككل المحامين) بجعل الإجابة على الأسئلة السهلة إجابة صعبة: يصعب قول ذلك بالضبط. إنها مسألة أموال منقولة وغير منقولة، وبالإضافة إلى منزل سيتافورد فإن الكابتن تريفيليان يمتلك بعض الممتلكات قرب بلايموث، وقد تذبذبت كثيراً قيمة بعض الاستثمارات التي قام بها من وقت لآخر.

قال المفتش: أنا لا أريد إلاّ فكرة تقريبية.

– لا أحب أن أُلزم نفسي...

– مجرد تقدير عام جداً. مثلاً: هل من شأن ثروته أن تقارب عشرين ألف جنيه؟

– عشرين ألف جنيه؟! يا سيدي العزيز، إن ممتلكات الكابتن تريفيليان ستساوي أربعة أضعاف هذا المبلغ على الأقل... ثمانون أو حتى تسعون ألف جنيه سيكون مبلغاً أقرب للحقيقة.

قال الميجر بيرنابي: لقد قلتُ لك إن تريفيليان كان رجلاً غنياً.

نهض المفتش ناراكوت وقال: شكراً جزيلاً لك يا سيد كيركوود للمعلومات التي أعطيتني إياها.

– أتظن أنك ستجدها مفيدة؟

كان واضحاً أن المحامي شديد الفضول، ولكن المفتش ناراكوت لم يكن في مزاج يتيح له إشباع ذلك الفضول حالياً. ولذلك قال دون إلزام نفسه بموقف: في قضية كهذه علينا أن نأخذ كل شيء في الحسبان. وبالمناسبة، هل لديك أسماء وعناوين جينيفر غاردنر وعائلة بيرسن؟

– لا أعرف شيئاً عن عائلة بيرسن، أما عنوان السيدة غاردنر فهو: لوريلز، شارع وولدن، إيكزيتر.

سجل المفتش العنوان في دفتر ملاحظاته وقال: هذا يكفي الآن. ألا تعرف كم ولداً تركت السيدة بيرسن؟

– أظنهم ثلاثة. فتاتين وصبياً... أو ربما صبيين وفتاة... لا أذكر أيهما.

أومأ المفتش برأسه، ووضع دفتر الملاحظات في جيبه وشكر المحامي ثانية وغادر هو والميجر. وعندما وصلا إلى الشارع التفت المفتش فجأةً وواجه صاحبه قائلاً: والآن يا سيدي، سنسمع الحقيقة حول مسألة الساعة الخامسة وخمس وعشرين دقيقة.

احمرّ وجه الميجر بيرنابي انزعاجاً وقال: لقد أخبرتك من قبل...

– لن يقنعني ذلك. إن ما تفعله يا ميجر بيرنابي هو إخفاء معلومات. لا بد أن فكرةً ما كانت في رأسك عندما ذكرتَ ذلك الوقت المحدد للدكتور وورين... وأظن أن لديّ فكرة جيدة جداً عما كان يدور في رأسك.

دمدم الميجر قائلاً: حسناً، إن كنتَ تعرف فلماذا تسألني؟

– أحسب أنك كنتَ تعرف أن شخصاً معيناً كان على موعد مع الكابتن تريفيليان في نحو ذلك الوقت. أليس الأمر كذلك؟

حدق الميجر بيرنابي به مندهشاً وزمجر قائلاً: لا يوجد شيء من هذا... لا يوجد شيء منه.

– كن حذراً يا سيد بيرنابي، ماذا عن السيد جيمس بيرسن؟

– جيمس بيرسن؟ من هو جيمس بيرسن؟ أتعني أنه واحد من أبناء أخت تريفيليان؟

– أزعم أنه كذلك. إن لديه ابن أخت يدعى جيمس، أليس كذلك؟

– ليست لديّ أدنى فكرة عن ذلك. أعرف أن للكابتن تريفيليان أبناء أخت، ولكنني لا أعرف أبداً ما هي أسماؤهم.

– لقد كان الشاب المعني في فندق ثري كراونز في الليلة الماضية، وربما ميّزتَه هناك.

– لم أميّز أحداً، وما كنتُ لأميزه على أية حال... فلم أرَ أحداً من أبناء أخت تريفيليان طوال حياتي.

– ولكنك كنت تعرف أن الكابتن تريفيليان كان ينتظر ابن أختٍ له سيزوره بعد ظهر أمس؟

دمدم الميجر بصوت عالٍ: لم أكن أعرف ذلك.

التفت العديد من الناس في الشارع ليحدقوا به فيما مضى قائلاً: تباً، ألا تتقبل الحقيقة الواضحة؟ لم أكن أعرف شيئاً عن أي موعد، وليست لديّ أدنى فكرة عن مكان وجود أبناء أخت تريفيليان.

فوجئ المفتش ناراكوت قليلاً؛ فقد كان إنكار الميجر المتحمس يحمل رنّة الحقيقة بشكل أوضح من أن يفوتَ المفتش.

– لماذا إذن مسألة الساعة الخامسة وخمس وعشرين هذه؟

– حسناً، أحسب أن من الأفضل أن أخبرك.

ثم تنحنح الميجر بأسلوب ينم عن الحرج وقال: ولكن تذكّر... الأمر كله في غاية السخف... هراء في هراء. كيف لأي إنسان عاقل أن يؤمن بهذا السخف؟!

بد المفتش تاراكوت أكثر دهشة. كان الميجر بيرنابي يبدو أكثر تململاً وخجلاً من نفسه مع كل دقيقة تمر.

– أنت تعرف مثل هذه الأمور أيها المفتش. يترتب عليك أن تشارك في مثل هذه الأمور لكي تُفرح النساء. إنني لم أرَ طبعاً أي شيء في ذلك.

– في ماذا يا ميجر بيرنابي؟

– في تحضير الأرواح.

– تحضير الأرواح؟

كائناً ما كان ما توقّعه المفتش فإنه لم يتوقّع هذا الجواب. ومضى الميجر ليشرح موقفه، فوصف –بتردد وبالكثير من العبارات التي تنفي فيها إيمانه الشخصي بهذا الأمر– أحداث المساء السابق والرسالة التي زُعم أنها جاءت إليه.

– أتعني –أيها الميجر– أن الطاولة قد تهجّت اسم تريفيليان وأخبرتكم أنه ميت... أو مقتول؟

مسح الميجر بيرنابي جبينه وقال وقد بدا خجلاً: نعم، هذا ما حدث. أنا لم أصدق ذلك طبعاً، لم أصدقه. ولكن... كان اليوم يوم

جمعة، وفكرت أن أقوم في نهاية الأمر بالتأكد والذهاب لرؤية ما إذا كان كل شيء على ما يرام.

فكر المفتش بصعوبة تلك المسيرة لمسافة ستة أميال، بما اكتنفها من أكوام الثلج، وتوقع سقوط الثلج بكثافة، وأدرك أن الميجر بيرنابي قد تأثر بشكل عميق –دون شك– بتلك الرسالة الروحانية رغم كل إنكاره. قلب تاراكوت الموضوع في عقله. إن حدوث ذلك أمر غريب... أمر غريب جداً. إنه من الأمور التي لا يستطيع المرء شرحها بشكل مقنع، لقد كانت هذه أول قضية موثقة تماماً يصادفها في هذا الموضوع.

قضية غريبة جداً إجمالاً، ولكنه رأى أنها –رغم تفسيرها لموقف الميجر بيرنابي– لا تحمل دلالات عملية تتعلق بالقضية قدر تعلق الأمر به هو؛ فهو مضطر للتعامل مع العالم المادي لا مع عالم الغيبيات. كانت مهمته أن يمسك بالقاتل. ولن يحتاج –للقيام بذلك– لإرشادات من عالم الأرواح.

* * *

الفصل الثامن

السيد تشارلز إندربي

نظر المفتش إلى ساعته وأدرك أن لديه من الوقت ما يكاد يستطيع به اللحاق بالقطار الذاهب إلى إيكزيتر إن هو أسرع. كان متلهفاً على مقابلة أخت الراحل تريفيليان بأسرع ما يمكن والحصول منها على عناوين بقية أفراد العائلة، وهكذا ودّع الميجر بيرنابي بسرعة وهرع مسرعاً إلى المحطة.

وعاد الميجر أدراجه إلى فندق ثري كراونز، ولم يكد يضع قدمه داخل عتبة الفندق حتى أتاه شاب مرح ذو رأس لامع جداً ووجه صبياني مدور وقال: الميجر بيرنابي؟

– نعم.

– الساكن في البيت رقم ١ في سيتافورد؟

– نعم.

– إنني أمثل صحيفة «ديلي واير» وأنا...

ولكنه لم يستطع إكمال كلامه، فبأسلوب عسكري حقيقي من الطراز القديم انفجر الميجر قائلاً: لا تقل كلمة أخرى... إنني أعرفك وأعرف أمثالك؛ لا تحفّظ ولا شرف... تتجمعون حول جرائم القتل كما تتجمع النسور حول الجيف. ولكنني أقول لك -أيها الشاب- إنك لن تأخذ أية معلومات مني... ولا كلمة. لن تفوز بتقرير لصحيفتك التعسة. إن أردت أن تعرف شيئاً اذهب واسأل الشرطة، وليكن لديك من الذوق ما تدع به أصدقاء الميت وشأنهم.

لم يبد على الشاب أنه فوجئ على الإطلاق؛ فقد ابتسم بطريقة أكثر تشجيعاً من ذي قبل وقال: أقول يا سيدي إنك فهمت الأمر خطأً. إنني لا أعرف شيئاً عن قضية القتل هذه.

لم تكن هذه هي الحقيقة بالضبط؛ فلا يمكن لأحد في إيكزامبتن أن يزعم الجهل بالحدث الذي هز البلدة الهادئة حتى أعماقها.

تابع الشاب قائلاً: إنني مخول باسم صحيفة «ديلي واير» أن أسلمك هذا الشيك بمبلغ خمسة آلاف جنيه، وأن أهنئك على إرسال الحل الصحيح الوحيد لمسابقة الصحيفة الخاصة بكرة القدم.

صُعق الميجر بيرنابي تماماً، فيما مضى الشاب قائلاً: لا شك أنك قد استلمتَ صباح أمس رسالتنا التي تنبئك بالخبر السعيد.

– رسالتكم؟ أتدرك أيها الشاب أن سيتافورد تنام تحت طبقة من الثلج ارتفاعها عشرة أقدام؟ فأية فرصة لنا في استلام بريد منتظم خلال الأيام الماضية برأيك؟

– ولكن لا ريب أنك رأيت اسمك مُعلناً هذا الصباح باعتبارك الفائز في المسابقة؟

– لا، لم أطالع الصحيفة صباح اليوم.

– آه، طبعاً. بسبب هذه القضية المؤسفة. فهمتُ أن الرجل القتيل كان صديقك.

– بل أفضل صديق لدي.

قال الشاب وهو يخفض عينيه بمهارة: "أمر مؤسف تماماً"، ثم سحب من جيبه ورقة صغيرة وردية مطوية وسلمها للميجر بيرنابي مع انحناءة احترام قائلاً: مع تحيات صحيفة ديلي واير.

أخذ الميجر بيرنابي الشيك وقال الكلمات الوحيدة الممكنة في ظل تلك الظروف: هل لك في شرب شيء يا سيد...

– إندربي، اسمي تشارلز إندربي. وصلتُ إلى هنا ليلة أمس، وسألتُ عن كيفية الوصول إلى سيتافورد؛ فنحن نحرص على تسليم الجوائز شخصياً للفائزين. وننشر دوماً مقابلة صغيرة مع الفائز، فهذا يثير اهتمام قرائنا. وقد أخبرني الجميع أن الوصول إلى سيتافورد مستحيل؛ فالثلج يتساقط ويتعذر تدبير ذلك. وبعد ذلك كان من دواعي الحظ العظيم أن أجد أنك هنا عملياً، تقيم في فندق ثري كراونز.

ثم ابتسم وقال: ما من صعوبة في مسألة التعرف على الناس هنا؛ فكل امرئ يعرف الجميع في هذه المنطقة.

- ماذا ستشرب؟

- أفضّل القهوة.

طلب الميجر فنجانين من القهوة، وقال إندربي: يبدو أن المنطقة كلها قد اهتزت لهذه الجريمة. قضية غامضة بكل المقاييس.

دمدم الميجر؛ فقد كان في موقف صعب محير. كانت عواطفه إزاء الصحفيين باقية لم تتغير، ولكن من شأن امرئ سلّمك لتوه شيكاً بمبلغ خمسة آلاف جنيه أن يكون في موقف أفضلية، فلا يمكنك أن تطلب منه ببساطة أن يذهب إلى الجحيم.

سأل الشاب: أكان له أعداء؟

- لا.

- ولكنني سمعتُ أن الشرطة لا يرون أن الأمر عملية سطو.

- كيف عرفت ذلك؟

ولكن السيد إندربي لم يكشف مصادر معلوماته، بل قال: سمعتُ أنك أنت من اكتشف الجثة يا سيدي.

- نعم.

- لا بد أنها كانت صدمة كبيرة.

وهكذا مضى الحديث. كان الميجر بيرنابي ما يزال مصمماً على عدم إعطاء معلومات، ولكنه لم يكن بمستوى مهارة السيد إندربي؛

فقد كان الأخير يقول جُملاً لا يجد الميجر بُداً من الإجابة عليها بنعم أو بلا، معطياً بذلك للشاب ما يريده من معلومات. وقد كان أسلوب الشاب مريحاً إلى الحد الذي جعل العملية غير مؤلمة على الإطلاق، ووجد الميجر نفسه يُعجب بالشاب العبقري.

وسرعان ما نهض الشاب قائلاً إن عليه أن يذهب إلى مكتب البريد، وقال: لو أنك تعطيني فقط إيصالاً باستلام الشيك يا سيدي.

ذهب الميجر إلى طاولة قريبة وكتب إيصالاً وسلمه للشاب الذي قال وهو يدسه في جيبه: رائع.

قال الميجر بيرنابي: أحسب أنك ستعود إلى لندن اليوم؟

- آه، لا. أريد أخذ بعض الصور لبيتك في سيتافورد، ولك أنت وأنت تُطعم الخراف أو تسقي الأزهار أو تقوم بأي شيء خاص تريده مما يدل على هواياتك. إنك لا تتصور كم يقدّر القراء مثل هذا الأمر. ثم سأطلب منك بضع كلمات حول "ماذا سأفعل بالخمسة آلاف جنيه"... تعليق صغير وذكي. إنك لا تعلم مقدار خيبة أمل قرائنا إن لم يجدوا مثل هذا الأمر.

- نعم، ولكن اسمع... من المستحيل الوصول إلى سيتافورد في مثل هذا الطقس. لقد كان سقوط الثلوج هائلاً بشكل استثنائي، ولم تستطع أية مركبة أن تقطع الطريق منذ ثلاثة أيام، وربما تطلب الأمر ثلاثة أيام أخرى حتى تذوب الثلوج بشكل مناسب.

- أعرف أن الوضع صعب بالفعل. حسناً، حسناً، سيضطر المرء

إلى توطين النفس على الاكتفاء باللعب لفترة في إيكزامبتن. إنهم يقدمون خدمة ممتازة في فندق ثري كراونز. إلى اللقاء يا سيدي، أراك لاحقاً.

ثم خرج إلى الشارع العام ومضى إلى مكتب البريد وأبرق لصحيفته يقول إن الحظ قد حالفه بحيث سيكون قادراً على تزويد الصحيفة بمعلومات كاملة ومثيرة عن «جريمة إيكزامبتن».

فكر في خطوته التالية ثم صمم على مقابلة خادم الكابتن الراحل، إيفانز، الذي سقط اسمه سهواً من الميجر بيرنابي أثناء حديثهما. وقد قادته بعض الأسئلة إلى البيت رقم ٨٥ بشارع فور؛ فقد كان خادم الرجل القتيل شخصاً مهماً اليوم، وكان الجميع على استعداد لأن يشيروا إلى حيث يقيم.

طرق إندربي على الباب طرقة رشيقة، ففتح البابَ رجلٌ بدا نموذجاً لبحّار سابق بحيث لم يراود إندربي أي شك في هويته، فقال بمرح: إيفانز، أليس كذلك؟ لقد جئتُ لتوي من عند الميجر بيرنابي.

تردد إيفانز لحظة ثم قال: تفضل يا سيدي.

قبل إندربي الدعوة. كانت شابةٌ ممتلئة الجسم ذات شعر أسود وخدين متوردين تحوم في خلفية المشهد، وقد قدّر إندربي أنها السيدة إيفانز المتزوجة حديثاً.

– أمر مؤسف ما حصل لسيدك الراحل.

– إنه أمر يثير الصدمة يا سيدي، هذه هي الحقيقة.

سأل إندربي بأسلوب عبقري في طلب المعلومات: من تظن أنه فعل ذلك؟

– أحسبه واحداً من أولئك المشردين الدنيئين.

– آه! لا يا عزيزي. لقد بطلت تلك النظرية تماماً.

– ماذا؟

– كان هذا كله تمويهاً. وقد أدرك الشرطة ذلك على الفور.

– من قال لك ذلك يا سيدي؟

كان المخبر الحقيقي لإندربي هي الخادمة التي تعمل في الفندق، والتي كانت أختها زوجة للشرطي غريفز، ولكنه أجاب قائلا: لديّ من يزودني بالمعلومات من مركز الشرطة. نعم، لقد كانت قصة السطو مجرد تمويه.

سألت السيدة إيفانز وهي تقترب وقد بدت عيناها خائفتين متلهفتين: مَن الذي يظنون أنه فعلها إذن؟

قال زوجها: يا ربيكا، لا تنفعلي هكذا.

قالت: "رجال الشرطة قساة أغبياء؛ لا يأبهون بمن يعتقلونه طالما أنهم وضعوا يدهم على شخص". ثم رمت إندربي بنظرة سريعة وقالت: أأنت مرتبط بالشرطة يا سيدي؟

– أنا؟ آه، لا. إنني من صحيفة ديلي واير، وقد جئتُ إلى هنا

لأرى الميجر بيرنابي. فقد فاز لتوه بمبلغ خمسة آلاف جنيه في مسابقة كرة القدم التي تجريها صحيفتنا.

صاح إيفانز: ماذا؟ تباً! فهذه الأمور صحيحة -إذن- في النهاية.

- ألم تكن ترى أنها صحيحة؟

- إنه عالم قاسٍ يا سيدي.

كان إيفانز مضطرباً بعض الشيء؛ إذ شعر أن صيحة التعجب التي بدرت منه كانت تفتقر إلى اللباقة. أكمل قائلاً: لقد سمعتُ أن في هذا الأمر الكثير من الحيل، وقد اعتاد الكابتن الراحل أن يقول إن الجوائز لا تذهب أبداً إلى عنوان جيد، ولذلك فقد استخدم عنواني مرة بعد مرة.

وبشيء من السذاجة وصف فوز الكابتن بثلاث روايات جديدة. وقد شجعه إندربي على الكلام؛ فقد رأى إمكانية الخروج بتقرير ممتاز من إيفانز، فهو صورة للخادم المخلص وفي قصته مسحة من الولاء القديم للبحارة. تساءل قليلاً لماذا بدت السيدة إيفانز عصبية مضطربة إلى ذلك الحد، وقد عزا ذلك لما يميز طبقتها من جهل يشوبه الشك.

قال إيفانز: اعثروا على السافل الذي فعلها. يقال إن بوسع الصحف أن تفعل الكثير في القبض على المجرمين.

قالت السيدة إيفانز: لقد كان القاتل لصاً إذن؟

قال إيفانز: كان لصاً بالطبع؛ فما من أحد في إيكزامبتن من شأنه

أن يرغب بإيذاء الكابتن.

نهض إندربي قائلاً: حسناً، ينبغي أن أذهب. سأزوركم بين حين وآخر لنتبادل الحديث إن كان ذلك ممكناً، فإن كان الكابتن قد فاز بثلاث روايات من مسابقات ديلي واير فإن على الصحيفة أن تجعل مسألة القبض على قاتله قضيتها الخاصة.

- هذا كلام منصف جداً يا سيدي، كلام منصف جداً.

تمنى تشارلز إندربي لهما يوماً سعيداً واستأذن بالإنصراف، ثم تمتم مع نفسه قائلاً: إني لأتساءل مَنْ ذا الذي قتل العجوز؟ لا أظنه صديقنا إيفانز. ربما كان القاتل لصاً بالفعل، وهو أمر مخيب للآمال إذا صح. ينبغي أن يحدث تطور مثير ما قريباً، وإلاّ فإن القضية ستفقد بريقها وأهميتها، وإذا حصل ذلك فلن يكون السبب إلاّ سوء طالعي. إنها أول مرة أكون فيها في مركز الحدث في أمر كهذا. لقد أتت فرصتك في الحياة يا تشارلز، فاغتنمها. أرى أن صديقنا العسكري لن يلبث أن يصبح طوع يدي إذا ما تذكرتُ أن أعامله باحترام كافٍ وأستخدم معه كلمة «سيدي» طوال الوقت. أتساءل إن كان قد شارك في العصيان الذي حصل في الهند، ولكن لا، هذا غير ممكن؛ فهو ليس كبير السن إلى هذا الحد. حرب جنوب أفريقيا؟ نعم. سأسأله عن حرب جنوب أفريقيا، فسيجعله ذلك أكثر طواعية.

وهكذا عاد السيد إندربي إلى الفندق وهو يعمل التفكير بهذه الحلول في عقله.

* * *

الفصل التاسع

منزل لوريلز

يستغرق الطريق من إيكزامبتن إلى إيكزيتر نحو نصف ساعة في القطار، وفي الساعة الثانية عشرة إلاّ خمس دقائق كان المفتش ناراكوت يقرع جرس الباب الأمامي لمنزل لوريلز.

كان لوريلز بيتاً مهدماً بعض الشيء، بحاجة شديدة للطلاء، وكانت الحديقة التي تحيط به مهملة تنمو بها الأعشاب الضارة، وقد تعلقت البوابة مائلة على مفاصلها.

فكر المفتش قائلاً لنفسه: لا يوجد الكثير من المال هنا. من الواضح أنهم يعيشون في فاقة.

كان المفتش رجلاً ذا عقل شديد الإنصاف، ولكن بدا أن التحريات تشير إلى أن احتمال مقتل الكابتن على يد عدو له كان احتمالاً ضعيفاً. ومن ناحية أخرى فإنه رأى أن أربعة أشخاص سيكسبون من موت العجوز مبلغاً ضخماً، ولذلك فإن تحركات كل واحد من أولئك الأربعة ينبغي التحقيق فيها. لقد كان الاسم الوارد في سجل

الفندق ذا مغزى، ولكن اسم بيرسن كان اسماً كثير الشيوع. وقد كان المفتش ناراكوت حريصاً على عدم الاستعجال في اتخاذ قرار، وعلى الإبقاء على ذهن منفتح تماماً في نفس الوقت الذي يغطي فيه كل النقاط الأساسية في القضية بأسرع ما يمكن.

أجابت على الجرس خادمة في مظهرها شيء من عدم الترتيب. قال لها: طاب يومك. أريد رؤية السيدة غاردنر من فضلك، والأمر يتعلق بوفاة أخيها الكابتن تريفيليان في إيكزامبتن.

وقد تعمد عدم إعطائها بطاقته الرسمية، إذ كان يعرف -من خبرته- بأن مجرد كونه ضابط شرطة من شأنه أن يربكها ويربط لسانها. وبينما تراجعت الخادمة لتفسح له مجال الدخول إلى الصالة سألها بأسلوب عرضي: هل سمعتْ بوفاة أخيها؟

- نعم، لقد تلقت برقية... من المحامي، السيد كيركوود.

- حسناً.

قادته الخادمة إلى غرفة الجلوس، وهي غرفة كانت -كما كان البيت من الخارج- بحاجة ماسة إلى صرف بعض المال عليها، ولكنها -رغم ذلك- تشيع جواً ساحراً شعر به المفتش دون أن يستطيع تحديد سببه أو مبرراته. قال: لا بد أنها كانت صدمة شديدة على سيدتك.

لاحظ أن الفتاة كانت غامضة بعض الشيء إزاء هذا الموضوع؛ فقد كان جوابها: لم تكن تراه كثيراً.

- أغلقي الباب وتعالي إلى هنا.

حرص المفتش على أن يحاول الاستفادة من تأثير الهجوم المباغت، فسألها: هل قالت البرقية إنها كانت جريمة قتل؟

- جريمة قتل!

اتسعت عينا الفتاة وشعّ فيهما مزيج من الرعب والمتعة الشديدة، وقالت: هل قُتل؟

- آه! أحسب أنك لم تسمعي بذلك. لم يرد السيد كيركوود أن يبلغ سيدتك بالنبأ بشكل مفاجئ، ولكنك تعلمين يا عزيزتي... ما هو اسمك بالمناسبة؟

- بياتريس يا سيدي.

- حسناً، أنت تعلمين -يا بياتريس- بأن الخبر سيُنشر في صحف المساء اليوم.

- آه، قُتل! أمرٌ مُرعب، أليس كذلك؟ هل هشموا رأسه أم أطلقوا عليه النار أم ماذا؟

أشبع المفتش لهفتها على التفاصيل، ثم أضاف بشكل عرضي: أحسب أنه كانت توجد فكرة ما حول سفر سيدتك إلى إيكزامبتن مساء أمس، ولكن لا بد أن الطقس كان أسوأ من أن يسمح بمثل ذلك.

- لم أسمع شيئاً عن ذلك أبداً يا سيدي. أظن أنك ربما ارتكبت خطأً ما؛ فقد خرجت سيدتي بعد الظهر للتسوق، ثم ذهبت إلى السينما.

- في أي وقت عادت؟

- في نحو الساعة السادسة.

قال المفتش يخاطب نفسه: "إذن فمن شأن ذلك أن يجعل السيدة غاردنر مُستبعَدة". ثم أضاف بنبرة عرضية: إنني لا أعرف الكثير عن العائلة. هل السيدة غاردنر أرملة؟

- آه، لا يا سيدي. زوجها هنا معها.

- وماذا يعمل؟

قالت بياتريس وهي تحدق به: إنه لا يعمل شيئاً، فهو لا يستطيع؛ إذ أنه مُقعد.

- آه، مُقعد؟ إنني آسف، فلم أسمع بذلك.

- إنه لا يستطيع المشي بل يتمدد في سريره طوال النهار، ولدينا ممرضة دائمة في البيت. ليس من شأن أية فتاة أن تقبل البقاء في البيت طوال اليوم مع ممرضة مستشفى، فهي كثيرة الطلبات وتطلب دوماً أن نصعد لها بأغراض ونحضِر لها أباريق الشاي.

قال المفتش مهدّئاً: لا بد أنه عمل متعب. هل لك الآن أن تذهبي وتخبري سيدتك بأنني جئتُ من عند السيد كيركوود من إيكزامبتن؟

انسحبت بياتريس، وبعد بضع دقائق فُتح الباب ودخلت الغرفةَ امرأةٌ طويلة ذات هيئة آمرة. كان وجهها غريب الشكل، عريضاً عند الحاجبين، وكان شعرها أسود تمشطه إلى الخلف مباشرة من عند الجبين، وقد بدأ الشيب يَخطُها عند الصدغين.

نظرت إلى المفتش متسائلة وقالت: هل أتيت من عند السيد كيركوود من إيكزامبتن؟

– ليس تماماً يا سيدة غاردنر، ولكنني قلتُ ذلك لخادمتك. إن أخاك الكابتن تريفيليان قد قُتل مساء أمس، وأنا مفتش المقاطعة ناراكوت المسؤول عن القضية.

كائنة ما كانت صفات السيدة غاردنر الأخرى فقد كانت -بالتأكيد- امرأة ذات أعصاب حديدية. ضاقت عيناها وسحبت نَفَسَها بحدة، ثم أشارت إلى كرسي للمفتش وجلست هي نفسها قائلة: قُتل؟ ما أغرب ذلك! مَن في هذا العالم عساه يرغب بقتل جو؟

– هذا ما أنا حريص على اكتشافه يا سيدة غاردنر.

– بالطبع. آمل أن أستطيع مساعدتك بطريقة ما، ولكنني أشك في ذلك؛ فأنا وأخي لم نرَ بعضنا البعض كثيراً خلال السنوات العشر الأخيرة، ولا أعرف شيئاً عن أصدقائه أو عن أية علاقات أنشأها.

– اعذريني يا سيدة غاردنر، ولكن هل تشاجرتما أنت وأخوك؟

– لا، لم نتشاجر. أظن أن تغرُّبنا عن بعضنا البعض سيكون وصفاً أدقّ لواقع الحال بيننا. لا أريد الخوض في التفاصيل العائلية، ولكن أخي قد غضب قليلاً من زواجي. وأظن أن الإخوة نادراً ما يوافقون على خيارات أخواتهم، ولكنهم يخفون ذلك عادة أكثر مما كان يخفيه أخي. إن أخي -كما قد تعلم- كان قد ورث ثروة طائلة من عمة لنا، وقد تزوجت أنا وأختي كلانا برجلين فقيرين، وعندما

أصبح زوجي مقعداً وخرج من الجيش نتيجة انهيار عصبي من جراء القصف كان من شأن مساعدة مالية بسيطة أن تشكل نعمة كبرى لنا... إذ كانت ستمكنني من تأمين علاج مُكلف ما كنت لأستطيع تأمينه بوسائل أخرى. وقد طلبتُ من أخي قرضاً فرفض. وهذا -طبعاً- من حقه تماماً. ولكن منذ ذلك الحين لم نتقابل إلاّ نادراً، ولم نكد نراسل بعضنا البعض.

كان ذلك تقريراً مقتضباً واضحاً.

رأى المفتش أن هذه السيدة غاردنر شخصية آسرة، وعلى نحو ما لم يستطع سبر غورها تماماً. بدت هادئة على نحو غير طبيعي، وجاهزة على نحو غير طبيعي بإلقائها للحقائق، كما لاحظ أيضاً أنها -رغم كل دهشتها- لم تطلب أية تفاصيل عن وفاة أخيها، وقد رأى في ذلك أمراً غريباً.

– لا أدري إن كنتِ تريدين سماع ما حدث بالضبط... في إيكزامبتن.

تجهم وجهها وقالت: هل عليّ أن أسمع التفاصيل؟ لقد قُتل أخي... وآمل أن يكون ذلك دون ألم.

– دون ألم تماماً كما أظن.

– إذن وفّر عليّ -رجاء- أية تفاصيل فظيعة.

فكر المفتش قائلاً لنفسه: أمر غير طبيعي، غير طبيعي بتاتاً.

وكأنما قرأت أفكاره؛ فقد استخدمت الكلمة التي استخدمها مع نفسه إذ قالت: أحسب أنك ترى ذلك غير طبيعي أيها المفتش، ولكن... لقد سمعتُ الكثير من الفظائع. لقد أخبرني زوجي بأشياء حدثت معه عندما تعرض لإحدى نوباته السيئة...

ارتعدت وأكملت قائلة: أحسب أنك ستفهم لو عرفتُ ظروفي بشكل أفضل.

- صحيح يا سيد غاردنر، صحيح. إن ما جئتُ لأجله حقاً هو الحصول على بعض التفاصيل العائلية منك.

- نعم؟

- هل تعرفين كم لأخيك من أقارب على قيد الحياة غيرك؟

- من الأقارب المقربين لا يوجد سوى أبناء أختي ماري، من عائلة بيرسن.

- وهم؟

- جيمس وسيلفيا وبرايان.

- جيمس؟

- نعم، وهو أكبرهم، ويعمل في مكتب للتأمين.

- كم عمره؟

- ثمانية وعشرون عاماً.

- وهل هو متزوج؟

- لا، ولكنه خاطب... وخطيبته فتاة لطيفة جداً كما أظن، رغم أنني لم أرها بعد.

- وما هو عنوانه؟

- ٢١ شارع كرومويل.

سجل المفتش ذلك في دفتر ملاحظاته ثم قال: نعم يا سيدة غاردنر؟

- أما سيلفيا فمتزوجة بمارتن ديرنغ... ربما قرأتَ كتبه. إنه كاتب ناجح إلى حد ما.

- شكراً لك، وما هو عنوانهما؟

- منزل نورك، طريق سوري، ويمبلدون.

- نعم؟

- وأصغرهم برايان... ولكنه في أستراليا. وأخشى أنني لا أعرف عنوانه، ولكن أخاه أو أخته سيعرفان ذلك.

- شكراً لك يا سيدة غاردنر. توجد مسألة شكلية فقط، هل تمانعين إن سألتك كيف قضيت مساء أمس؟

بدت مندهشة وقالت: دعني أفكر. قمت ببعض أعمال التسوق. نعم... ثم ذهبتُ إلى السينما، وقد عدتُ إلى البيت في حوالي السادسة

مساء وتمددتُ على سريري حتى موعد العشاء، بعد أن سبب لي القلم بعض الصداع.

- شكراً لك يا سيدة غاردنر.

- هل من شيء آخر؟

- لا، لا أظن أن لديّ شيئاً آخر أسألك عنه. سأذهب الآن لرؤية ابن وابنة أختك. لا أدري إن كان السيد كيركوود قد أبلغك بالحقيقة بعد، ولكنك -أنت والشباب الثلاثة من عائلة بيرسن- الورثة المُشتركون لأموال الكابتن تريفيليان.

صعد الدم إلى وجهها في تورد بطيء غني وقالت: سيكون ذلك رائعاً. لقد كانت الأمور صعبة جداً... صعبة بشكل فظيع... دائماً نُقتر وندخر ونتمنى.

ثم جفلت إذ جاء من الطابق العلوي صوت رجل فيه نبرة الشكوى ينادي: جينيفر، جينيفر، إنني أريدك.

قالت: اعذرني.

وعندما فتحت باب الغرفة جاء النداء ثانية أقوى وأكثر أمراً: جينيفر، أين أنت؟

كان المفتش قد لحق بها إلى الباب، ثم وقف في الصالة ينظر إليها وهي تصعد الدرج ركضاً وتقول: إنني قادمة يا عزيزي.

كانت ممرضة تنزل الدرج فتنحت لها لتصعد قائلة: اذهبي للسيد غاردنر أرجوك، إنه منفعل جداً. وأنت تستطيعين دوماً تهدئته.

وقف المفتش ناراكوت عامداً في طريق الممرضة عندما وصلت أسفل الدرج وقال: هل لي بالتحدث معك للحظة؟ لقد قوطع حديثي مع السيدة غاردنر.

جاءت الممرضة باحتراس إلى غرفة الجلوس، وهناك قالت وهي تُعدّل إسوار كُمّها المُنشّاة جيداً: لقد أزعج خبر جريمة القتل مريضي، تلك الفتاة الحمقاء بياتريس... جاءت راكضة وسردت كل شيء.

- أنا آسف، أخشى أن تلك كانت غلطتي أنا.

قالت الممرضة بلطف: لا يمكن لأحد أن يتوقع منك معرفة ذلك بالطبع.

- هل مرض السيد غاردنر خطير؟

- إنها حالة مؤسفة. بالنسبة للكلام فإنه لا يعاني من شيء طبعاً، ولكنه فقد القدرة على استخدام أطرافه تماماً من صدمة القصف، رغم أنه لا يعاني من أي مرض عضوي حقيقي.

- ألم يتعرض لضغط عصبي إضافي مساء أمس؟

بدت الممرضة مدهوشة بعض الشيء وقالت: لم ألاحظ عليه شيئاً من ذلك.

– أكنت معه طوال المساء؟

– نويتُ أن أكون معه، ولكن... الحقيقة أن الكابتن غاردنر كان متلهفاً جداً على أن أبدّل له كتابين من المكتبة، وكان قد نسي أن يطلب ذلك من زوجته قبل أن تخرج؛ ولذلك فقد أخذتهما له لأسعده. كما طلب مني –في نفس الوقت– أن أشتري له بعض الأشياء... هدايا لزوجته في الحقيقة. وكان شديد اللطف فيما يخص هذا الأمر، وأخبرني بأن أشرب الشاي على حسابه في مقهى بوتز. لم أخرج حتى تجاوزت الساعة الرابعة عصراً، وبسبب ازدحام المحلات فإنني لم أعد إلا بعد السادسة، ولكن المسكين كان مرتاحاً كثيراً. بل إنه أخبرني أنه قضى معظم الوقت نائماً.

– هل كانت السيدة غاردنر قد عادت وقتها؟

– نعم، أظن انها كانت متمددة في سريرها.

– إنها شديدة التعلق والإخلاص لزوجها، أليس كذلك؟

– إنها تحبه حباً جماً. أعتقد حقاً أن من شأن هذه المرأة أن تفعل أي شيء لأجله. إنها حالة مؤثرة تماماً، وهي تختلف كثيراً عن بعض الحالات التي قمتُ على رعايتها. ففي الشهر الماضي فقط...

ولكن المفتش ناراكوت صدّ –بكثير من اللباقة– الحديث عن فضائح الشهر الماضي. فقد نظر إلى ساعته وصاح: آه، يا إلهي! سيفوتني القطار. هل المحطة بعيدة من هنا؟

– محطة سينت ديفيد لا تبعد سوى مسيرة ثلاث دقائق إن

كانت هي التي تريدها. أم أنك تعني محطة كوين ستريت؟

– يجب أن أركض. أخبري السيدة غاردنر بأنني آسف لعدم توديعها. أنا سعيد جداً بهذا الحديث القصير معكِ.

شعرت الممرضة بقدر قليل جداً من الغيظ، وقالت لنفسها بعد أن أُغلق الباب خلف المفتش: إنه رجل وسيم حقاً، وهو ذو أسلوب لطيف متعاطف.

* * *

الفصل العاشر
عائلة بيرسن

كانت خطوة المفتش التالية هي تقديم شرح بتقدم القضية لرئيسه كبير المفتشين ماكسويل.

أصغى الأخير باهتمام لسرد المفتش ثم قال متأملاً: ستكون قضية كبرى، وستملأ عناوين الصحف.

- أوافقك الرأي يا سيدي.

- ينبغي أن نكون حريصين جداً؛ فلا نريد أن نقع في أية أخطاء، ولكنني أظن أنك تسير في الاتجاه الصحيح. ينبغي أن تصل إلى جيمس بيرسن هذا بأسرع ما يمكن وانظر أين قضى مساء أمس. إن الاسم -كما تقول- اسم شائع تماماً، ولكن يوجد تطابق في الاسم الأول أيضاً. وبالطبع فإن توقيعه باسمه صراحة هكذا في الفندق يدل على أنه لم يكن في الأمر سابق تخطيط، إذ يصعب أن يكون مغفلاً إلى ذلك الحد. تبدو المسألة لي وكأنها كانت شجاراً ثم ضربة مفاجئة، فإن كان هو الرجل المعني فلا بد أنه سمع بموت خاله في تلك الليلة، وإذا

كان الأمر كذلك فلماذا انسل مسافراً في قطار السادسة صباحاً دون أن يقول كلمة لأحد؟ كلا، يبدو الأمر سيئاً. هذا إذا افترضنا أن الأمر لم يكن مجرد مصادفة. يجب أن تعمل على توضيح هذه النقطة بأسرع ما يمكن.

- هذا ما رأيته يا سيدي. من الأفضل أن أستقل قطار الثانية إلاّ ربعاً إلى لندن. أريد -في وقت ما- أن أتبادل كلمتين مع تلك المرأة ويليت، التي استأجرت منزل الكابتن، ففي أمرها شيء مريب، ولكنني لا أستطيع الذهاب إلى سيتافورد في الوقت الحاضر؛ فالطرق كلها مغلقة بسبب الثلوج. ولا يمكن -على أية حال- أن تكون لها علاقة مباشرة بالجريمة؛ فقد كانت هي وابنتها عملياً... تحضّران الأرواح وقت ارتكاب الجريمة. وبالمناسبة، فقد حدث أمر غريب وقتها.

ثم روى المفتش لرئيسه القصة التي سمعها من الميجر بيرنابي، فقال كبير المفتشين: هذا هراء. أتظن أن هذا العجوز كان يقول الحقيقة؟ إنها من تلك القصص التي يتم اختلاقها فيما بعد من قبل المؤمنين بمثل هذه الخرافات.

قال ناراكوت مبتسماً: يخيل لي أنها صحيحة تماماً. لقد لاقيتُ كثيراً من الصعوبة في استخراج القصة منه؛ فهو ليس ممن يؤمنون بذلك. على العكس تماماً... فهو جندي قديم الطراز، شعاره الثابت إزاء مثل هذه الأمور هو «هراء سخيف».

أومأ كبير المفتشين متفهماً ولكنه قال مستنتجاً: حسناً، إنه أمر غريب، ولكنه لا يقودنا إلى شيء.

- سآخذ -إذن- قطار الثانية إلاّ ربعاً إلى لندن.

أومأ الآخر برأسه موافقاً.

* * *

لدى وصوله إلى لندن ذهب المفتش فوراً إلى العنوان ٢١ شارع كروموبل، وقد قيل له إن السيد بيرسن في المكتب، وإنه سيعود بالتأكيد في حوالي الساعة السابعة.

أومأ ناراكوت برأسه دون اهتمام وكأن تلك المعلومة لم تكن تعنيه وقال: "سأعود إن أمكنني ذلك، ليس من شيء مهم". ثم غادر بسرعة دون أن يترك اسمه.

قرر ألاّ يذهب إلى مكتب التأمين، بل أن يزور ويمبلدون لمقابلة السيدة ديرنغ التي كانت قبل زواجها الآنسة سيلفيا بيرسن.

لم يكن في منزلها (المسمى «نورك») أثر للبلى، وقد وصفه المفتش مع نفسه بأنه «جديد وتقليدي». وكانت السيدة ديرنغ في البيت، وقد قادته خادمة يبدو عليها الذوق المستهجن، وترتدي ثوباً ليلكياً، وأخذته إلى غرفة جلوس تزدحم بالأثاث، فأعطاها بطاقته الرسمية لتأخذها إلى سيدتها.

جاءته السيدة ديرنغ على الفور تقريباً والبطاقة بيدها، وما لبثت أن قالت: أحسب أنك جئتَ بشأن خالي المسكين جوزيف. إنه أمر يثير الصدمة... يثير الصدمة حقاً! أنا -شخصياً- قلقة جداً من اللصوص،

وقد ركّبت في الأسبوع الماضي قفلين إضافيين للباب الخلفي وأقفال أمان حديدة على النوافذ.

كان المفتش يعرف -من السيدة غاردنر- أن سيلفيا ديرنغ لم تكن تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرها، ولكنها بدت أكبر من الثلاثين بكثير. كانت ضئيلة الجسم بيضاء البشرة شاحبة اللون ذات سمت قلق مُعذّب، وكانت في صوتها تلك النبرة الشاكية قليلاً التي هي من أسوأ ما يمكن للصوت البشري أن يتصف به. ومع ذلك لم تسمح للمفتش بأن يتكلم، بل مضت قائلة: إن كان يوجد أي شيء أستطيع فعله لمساعدتك بأية طريقة فسيسعدني ذلك بالطبع، ولكن المرء لم يكن يرى الخال جوزيف كثيراً. لم يكن رجلاً لطيفاً جداً... وما كان ذلك بوسعه. ليس من ذلك الطراز الذي يمكن للمرء أن يلجأ إليه وقت الأزمات، كان دائماً يتذمر وينتقد. ليس من النوع الذي يعرف شيئاً عن معنى الأعمال الأدبية. إن النجاح... النجاح الحقيقي لا يُقاس دوماً بالمال أيها المفتش.

توقفت أخيراً، وجاء دور المفتش في الحديث بعد أن فتحت له ملاحظاتُها آفاقاً معينة للتخمين. قال لها: لقد سمعتِ بالمأساة بسرعة كبيرة يا سيدة ديرنغ.

- لقد أبرقت لي الخالة جينيفر بالخبر.

- فهمت.

- ولكنني أظنها ستظهر في صحف المساء. إنه أمر فظيع، أليس كذلك؟

- فهمتُ أنكِ لم تري خالك في السنوات الأخيرة.

- رأيته مرتين فقط منذ زواجي، وفي المرة الثانية كان وقحاً جداً مع مارتن. لقد كانت ميوله مادية تماماً بكل الأمور، وكان متعلقاً بالرياضة. لم يكن لديه تقدير للأدب كما أشرتُ قبل قليل.

كان تعليق المفتش على الموقف مع نفسه أنه قال: "لقد تقدم منه الزوج بطلب قرض فرفض". ثم سألها: مجرد مسألة شكلية يا سيدة ديرنغ، ولكن هل لك أن تخبريني بتحركاتك مساء أمس؟

- تحركاتي؟ يا لها من طريقة غريبة في التعبير أيها المفتش! لقد لعبت البريدج معظم فترة العصر، وقد جاءت صديقة وقضت المساء معي لأن زوجي كان خارجاً.

- آه، أكان خارجاً؟ خارج البيت تماماً؟

شرحت السيدة ديرنغ بشيء من الأهمية: كان يحضر عشاء أدبياً. فقد تغدى -ظهراً- مع ناشر أمريكي، ثم كان لديه هذا العشاء أيضاً عند المساء.

- فهمت.

بدا ذلك أمراً طبيعياً ليس فيه ما يريب. ومضى المفتش قائلاً: أظن أن أخاك الأصغر في أستراليا يا سيدة ديرنغ؟

- نعم.

- هل لديك عنوانه؟

- نعم، أستطيع أن أعثر لك عليه إن رغبت. إنه في مكان ذي اسم غريب... نسيته الآن. ولكنه في مقاطعة نيو ساوث ويلز.

- والآن يا سيدة ديرنغ، ماذا بشأن أخيك الأكبر؟

- جيمس؟

- نعم، أريد أن أراه.

سارعت السيدة ديرنغ لتزويده بالعنوان، وكان نفس العنوان الذي أعطته له -أصلاً- السيدة غاردنر.

بعد ذلك شعر بأنه لم يبقَ ما يُقال لدى الطرفين، فقطع المقابلة. نظر إلى ساعته وقدر أنه ما أن يعود إلى لندن حتى تكون الساعة قد اقتربت من السابعة، وهو الوقت الذي أمل أن يعثر فيه على السيد جيمس بيرسن في بيته.

* * *

فتحت له باب البيت نفس المرأة الكهلة ذات المظهر المتكبر، وقالت إن السيد بيرسن في البيت فعلاً، في الطابق الثاني، داعيةً المفتش للصعود. ثم سبقته وقرعت الباب وقالت بصوت منخفض كأنها تعتذر: "الرجل الذي أراد رؤيتك يا سيدي"، ثم تنحت جانباً لتسمح للمفتش بالدخول.

كان يقف في وسط الغرفة شاب في ملابس المساء. كان حسن الشكل، بل وسيماً إذا أغفل المرء فمه الذي يوحي بالضعف وميلان

عينيه الذي يوحي بالتردد وقلة التصميم. كان ذا شكل متعَب قلق وهيئة توحي بأنه لم يتم جيداً مؤخراً.

نظر متسائلاً إلى المفتش وهو يقترب قائلاً: أنا مفتش التحري ناراكوت...

ولكنه لم يذهب أبعد من ذلك، فبصيحة خشنة هوى الشاب على كرسي، ورفع يديه فوضعهما على الطاولة أمامه وهو مُطرق ينظر إليهما ويدمدم قائلاً: "آه! يا إلهي! لقد جاء ما أخشاه!". وبعد دقيقة أو اثنتين رفع رأسه وقال: حسناً، لماذا لا تمضي فيما جئت له أيها الرجل؟

بدا المفتش ناراكوت متبلداً تماماً ومفتقراً إلى الذكاء، وقال: إنني أحقق في وفاة خالك الكابتن جوزيف تريفيليان، هل لي أن أسألك -يا سيدي- إن كان لديك ما تقوله؟

نهض الشاب واقفاً ببطء وقال بصوت منخفض متوتر: هل... هل تعتقلني؟

– لا يا سيدي، أنا لا أعتقلك، ولو كنتُ فاعلاً لكنت تلوت عليك التحذير المعتاد. إنني أطلب منك -ببساطة- أن تذكر لي تحركاتك مساء أمس. يمكنك أن تجيب عن أسئلتي أو ترفض الإجابة، كما تراه مناسباً.

– وإنْ لم أُجبْ عنها... فسيكون ذلك دليلاً ضدي. آه، نعم، إنني أعرف أساليبكم الصغيرة. لقد اكتشفتم -إذن- أنني كنتُ هناك بالأمس؟

– لقد وقّعتَ باسمك في سجل الفندق يا سيد بيرسن.

– آه، أحسب ألاّ فائدة من إنكار الأمر. لقد كنتُ هناك بالفعل... ولماذا لا أكون؟

قال المفتش بهدوء: سؤال وجيه حقاً.

– لقد ذهبتُ إلى هناك لرؤية خالي.

– بناء على موعد؟

– ماذا تعني بالموعد؟

– أكان خالك يعرف أنك كنت قادماً إليه؟

– إنني... لا... لم يكن يعرف. كانت تلك... فكرة مفاجئة من وحي اللحظة.

– ولم يكن لها سبب؟

– أنا... سبب؟ لا... لا، ولماذا يكون لها سبب؟ إنني... إنني أردتُ فقط رؤية خالي.

– حسناً يا سيدي، وهل رأيته؟

سادت فترة صمت... فترة صمت طويلة. كان التردد واضحاً جلياً في كل تعبير على وجه الشاب، وشعر المفتش ناراكوت بشيء من الشفقة وهو يراقبه. ألا يرى هذا الفتى أن تردده الظاهر لا يقل أهمية عن الاعتراف المباشر بالحقيقة؟

وأخيراً سحب جيمس بيرسن نفساً عميقاً وقال: أحسب... أحسب أن من الأفضل أن أقول كل شيء وأريح نفسي. نعم... لقد رأيته. سألت في المحطة كيف يمكن لي أن أذهب إلى سيتافورد، فقيل لي إن ذلك مستحيل؛ فالطرق مقطوعة أمام أي مركبات. قلت لهم إن الأمر مُلِحٌّ.

تمتم المفتش: مُلِحّ؟

- لقد... لقد أردتُ رؤية خالي كثيراً.

- هذا ما يبدو يا سيدي.

- استمر الحمّال في هز رأسه والقول إن الأمر مستحيل. وقد ذكرتُ اسم خالي فانفرجت أساريره على الفور وأخبرني أن خالي موجود في إيكزامبتن عملياً، ثم أعطاني تعليمات كاملة عن كيفية العثور على البيت الذي استأجره.

- في أي وقت كان ذلك يا سيدي؟

- في حوالي الساعة الواحدة كما أظن. ذهبتُ إلى الفندق... فحجزتُ غرفة وتناولتُ غدائي هناك. وبعد ذلك... وبعد ذلك خرجتُ لرؤية خالي.

- بعد ذلك مباشرة؟

- لا، ليس مباشرة.

- في أي وقت كان ذلك؟

- لا أستطيع الجزم تحديداً.

- في الثالثة والنصف؟ في الرابعة؟ الرابعة والنصف؟

تردد وتلعثم أكثر من أي وقت مضى قائلاً: إنني... إنني... لا أحسب أنني تأخرتُ إلى هذا الحد.

- لقد قالت السيدة بيلنغ، مالكة الفندق، إنك خرجتَ في الرابعة والنصف.

- حقاً؟ إنني... أظنها مخطئة. لا يمكن أن أكون قد تأخرتُ إلى تلك الساعة.

- ماذا حدث بعد ذلك؟

- وجدت بيت خالي، فتكلمتُ معه وعدتُ إلى الفندق.

- كيف دخلت إلى بيت خالك؟

- قرعت الجرس ففتح لي الباب بنفسه.

- ألم يُدهَش لرؤيتك؟

- بلى، بلى... لقد دُهش بعض الشيء.

- كم من الوقت قضيتَ معه يا سيد بيرسن؟

- ربع ساعة... أو ثلث ساعة. ولكن اسمع، لقد كان في أحسن حال عندما تركتُه... كان في أحسن حال. أقسم على ذلك.

- وفي أي وقت تركته؟

خفض الشاب صوته، وبدا التردد واضحاً في نبرته مرة أخرى وقال: لا أعرف بالضبط.

- أظنك تعرف يا سيد بيرسن.

كان للنبرة الواثقة تأثيرها. فقد أجاب الفتى بنبرة منخفضة: في الساعة الخامسة والربع.

- لقد عدتَ إلى الفندق في السادسة إلاّ ثلثاً. فيما لا تستغرق المسافة من بيت خالك إليه عادةً سوى سبع أو ثماني دقائق.

- لم أعد للفندق مباشرة، بل تمشيت في البلدة قليلاً.

- في ذلك الطقس المليء بالثلوج؟ في الثلج؟!

- لم يكن الثلج ينهمر عملياً وقتها، بل بدأ فيما بعد.

- فهمت. وما كانت طبيعة حديثك مع خالك؟

- آه! لا شيء محدداً. بل... بل أردتُ فقط أن أتحدث مع العجوز، أن أتفقده، شيء من ذلك.

فكر المفتش قائلاً لنفسه: "إنه كاذب فاشل، بل إن بوسعي أن أتصرف -شخصياً- بأفضل من ذلك". ثم قال للفتى: حسناً يا سيدي. هل لي أن أسألك الآن لماذا غادرت إيكزامبتن عندما سمعت بمقتل خالك دون كشف قرابتك مع القتيل؟

قال الشاب بصراحة: لقد خفت. سمعتُ أنه قتل قريباً من الوقت الذي تركتُه فيه. ووالله أن ذلك كاف لإخافة أي شخص، أليس كذلك؟ أحسستُ بالرعب فغادرتُ المنطقة على متن أول قطار وجدته. آه، أظنني كنتُ مغفلاً إذ قمت بمثل هذا التصرف، ولكنك تعرف كيف يتصرف المرء عندما يضطرب. وكان من شأن أي امرئ أن يضطرب في مثل تلك الظروف.

- وهل هذا كل ما يمكنك قوله يا سيدي؟

- نعم... نعم، بالطبع.

- ربما لا يكون لديك مانع -إذن- من المجيء معي لأخذ هذه الأقوال وتسجيلها كتابةً لكي تقوم بعد ذلك بقراءتها والتوقيع عليها.

- أهذا... أهذا كل شيء؟

- أظن أن من المحتمل -يا سيد بيرسن- أن يكون من الضروري توقيفك إلى ما بعد جلسة التحقيق.

- آه! يا إلهي! ألا يمكن لأحد أن يساعدني؟

في تلك اللحظة فُتح الباب ودخلت الغرفة امرأة شابة.

لاحظ المفتش ناراكوت (وهو شديد الملاحظة) على الفور أنها كانت شابة من نوع استثنائي تماماً. لم تكن جميلة بشكل يثير الانتباه، ولكنّ لها وجهاً آسراً وغير عادي، وكان فيها ما يوحي بالعقل السليم المنطقي والعزم الشديد. هتفت قائلة: آه! جيمس... ماذا حدث؟

أجابها الشاب: لقد انتهى كل شيء يا إيميلي. إنهم يظنون أنني قتلتُ خالي.

- من الذي يظن ذلك؟

أشار الشاب إلى زائره برأسه وقال: "هذا هو المفتش ناراكوت". ثم أضاف في محاولة كئيبة للتعريف: الآنسة إيميلي تريفوسيس.

قالت الآنسة إيميلي تريفوسيس: "آه!"، ثم تفحصت المفتش ناراكوت بعينين كستنائيتين حادتين وقالت: إن جيمس مغفل تماماً، ولكنه لا يقتل الناس.

لم يقل المفتش شيئاً، فقالت إيميلي وهي تلتفت لجيمس: أحسبك كنتَ تقول أكثر الأشياء طيشاً وسفاهة، ولو أنك تقرأ الصحف بشكل أفضل مما تفعله عادة -يا جيمس- لعرفتَ أن عليك ألاّ تتكلم أبداً مع شرطي ما لم يكن لديك محامٍ قوي يجلس إلى جانبك ويعترض على كل كلمة. ما الذي حدث؟ هل تعتقله أيها المفتش ناراكوت؟

شرح المفتش ناراكوت ما يفعله بالضبط بأسلوب مهني وواضح. وصاح الشاب قائلاً: إيميلي، لن تصدقي أنني فعلتُ ذلك؟ إنك لن تصدقي ذلك أبداً، أليس كذلك؟

أجابته بلطف: "بلى يا حبيبي؛ لن أصدق ذلك طبعاً". ثم أضافت بنبرة لطيفة تأملية: ليست لديك الجرأة على ذلك.

دمدم الشاب قائلاً: لا أشعر أن لديّ صديقاً في العالم.

أجابته الفتاة: بل لديك... لديك أنا. لا تبتئس يا جيمس، انظر إلى الخاتم المتلألئ في إصبع يدي اليسرى. ها هي خطيبتك المخلصة... اذهب مع المفتش واترك كل شيء لي أنا.

نهض جيمس بيرسن وتعبير الحيرة الزائغة ما زال على وجهه. كان معطفه ملقى على أحد الكراسي فلبسه، وناوله المفتش ناراكوت قبعة كانت على مكتب قريب. تحركا نحو الباب، وقال المفتش بأدب: طاب مساؤك يا آنسة تريفوسيس.

أجابت بعذوبة: إلى اللقاء أيها المفتش.

ولو أنه كان يعرف الآنسة إيميلي تريفوسيس بشكل أفضل لعرف أي تحدٍ كان في تلك الكلمات الأربع!

* * *

الفصل الحادي عشر

إيميلي تشرع بالعمل

عُقدت جلسة التحقيق بشأن مقتل الكابتن تريفيليان صباح يوم الأحد. وإذا ما قيست الأمور بمقياس الإثارة لاعتُبرت الجلسة شأناً باهتاً لا إثارة فيه، ذلك أنها لم تكد تُعقد حتى أُجّلت لمدة أسبوع، الأمر الذي سبب خيبة أمل لعدد هائل من الناس. كانت إيكزامبتن قد برزت بين يومي السبت والإثنين إلى الشهرة، وقد جاء اعتقال ابن أخت القتيل بسبب الجريمة ليجعل القضية كلها تقفز من الصفحات الداخلية للصحف لتحتل العناوين الرئيسة على الصفحات الأولى. وفي يوم الإثنين وصل الصحفيون إلى إيكزامبتن بأعداد كبيرة، وقد وجد السيد تشارلز إندربي مرة أخرى سبباً لتهنئة نفسه على المكانة المتفوقة التي حصل عليها من تلك الصدفة الحسنة الخاصة بجائزة مسابقة كرة القدم.

كان في نية الصحفي أن يلتصق بالميجر بيرنابي كظله، وأن يتذرع بأخذ صور لبيت الميجر لكي يحصل على معلومات كاملة عن

سكان سيتافورد وعلاقتهم بالرجل القتيل. ولم يفت السيد إندربي أن يلاحظ -عند وقت الغداء- وجود طاولة صغيرة قرب الباب تشغلها فتاة جميلة جداً. وقد تساءل: ماذا تراها تفعل في إيكزامبتن؟ كانت جميلة الثياب يغلب على لبسها الحشمة، ولم تَبدُ من أقارب القتيل، ومع ذلك لم يكن بالإمكان وصفها أيضاً بأنها واحدة من الفضوليات المتسكعات.

فكر في نفسه قائلاً: "أتساءل إلى متى ستقيم هنا؟ من المؤسف أنني ذاهب إلى سيتافورد عصر اليوم. إنه سوء طالعي، ولكن المرء لا يمكن أن يحصل على كل ما يريد". ولكن السيد إندربي تلقى بعد الغداء مباشرة مفاجأة سارة. كان يقف على درج الفندق يراقب الكميات الهائلة من الثلج الذي أخذ يذوب ويستمتع بالأشعة الكسلى لشمس الشتاء عندما انتبه إلى صوت يخاطبه، وكان صوتاً شديد العذوبة.

- أرجو أن تعذرني... ولكن هل لك أن تخبرني إن كان في إيكزامبتن ما يستحق المشاهدة؟

ارتفع تشارلز إندربي إلى مستوى المناسبة بسرعة وقال: أظن أنها توجد قلعة، ليست ذات شأن كبير، ولكن هذا هو الموجود. ما رأيك ان تسمحي لي بإرشادك للطريق إليها.

قالت الفتاة: سيكون ذلك لطفاً بالغاً منك. هذا إن كنت واثقاً أنك لست مشغولاً...

أنكر تشارلز إندربي -فوراً- وجود أية مشاغل لديه، وانطلقا معاً.

قالت الفتاة: أنت السيد إندربي، أليس كذلك؟

– نعم، كيف عرفت؟

– لقد دلّتني السيدة بيلينغ عليك.

– آه، فهمت.

– اسمي إيميلي تريفوسيس. سيد إندربي... أريد منك مساعدتي.

– مساعدتك؟ بالتأكيد... ولكن...

– أنا خطيبة جيمس بيرسن.

قال السيد إندربي وقد مثلت أمامه الفرص الصحفية: آه!

– والشرطة سيعتقلونه. أنا واثقة من ذلك، وأنا أعلم -يا سيد إندربي- أن جيمس لم يرتكب تلك الجريمة، وقد جئت إلى هنا لأثبت ذلك، ولكن يجب أن أجد من يساعدني. لا تستطيع المرأة فعل كل شيء دون وجود رجل؛ فالرجال يعرفون الكثير، وهم قادرون على الحصول على المعلومات بطرق كثيرة يتعذر على النساء تماماً اتباعها.

قال السيد إندربي بشيء من الرضا عن الذات: نعم، أحسب أن ذلك صحيح.

– لقد كنتُ أنظر إلى كل أولئك الصحفيين صباح اليوم، وقد رأيت أن للكثير منهم وجوهاً توحي بالغباء. وقد اخترتك أنت باعتبارك الصحفي الذكي حقاً من بينهم جميعاً.

قال السيد إندربي بمزيد من الرضا عن نفسه: آه، حسناً! لا أحسب ذلك صحيحاً.

– إن ما أريد اقتراحه عليك هو نوع من الشراكة، وأحسب أن الطرفين سيستفيدان من ذلك. توجد أمور معينة أريد تقصيها... والكشف عنها. وفي هذا تستطيع أنت -بصفتك الصحفية- أن تساعدني. إنني أريد...

توقفت إيميلي. كان ما تريده حقاً هو توظيف السيد إندربي كنوع من التحري الخاص لحسابها فيذهب حيث تطلب منه ويسأل الأسئلة التي تريد منه طرحها، وأن يكون -عموماً- عبداً لا يخرج عن أمرها، ولكنها كانت تعي ضرورة تغطية هذه المقترحات بعبارات من شأنها أن تدغدغ عواطفه وتحظى بقبوله. كان لب القضية هو أنها أرادت أن تكون المسؤولة صاحبة اليد العليا، ولكن القضية بحاجة لأن تُدار بلباقة. قالت: أريد أن أشعر أن بإمكاني أن أعتمد عليك.

كانت ذات صوت عذب، موسيقي وساحر. وفيما نطقت بجملتها الأخيرة امتلأ صدر السيد إندربي بشعور مفاده أن بوسع هذه الفتاة الجميلة البائسة أن تعتمد عليه إلى آخر لحظة.

قال السيد إندربي: "لا بد أن هذا الأمر كريه جداً بالنسبة لك". ثم أضاف وقد تذكر مهمته الصحفية: ولكنك تعلمين أن وقتي ليس ملكي تماماً؛ أعني أن عليّ أن أذهب حيث تطلب مني الصحيفة.

– نعم، لقد فكرتُ في ذلك، وهنا يأتي دوري. إن من المؤكد أنني ما تسمونه أنتم «فرصة» صحفية، أليس كذلك؟ يمكنك أن تجري

مقابلة معي كل يوم، وأن تكتب على لساني كل ما ترى أن قراءك يحبونه. "خطيبة جيمس بيرسن... فتاة تؤمن بقوة ببراءته... ذكريات عن طفولته ترويها لنا...". أنا لا أعرف شيئاً عن طفولته في الواقع، ولكن ذلك لا يهم.

– أظن أنك رائعة... رائعة حقاً.

قالت إيميلي وهي تستفيد من ميزتها: كما أن لدي –بالطبع– قدرة الوصول إلى أقرباء جيمس. أستطيع أن آخذك إليهم بوصفك صديقاً لي، حيث يغلب أن يوصد الباب في وجهك في أحوال أخرى.

قال السيد إندربي بانفعال وهو يتذكر ما أوصد في وجهه من أبواب في الماضي: إنني أعرف ذلك تمام المعرفة.

لقد انفتح أمامه مجال رائع. لقد حالفه الحظ في هذه القضية من جميع الجوانب؛ إذ جاءت في البداية تلك الصدفة السعيدة لمسابقة كرة القدم، والآن تأتيه هذه الفرصة. قال بحماسة: اتفقنا.

قالت إيميلي بأسلوب عملي سريع: حسناً. والآن، ما هي خطوتنا الأولى؟

قال: "أنا ذاهب إلى سيتافورد عصر اليوم". ثم شرح لها الصدفة السعيدة التي وضعته في موقف متميز بالنسبة للميجر بيرنابي، وقال: ذلك لأنه من أولئك العجائز الذين يكرهون الصحفيين كرهاً أعمى. ولكن ليس بوسع المرء أن يطرد رجلاً سلّمه لتوه خمسة آلاف جنيه، أليس كذلك؟

– سيكون ذلك تصرفاً فظيعاً. حسناً، إن كنتَ ذاهباً إلى سيتافورد فإنني سأذهب معك.

– رائع، مع أنني لا أعرف إن كان هناك مكان يمكن لك الإقامة فيه؛ فحسب معلوماتي ليس هناك إلاّ منزل سيتافورد وبعض البيوت الصغيرة التي يشغلها أشخاص من أمثال بيرنابي.

– سنجد شيئاً... أنا أجد شيئاً دوماً.

كان بوسع السيد إندربي أن يصدِّق ذلك؛ فقد كانت لإيميلي شخصية تتغلب على كل الصعاب.

كانا قد وصلا الآن إلى القلعة المهدمة، ولكنهما جلسا –دون انتباه إليها– على بقايا جدار تحت أشعة الشمس المزعومة، ومضت إيميلي تطور أفكارها: أنا أنظر إلى هذا الأمر يا سيد إندربي بطريقة عملية جداً تخلو من أية عاطفية، وينبغي لك أن تصدق –بدايةً– ما أقوله لك من أن جيمس لم يرتكب الجريمة. وأنا لا أقول ذلك لمجرد أنني أحبه أو أؤمن بشخصيته اللطيفة أو ما شابه ذلك. إنها مجرد... معرفة، فالحقيقة أنني كنت مستقلة تماماً منذ أن بلغتُ السادسة عشرة، وأنا أعرف الكثير عن الرجال. وما لم تستطع الفتاة أن تحكم بدقة على الرجال وتعرف أقدارهم وكيف تتعامل معهم فإنها لا يمكن أن تنجح وتتقدّم، وقد نجحتُ وتقدّمت. إنني أعمل مصممة أزياء في مؤسسة لوسي، ويمكنني أن أؤكد لك –يا سيد إندربي– أن الوصول إلى هناك إنجاز كبير. وكما كنتُ أقول فإنني أستطيع معرفة أقدار الرجال بكل دقة. إن جيمس ذو شخصية ضعيفة في العديد من جوانبها.

ثم أضافت إيميلي وقد نسيت دورها كمعجبة بالرجال الأقوياء:
وأنا لستُ واثقة من أن ذلك لم يكنِ هو سبب حبي له. إنه الشعور بأن بوسعي أن أصوغه وأعمل منه شيئاً. أتخيّل العديد من... من الأمور الإجرامية التي أستطيع أن أتصوره يفعلها إذا ما دُفع إليها، ولكن ليس من بينها القتل. إنه -ببساطة- لا يستطيع أن يأخذ كيساً رملياً ويضرب به عجوزاً على مؤخرة رأسه. كان من شأنه أن يقوم بضربة خرقاء وأن يصيبه في المكان الخطأ لو أنه فعل ذلك. إنه... إنه مخلوق رقيق يا سيد إندربي. بل إنه لا يحب حتى قتل الزنابير، فهو يحاول دوماً أن يُخرجها من النافذة دون إيذائها، وعادة ما ينال لسعة من ذلك. ولكن من غير المفيد أن أستمر في مثل هذا الكلام. إن عليك أن تتقبل كلامي وتصدقه وتبدأ مُفترِضاً أن جيمس بريء.

سأل السيد إندربي بأفضل أساليبه الصحفية: أتظنين أن أحداً قد تعمد محاولة إلصاق التهمة به؟

– لا أظن ذلك؛ إذ لم يكن أحد يعلم بمجيء جيمس إلى خاله. إن المرء لا يستطيع التأكد من ذلك طبعاً، ولكن لو كان الأمر كذلك لأرجعتُه إلى الصدفة وحدها وسوء الطالع. إن ما علينا أن نجده هو شخص آخر له دافع لقتل الكابتن تريفيليان. الشرطة واثقون بأن هذه الجريمة ليست «مسألة خارجية»... أعني أن القاتل لم يكن لصاً، وقد كان كسر قفل النافذة الزجاجية تمويهاً.

– هل أخبرك الشرطة بذلك.

– عملياً.

– ماذا تقصدين بكلمة عملياً؟

– لقد أخبرتني خادمة الغرف في الفندق، وأختها هي زوجة الشرطي غريفز، ولذلك فهي تعرف -طبعاً- كل ما يدور في خلد الشرطة.

– حسناً، إنها لم تكن -إذن- مسألة خارجية، بل داخلية.

– بالضبط. إن الشرطة... أو بالأحرى المفتش ناراكوت (الذي أحسبه -بالمناسبة- رجلاً عاقلاً جداً) قد بدأ تحرياته للعثور على من يستفيد من موت الكابتن تريفيليان، ومع وجود جيمس ماثلاً للعيان على أوضح شكل فإن الشرطة لن يكلفوا أنفسهم عناء المضي بعيداً في تحرياتهم؛ ولذلك ينبغي أن تكون هذه مهمتنا.

قال: "يا له من سبق صحفي إن اكتشفنا (أنا وأنت) القاتل الحقيقي! سيصفونني -عندها- بأنني خبير الجرائم في صحيفة ديلي واير". ثم أضاف وقد انخفضت معنوياته: ولكن ذلك أروع من أن يتحقق؛ مثل هذا الأمر لا يحدث إلاّ في الروايات.

– هراء، إنه يحدث معي أنا.

– أنت رائعة.

أخرجت إيميلي دفتر ملاحظات صغيراً وقالت: والآن دعنا ندون الأمور بشكل منهجي. إن جيمس نفسه وأخاه وأخته وخالته جينيفر يستفيدون بشكل متساوٍ من موت الكابتن تريفيليان. وبالطبع فإن سيلفيا، أخت جيمس، ليس من شأنها أن تؤذي بعوضة، ولكنني لا أستبعد

ذلك من زوجها؛ فهو ما أعتبره شخصاً متوحشاً قذراً. أنت تعرف ذلك النوع المتأدب القذر الذي يقيم علاقات عديدة مع النساء... إلى آخر تلك الصفات. يُحتمل كثيراً أن يكون في مأزق مالي، والأموال التي ستؤول إليهما ستكون عملياً أموال سيلفيا، ولكن ذلك لن يهمه في شيء؛ فسرعان ما سيتمكن من انتزاعها منها.

- يبدو أنه شخص كريه جداً.

- نعم، وسيم مع شيء من الجرأة الوقحة. وتتحدث النساء في الزوايا عن علاقاته الغرامية بينما يكرهه الرجال الحقيقيون.

قال السيد إندربي وهو يسجل أيضاً في دفتره الصغير: حسناً، هذا -إذن- المشبوه رقم ١، التحري عن تحركاته يوم الجمعة... يمكن أن يتم ذلك بسهولة تحت ستار مقابلة مع روائي شهير له علاقة بجريمة القتل. هل هذا مناسب؟

- رائع. ثم لدينا برايان، الأخ الأصغر لجيمس. يُفترض أنه في أستراليا، ولكن يمكن -بسهولة- أن يكون قد عاد. أعني أن الناس يفعلون ذلك أحياناً دون أن يبلّغوا بحضورهم.

- يمكننا أن نرسل له برقية.

- سنفعل ذلك. وأظن أن الخالة جينيفر خارج دائرة الشك؛ فمن كل ما سمعته عنها يبدو أنها شخصية رائعة. إن لديها شخصية مميزة، ومع ذلك فإنها لم تكن بعيدة جداً، فقد كانت في إيكزيتر فقط. ربما تكون قد جاءت لرؤية أخيها، وربما قال شيئاً سيئاً عن زوجها الذي

تحبه أشد الحب، وربما غضبت فأخذت كيسَ رملٍ وضربته به.

- هل تظنين ذلك حقاً؟

- لا، لا أظن ذلك حقاً، ولكن المرء لا يدري. ويوجد الخادم بالطبع. إنه لا يحصل إلاّ على مئة جنيه في الوصية، ولا يبدو عليه ما يريب، ولكن المرء لا يدري أيضاً. إن زوجته هي ابنة أخت السيدة بيلينغ مالكة الفندق. أظنني سأبكي قليلاً على كتفها عندما أعود إلى هناك. إنها تبدو ذات طبيعة طيبة ورومانسية أشبه بأم، وأظنها ستشعر بالحزن الشديد لأجلي وهي ترى أن خطيبي الشاب سيسجن، ويمكن أن تَسقط منها كلمة تكون مفيدة. وأخيراً لدينا بالطبع منزل سيتافورد. أتدري ما الذي لفت انتباهي كأمر غريب؟

- لا. ما هو؟

- هاتان المرأتان اللتان استأجرتا منزل الكابتن تريفيليان مفروشاً في وسط الشتاء. إن هذا تصرف غريب جداً.

وافقها إندربي قائلاً: نعم، إنه غريب. قد يكون في قرارة ذلك الأمر شيء... شيء له علاقة بحياة الكابتن الماضية.

ثم أضاف قائلاً: كما أن جلسة تحضير الأرواح تلك غريبة أيضاً. إنني أفكر في الكتابة بذلك للصحيفة، ويمكن الحصول على آراء السير أوليفر لودج والسير آرثر كونان دويل وبعض الناس الآخرين حول هذا الموضوع.

- أية جلسة تحضير؟

أعاد السيد إندربي عليها القصة بحماسة. لم يكن شيء ذو علاقة بالجريمة لم يتمكن إندربي من سماعه بطريقة أو بأخرى. وعندما أنهى القصة قال: أمر غريب بعض الشيء، أليس كذلك؟ أعني أنه يجعل المرء يفكر. ربما كان في تلك الأمور شيء من الصحة. إنها أول مرة أصادف فيها قصة كهذه موثقة جيداً.

ارتعدت إيميلي قليلاً وقالت: أنا أكره هذه الأمور. وكما تقول، فلأول مرة يبدو الأمر وكأن في هذه القصص شيئاً من الصحة. ولكن يا... يا لفظاعة ذلك!

- إن قصة تحضير الأرواح هذه لا تبدو عملية، أليس كذلك؟ فإذا كانت روح العجوز قادرة على الإبلاغ عن موته فلماذا لا تقول من الذي قتله؟ ينبغي أن يكون ذلك كله سهلاً.

قالت إيميلي متأملة: أشعر بإمكانية وجود دليل ما في سيتافورد.

- نعم، أظن أن علينا أن نتحرى هناك بكل دقة وشمولية. لقد استأجرتُ سيارة، وسأنطلق إلى هناك في غضون نصف ساعة، ومن الأفضل أن تأتي معي.

- سآتي. وماذا عن الميجر بيرنابي؟

- سيقطع المسافة مشياً. لقد انطلق بعد جلسة التحقيق مباشرة، وإن أردتِ رأيي فإنه أراد التخلص من صحبتي طوال الطريق إلى هناك، فما من أحد يحب أن يخوض في كل تلك الأوحال.

- وهل ستستطيع السيارة الوصول بأمان؟

- نعم، رغم أن اليوم هو أول يوم استطاعت به سيارة قطع الطريق.

قالت إيميلي وهي تنهض: حسناً، آن لنا أن نعود إلى الفندق، وسوف أجهّز حقيبتي وأقوم بفصل تمثيلي قصير من البكاء على كتف السيدة بيليتغ.

قال السيد إندربي بشيء من اللغو: لا تقلقي، اتركي كل شيء علي.

أجابته إيميلي دون ذرة صدق في كلامها: هذا تماماً ما أنوي فعله. إن من الرائع أن يكون بجانب المرء شخص يستطيع حقاً الاعتماد عليه.

كانت إيميلي تريفوسيس -حقاً- شابة شديدة الحنكة.

* * *

الفصل الثاني عشر
الاعتقال

عند عودة إيميلي إلى الفندق حالفها الحظ إذ صادفت -فوراً- السيدة بيلينغ أمامها تقف في الصالة فهتفت: سيدة بيلينغ، سأغادر بعد ظهر اليوم.

- في قطار الساعة الرابعة وعشر دقائق إلى إيكزيتر؟

- لا، بل إنني ذاهبة إلى سيتافورد.

أظهرت ملامح السيدة بيلينغ فضولاً شديداً فيما أضافت إيميلي: نعم، وقد أردتُ أن أسألك إن كنتِ تعرفين أي مكان هناك يمكنني أن أقيم فيه.

- أتريدين البقاء هناك؟

ازداد الفضول اضطراماً.

- نعم، أي... آه! سيدة بيلينغ، هل يوجد مكان يمكنني فيه أن

أتحدث معك على انفراد للحظات؟

وبشيء من الاستعداد السعيد قادتها السيدة بيلينغ إلى مكتبها الخاص، وكان غرفة صغيرة مريحة تتأجج فيها نار كبيرة في الموقد. بدأت إيميلي بالقول: أنت لن تخبري أحداً، أليس كذلك؟

كانت تعرف أن هذه المقدمة -من بين كل المقدمات في العالم- هي التي لا يمكن أن تفشل في إثارة الاهتمام والتعاطف.

قالت السيدة بيلينغ وقد التمعت عيناها السوداوان بالترقب: أبداً يا آنسة، لن أخبر أحداً.

- لعلك تعلمين... السيد بيرسن... تعرفينه...

- الشاب الذي نزل لدينا هنا يوم الجمعة؟ الذي اعتقله الشرطة؟

- اعتقلوه؟ أتعنين حقاً أنهم اعتقلوه؟

- نعم يا آنسة، منذ أقل من نصف ساعة.

شحب لون إيميلي كثيراً وقالت: أأنت... أأنت واثقة من ذلك؟

- نعم يا آنسة؛ فقد عرفت ابنتنا إيمي ذلك من الرقيب.

كانت إيميلي تتوقع ذلك، ولكنه لم يخفف عنها، وقالت: هذا فظيع جداً، فالحقيقة يا سيدة بيلينغ أنني... أنني خطيبته. وهو لم يفعلها... لم يفعلها. آه، يا له من أمر رهيب!

وهنا بدأت إيميلي تبكي. كانت قد أعلنت أمام تشارلز إندربي

في وقت سابق نيتها القيام بذلك، ولكن ما فاجأها كان السهولة التي انهمرت بها الدموع من عينيها. إن إقدام المرء على البكاء بإرادته ليس بالأمر السهل. لقد كان في هذه الدموع شيء حقيقي جداً، وقد أرعبها ذلك؛ إذ لا ينبغي لها أن تنهار، فالانهيار لن يفيد جيمس في شيء. إن الصفات التي ستكون لها قيمة في هذه اللعبة هي التصميم والمنطق ووضوح الرؤية، أما البكاء المائع فلم ينفع أحداً أبداً من قبل.

ولكن هذا كان مصدر ارتياح مع ذلك. ألم تكن تقصد البكاء في نهاية الأمر؟ من شأن البكاء أن يكون جواز مرور لا يُرد إلى كسب تعاطف السيدة بيلينغ وتعاونها، فلماذا -إذن- لا تبكي بكاء جيداً إذا لم يكن من البكاء بُد؟ فليكن بكاء حاراً يمكن له أن ينفّس عن كل متاعبها وشكوكها ومخاوفها التي لا يُقرّها أحد، ويخلصها منها.

قالت السيدة بيلينغ: "تصبّري، تصبّري يا عزيزتي، لا تأخذك المسألة على هذا النحو". ثم وضعت ذراعها بحنان حول كتفي إيميلي وربتت عليهما مواسية وقالت: لقد قلتُ منذ البداية إنه لم يفعلها؛ فهو شاب مهذب ولطيف. إن رجال الشرطة مجموعة من الأغبياء، وقد قلتُ ذلك من قبل، فالمرجح كثيراً أن يكون الفاعل مشرداً لصاً. لا تتألمي يا عزيزتي، سيظهر الحق كله، وسترين أنه سيظهر.

ناحت إيميلي قائلة: إنني أحبه حباً هائلاً.

يا للعزيز الغالي جيمس! جيمس الضعيف غير العملي. يكاد المرء يجزم دوماً أن من شأنه أن يقوم بالتصرف الخطأ، وفي الوقت الخطأ. ما هي الفرصة الممكنة له أمام ذلك المفتش العنيد المصمم ناراكوت.

قالت نائحة من جديد: يجب أن ننقذه.

واستّها السيدة بيلينغ قائلة: بالطبع سننقذه، بالطبع سننقذه.

جففت إيميلي عينيها بقوة، وقامت بنشقة وشهقة أخيرتين، ثم رفعت رأسها وسألت بعناد: أين أستطيع الإقامة في سيتافورد؟

- أستذهبين إلى سيتافورد؟ أما زلت مصممة على الذهاب إلى هناك يا عزيزتي؟

أومأت إيميلي برأسها بقوة وقالت: نعم.

فكرت السيدة بيلينغ بالمسألة وقالت: حسناً، يوجد مكان واحد يمكنك الإقامة فيه؛ فليس في سيتافورد الكثير من الأماكن. فهناك البيت الكبير الذي بناه الكابتن تريفيليان، وهو مؤجر الآن لسيدة من جنوب أفريقيا. وهناك البيوت الصغيرة الستة التي بناها، والبيت رقم ٥ منها تسكنه عائلة كيرتيس، الذي كان بستانياً في منزل سيتافورد. والسيدة كيرتيس تؤجر غرفاً في الصيف، إذ سمح لها الكابتن بذلك. ليس هناك مكان غير هذا يمكنك الإقامة فيه، وهذه حقيقة. ولكن كيف ستذهبين إلى سيتافورد يا آنسة؟ هل استأجرتِ سيارة؟

- سأتقاسم السيارة التي استأجرها السيد إندربي معه.

- آه، وأين تراه سيقيم هو؟

- أحسب أنه سيضطر إلى النزول عند عائلة كيرتيس أيضاً. هل سيكون لديها متسع لنا كلينا؟

- لا أدري إن كان ذلك سيبدو مناسباً تماماً لفتاة مثلك.

- إنه ابن عمي.

شعرت إيميلي أنه لا ينبغي أن تسمح لأي شعور بالاستهتار أن يتدخل ويعمل ضدها في عقل السيدة بيلينغ، وعندما سمعت مالكة الفندق بجواب إيميلي انفرجت أساريرها وقالت: حسناً، لا بأس بذلك إذن. ويحتمل كثيراً -إن لم تجدي راحة لدى السيدة كيرتيس- أن يستضيفوك في المنزل الكبير.

قالت إيميلي وهي تمسح عينيها من جديد: إنني آسفة لتصرفي وبكائي السخيف.

- هذا طبيعي تماماً يا عزيزتي، وستشعرين بتحسن من ذلك.

قالت إيميلي صادقة: إنني أشعر بذلك؛ أشعر بتحسن كبير.

- يوجد شيئان لا يُعلى عليهما، نوبة بكاء حار، وكوب جيد من الشاي... وستحصلين فوراً على كوب شاي يا عزيزتي، قبل أن تغادري في تلك الرحلة الباردة.

- شكراً لك، ولكن لا أحسب حقاً أنني أريد...

قالت السيدة بيلينغ وهي تنهض بإصرار وتمضي نحو الباب: لا يهمني ما تريدينه، ولكن هذا ما ستشربينه. وأخبري أميليا كيرتيس عني أنها يجب أن تعتني بك وتحرص على تناولك لطعام جيد، وعدم تركك تحزنين.

- أنت حقاً لطيفة.

قالت السيدة بيلينغ وهي تدخل باستمتاع في دورها ضمن هذه المغامرة الرومانسية: وفوق ذلك فإنني سأبقى مفتوحة العينين والأذنين هنا. يوجد الكثير من الأمور الصغيرة التي أسمعها والتي لا تصل إلى الشرطة أبداً، وسأبلغك بكل ما أسمعه يا آنسة.

- أوستفعلين ذلك حقاً؟

- نعم سأفعله، فلا تقلقي يا عزيزتي، سنُخرج فتاكِ من هذه المشكلة بأسرع ما يمكن.

قالت إيميلي وهي تنهض: ينبغي أن أذهب وأحزم أمتعتي.

- سأرسل لك الشاي إلى غرفتك.

صعدت إيميلي إلى غرفتها، فحزمت أغراضها القليلة في حقيبتها، وبللت عينيها بالماء البارد، ووضعت المساحيق على وجهها بسخاء، ثم قالت لنفسها في المرآة: لقد انسحمتِ حتى جعلتِ من نفسك منظراً مأساوياً.

ثم قرعت الجرس، فجاءت خادمة الغرف بسرعة (وهي أختُ زوجة الشرطي غريفز المتعاطفة). أعطتها إيميلي جنيهاً وتوسلت إليها بجدية كي تمرر لها أية معلومات قد تستطيع الحصول عليها بطرق ملتوية من الشرطة. وقد أبدت الفتاة كل استعداد لذلك قائلة: عند السيدة كيرتيس في سيتافورد؟ سأقوم بذلك بالتأكيد يا آنسة، سأفعل أي شيء. إننا جميعاً نشعر بالتضامن معك يا آنسة، أكثر مما أستطيع

وصفه... سأمرر لك أقل شيء أسمعه يا آنسة.

- أنت رائعة.

- إنها تماماً كتلك القصة التي اشتريتُها من مكتبة وولورث قبل أيام، وكان اسمها «جرائم الليلك». وهل تعرفين ما الذي قادهم للعثور على القاتل الحقيقي يا آنسة؟ مجرد قطعة صغيرة عادية من الشمع. إن فتاكِ وسيم يا آنسة، أليس كذلك؟ يختلف تماماً عن صوره في الصحف. أعدك أنني سأفعل كل ما في وسعي يا آنسة، من أجلك ومن أجله.

وبعد أن ركزت إيميلي الانتباه الرومانسي على هذا النحو غادرت الفندق بعد أن شربت الشاي الذي وصفته لها السيدة بيلينغ. وعندما انطلقت سيارة الفورد القديمة قالت لإندربي: بالمناسبة، أنت ابن عمي، لا تنسَ.

قال إندربي مستغلاً فرصته السانحة: هذا رائع، وفي هذه الحالة من الأفضل أن أدعوك إيميلي.

- حسناً يا ابن العم... ما هو اسمك؟

- تشارلز.

- حسناً يا تشارلز.

ومضت السيارة صعوداً على طريق سيتافورد.

* * *

الفصل الثالث عشر

سيتافورد

افتُتنت إيميلي -بعض الشيء- بأول رؤية لها لسيتافورد. فبعد أن انعطفا عن الطريق العام بعد نحو ميلين من إيكزامبتن مضت بهما السيارة صعوداً فوق طريق وعر بعض الشيء حتى وصلا قرية تستقر على حافة السهل تماماً. كانت القرية تتألف من دكان الحداد ومكتب بريد مُشترك مع محل للحلويات، ومن هناك تبعا طريقاً انتهى عند صف من البيوت الصغيرة المبنية حديثاً من حجر الغرانيت. وعند البيت الثاني من تلك البيوت توقفت السيارة وتطوع السائق بإبلاغهم بأن هذا هو بيت السيدة كيرتيس.

كانت السيدة كيرتيس امرأة صغيرة الحسم نحيلة ذات شعر أشيب، قوية حيوية ذات مزاج حاد نزق. وقد كانت شديدة الانفعال بخبر الجريمة الذي لم يصل إلى سيتافورد إلاّ صباح ذلك اليوم.

قالت: نعم، أستطيع استضافتك بالطبع يا آنسة أنت وابن عمك إن انتظرَ قليلاً فقط حتى أنقل بعض الملابس. لا أحسب أنكما تمانعان

في تناول وجباتكما معنا؟ حسناً، مَنْذا كان يصدق ذلك؟ الكابتن تريفيليان يُقتل! لقد كنا منقطعين عن العالم منذ صباح الجمعة، وعندما وصل النبأ صباح اليوم ذُهلتُ إلى أبعد الحدود. قلتُ لكيرتيس: "مات الكابتن، وهذا يريك مقدار الشرّ في العالم هذه الأيام". ولكن ما بالي أتركُكما واقفين هنا وأتحدث يا آنسة. تفضلي أنت والسيد بالدخول. لقد وضعتُ إبريق الشاي على النار، وستشربان كوباً من الشاي في الحال؛ فلا بد أن البرد قد نال منكما في انتقالكما هذه المسافة، رغم أن الجو أدفأ قليلاً اليوم ممّا كان من قبل. لقد بلغ سُمك الثلج ثمانية أقدام وأحياناً عشرة أقدام هنا.

وهكذا دخل إيميلي وتشارلز إلى مقرهما الجديد وقد غرقا في هذا السيل من الكلام. أُعطيت لإيميلي غرفة مربعة صغيرة شديدة النظافة تطل على منحدر هضبة سيتافورد، أما غرفة تشارلز فقد كانت أشبه بممر طويل ضيق، تطل على مقدمة المنزل وعلى الطريق، وتحتوي على سرير وخزانة أدراج صغيرة جداً ومغسلة.

قال تشارلز بعد أن وضع السائقُ الحقيبةَ على السرير، ودُفعت له إكراميته وشُكِر حسب الأصول: الأمر الرائع هو أننا هنا، وإنني أراهنك أننا سنعرف كل ما يمكن معرفته عن جميع سكان سيتافورد خلال ربع الساعة القادمة، وإلاّ فأنا مستعد لحراثة البحر!

بعد عشر دقائق كانا يجلسان في الطابق السفلي في المطبخ المريح بعد أن تم تقديمهما إلى السيد كيرتيس، وهو عجوز أشيب الشعر بادي الخشونة، حيث قُدّم لهما الشاي الثقيل والخبز والزبدة وقشطة ديفونشير والبيض المسلوق. وبينما هما يأكلان ويشربان كانا

يستمعان، وما هي إلاّ ربع ساعة حتى كانا يعرفان كل ما يمكن معرفته عن سكان هذا المجتمع الصغير.

عرفا -أولاً- عن الآنسة بيرسهاوس التي تعيش في البيت رقم ٤ في كوتيجيز، وهي عانس عجوز لا يعرف أحدٌ عمرها الحقيقي وطبيعة مزاجها، وقد جاءت قبل ست سنوات لتموت هنا كما قالت السيدة كيرتيس، التي مضت قائلة: ولكن صدقي أو لا تصدقي يا آنسة، إن هواء سيتافورد صحيٌ جداً بحيث أنها تحسنت منذ أول يوم جاءت فيه إليها. إنه هواء رائع جداً للرئتين. وللآنسة بيرسهاوس ابن أخت يأتي لرؤيتها بانتظام، وهو -في الواقع- مقيم معها في الوقت الحاضر، والحقيقة أن هدفه هو الحرص على ألاّ تذهب الأموال إلى خارج العائلة. إن الوضع مملٌ جداً هنا بالنسبة لشاب مثله، وخاصة في مثل هذا الوقت من السنة. وقد كان مجيئه نعمة على الآنسة الشابة في منزل سيتافورد. فتاة مسكينة، يؤتى بها في فصل الشتاء إلى ذلك البيت الضخم الشبيه بالقلعة. إن بعض الأمهات أنانيات! وهي فتاة جميلة جداً أيضاً. ويتردد السيد غارفيلد على المكان ما وسعه ذلك دون إهمال الآنسة بيرسهاوس.

تبادل تشارلز إندربي وإيميلي النظرات، وتذكر تشارلز بأن رونالد غارفيلد قد ذُكر سابقاً باعتباره واحداً ممن كانوا في جلسة تحضير الأرواح.

مضت السيدة كيرتيس قائلة: البيت المجاور لبيتي من هذا الجانب (ورقمه ٦) اشتُري مؤخراً فقط. اشتراه سيد يُدعى ديوك، وقد أَلِف المكان بسرعة. وهو رجل يميل إلى الخجل، ويوحي مظهره بأنه رجل

عسكري، ولكنه لا يملك –على نحوٍ ما– سمت العسكريين. إنه ليس مثل الميجر بيرنابي الذي يدرك المرءُ أنه عسكري بمجرد النظر إليه.

البيت رقم ٣ هو منزل السيد رايكروفت، وهو رجل كهل ضئيل الجسم. يقولون إنه كان يتابع الطيور في أماكن نائية لمصلحة المتحف البريطاني. إنه من أولئك المختصين بالطبيعة كما يسمونهم، وهو يخرج دائماً ويتجول في السهول القريبة عندما يسمح الطقس، ولديه مكتبة رائعة، حتى أن بيته يكاد يكون مليئاً بخزائن الكتب.

البيت رقم ٢ يعود لسيد مُعاق يُدعى الكابتن وايت، ولديه خادم هندي. وذلك المسكين يشعر بالبرد الشديد دائماً، أعني الخادم وليس الكابتن؛ ولا عجب في ذلك وهو القادم من بلاد دافئة. ولذلك فهم يُبقون الحرارة داخل البيت مخيفة تماماً؛ مثل الفرن تماماً.

والبيت رقم ١ هو منزل الميجر بيرنابي. وهو يعيش بمفرده، وأذهب أنا لخدمته صباح كل يوم. وهو رجل مرتب جداً وكثير التدقيق، وكانا (هو والكابتن تريفيليان) أعزّ صديقين؛ فهي صداقة عمر طويل، ولديهما نفس رؤوس الحيوانات الغريبة معلقة على الجدران.

أما بالنسبة للسيدة ويليت وابنتها فهذا ما لا يستطيع امرؤ فهمه. إن لديهما الكثير من المال، وهما تتعاملان مع محل آموس باركر في إيكزامبتن، وقد أخبرني آموس أن حسابهم الأسبوعي يتجاوز ثمانية جنيهات أو تسعة. ولا يمكن أن تصدقوا النوعيات التي تدخل ذلك البيت! فقد أحضرتا خادماتهما معهما من إيكزيتر، ولكن الخادمات لم يعجبهن المكان ويرغبن بالمغادرة، وأنا لا ألومهن أبداً. والسيدة ويليت

ترسلهن مرتين في الأسبوع إلى إيكزيتر بسيارتها، وبسبب ذلك وبسبب العيشة الجيدة فقد وافقن على الاستمرار، ولكن رأيي أن هذا الأمر غريب، أن تدفن سيدة كهذه نفسها في الريف بهذا الشكل. حسناً، يجدر بي أن أنظف أواني الشاي هذه.

سحبت نَفَساً عميقاً، وكذلك فعل تشارلز وإيميلي. ففيض المعلومات التي تدفقت بكل تلك السهولة كاد أن ينسيهما نفسيهما.

جازف تشارلز بإلقاء سؤال: هل عاد الميجر بيرنابي؟

توقفت السيدة كيرتيس فوراً والصينية في يدها وقالت: نعم، عاد يا سيدي؛ جاء بنفس خطواته الثقيلة كعهده دائماً، قبل نحو نصف ساعة من وصولكما. وقد صحتُ به: "آه يا سيدي! هل مشيت كل الطريق من إيكزامبتن؟"، فقال بلهجته العنيدة المعتادة: "ولِمَ لا؟ إن كانت للمرء ساقان فهو ليس بحاجة إلى أربع عجلات. وأنا أفعل ذلك كل أسبوع كما تعلمين يا سيدة كيرتيس". قلتُ له: "آه، نعم يا سيدي، ولكن هذه المرة مختلفة؛ فبعد الصدمة وجريمة القتل وجلسة التحقيق رائع منك أن تمتلك القوة لقطع كل هذه المسافة". ولكنه اكتفى بأن ابتسم ودخل البيت. ومع ذلك فحاله يبدو سيئاً، وإنها لمعجزة أن يستطيع الوصول إلى إيكزامبتن ليلة الجمعة! إنني أسمي ذلك شجاعة، وهو في مثل سنه. يسير هكذا ويقطع ستة أميال، منها ثلاثة أميال أثناء عاصفة ثلجية. لكم أن تعتقدوا ما تشاؤون، ولكنني أرى أن شباب هذه الأيام لا يشكّلون شيئاً أمام رجال الأيام الخوالي. ما كان ذلك الشاب رونالد غارفيلد ليستطيع القيام بتلك المسيرة، وإن رأيي ورأيَ السيدة هيبرت في مكتب البريد والسيد باوند الحداد أنه

كان من واجب السيد غارفيلد ألاّ يتركه يذهب وحيداً كما ذهب. كان ينبغي أن يذهب معه، ولو أن الميجر بيرنابي فُقِدَ في انهيار ثلجي لكان من شأن الجميع أن يلوموا السيد غارفيلد، وهذه حقيقة.

ثم مضت مزهوة إلى غرفة الأطباق وسط قرقعة أواني الشاي. وقام السيد كيرتيس بنقل غليون قديم من الزاوية اليمنى من فمه إلى الزاوية اليسرى وهو يتأمل، ثم قال: "النساء يتكلمن كثيراً". ثم توقف قليلاً وعاد ليتمتم: وهن لا يعرفن -في أغلب الحالات- حقيقةَ ما يتحدثن عنه.

استقبلت إيميلي وتشارلز هذا الإعلان بصمت، ولكن حين رأى تشارلز أن أي تصريح آخر لم يصدر عن السيد كيرتيس تمتم باستحسان: هذا صحيح تماماً... نعم، صحيح تماماً.

– آه!

قالها السيد كيرتيس وعاد إلى صمت عذب متأمل، فيما نهض تشارلز وقال: أظنني سأذهب وأرى الميجر بيرنابي لأخبره أن التصوير سيكون صباح غدٍ.

قالت إيميلي: سآتي معك. أريد أن أعرف ما هو رأيه في جيمس حقاً، وما هي أفكاره إزاء الجريمة عموماً.

– هل لديك حذاء مطاطي أو شيء يشبهه؟ الأرض موحلة جداً.

– لقد اشتريتُ واحداً في إيكزامبتن.

– يا لك من فتاة عملية! إنك لا تنسين شيئاً.

قالت: "ولكن ذلك لا يساعد المرء -مع الأسف- في اكتشاف القتلة". ثم أضافت متأملة: ربما كان ذلك مفيداً عند ارتكاب جريمة قتل!

– حسناً، لا تقتليني.

ثم خرج الاثنان معاً. وعادت السيدة كيرتيس إلى المطبخ فوراً فقال زوجها: لقد ذهبا إلى الميجر بيرنابي.

– آه! والآن، ما رأيك؟ هل ترى أنهما متحابان أم لا؟ يقال إن زواج أبناء العم يسبّب الكثير من المتاعب وينتج عنه أطفال صم وبكم ومتخلفون عقلياً وغير ذلك الكثير من الشرور. إنه مغرم بها؛ هذا ما يستطيع المرء رؤيته بسهولة. أما هي فإنها كتومة لا يُسبَر غورها مثل بيليندا ابنة عمتي سارة؛ لها طريقة محنكة في تعاملها مع الناس، ومع الرجال. إني لأتساءل ما الذي تجري خلفه؟ أتعرف ما الذي أراه يا كيرتيس؟

همهم السيد كيرتيس، فقالت: أنا أظن أن ذلك الشاب الذي تعتقله الشرطة بتهمة ارتكاب الجريمة هو الشاب الذي تريده، وقد جاءت إلى هنا لتتحرى وترى ما الذي يمكنها أن تكتشفه.

ثم قالت السيدة كيرتيس وهي تطقطق بالأواني الصينية: وتذكّر ما أقوله، إن كان يوجد ما يُكتشف فإن هذه الفتاة ستكتشفه!

* * *

الفصل الرابع عشر
السيدتان ويليت

في نفس اللحظة التي انطلق فيها تشارلز وإيميلي لزيارة الميجر بيرنابي كان المفتش ناراكوت يجلس في غرفة الجلوس في منزل سيتافورد محاولاً تشكيل انطباع عن السيدة ويليت.

لم يكن قد تمكن من مقابلتها في وقت أبكر من هذا؛ إذ أن الطرق كانت مقطوعة حتى صباح اليوم. ولم يكد يعرف أو يتوقع كيف ستكون، ولكن توقعاته لم تكن بالتأكيد ما وجده. لقد كانت السيدة ويليت هي التي استلمت زمام المبادرة، وليس هو.

فقد اندفعت إلى الغرفة بأسلوب في منتهى العملية والكفاءة. ورأى أمامه امرأة طويلة رفيعة الوجه حادة العينين، وكانت ترتدي ثوباً مُحاكاً بطريقة معقدة يكاد يتجاوز قليلاً حدود اللباقة في الملبس كما يفهمها أهل الريف، وكانت جواربها من الحرير الثمين جداً، وحذاؤها الجلدي ذا كعب عال. وقد لبست العديد من الخواتم الثمينة ووضعت الكثير من اللؤلؤ المُقلد الجيد الثمين.

قالت: المفتش ناراكوت؟ من الطبيعي أن ترغب في المجيء إلى المنزل هنا. يا لها من مأساة تثير الصدمة! لا أكاد أصدقها. إننا لم نسمع بها إلاّ صباح اليوم، وقد صُدمنا إلى حدٍ فظيع. اجلس من فضلك أيها المفتش. هذه ابنتي فايوليت.

كاد ألاّ ينتبه للفتاة التي لحقت بها للغرفة، ومع ذلك كانت فتاة رائعة الجمال، طويلة بيضاء ذات عينين زرقاوين واسعتين.

اتخذت السيدة ويليت لنفسها مقعداً وقالت: هل من طريقة يمكن لي فيها أن أساعدك أيها المفتش؟ لم أعرف إلاّ القليل عن الكابتن تريفيليان المسكين، ولكن إن كان أي شيء يمكن أن يخطر على بالك...

قال المفتش بتمهل: شكراً يا سيدتي. إن المرء لا يعرف طبعاً ما الذي يمكن أن يكون مفيداً أو غير مفيد.

– أفهم ذلك تماماً. ربما كان في البيت شيء قد يلقي ضوءاً على هذا الأمر المؤسف، ولكنني أشك في ذلك. فقد نقل الكابتن تريفيليان كل أمتعته الشخصية... بل إنه خشي أن أعبث بعدة صيد السمك لديه، المسكين!

ثم ضحكت قليلاً فقال: أما كنتِ تعرفينه؟

– أتعني قبل أن أستأجر البيت؟ آه! لا. وقد دعوته إلى هنا عدة مرات منذ استئجاري للمنزل، ولكنه لم يأتِ أبداً. كان المسكين خجولاً جداً... تلك كانت مشكلته. لقد عرفتُ عشرات الرجال من

هذا النوع. يسمونهم كارهي النساء وغير ذلك من الصفات السخيفة، ولا يكون الأمر في الحقيقة إلاّ مسألة خجل. لو أنني استطعت الإمساك به لكنتُ تجاوزت بسرعة كل هذه السخافات؛ إن مثل هذا النوع من الرجال لا يحتاج إلاّ إلى جلاء معدنه الحقيقي.

بدأ المفتش ناراكوت يفهم موقف الكابتن تريفيليان الدفاعي جداً إزاء ساكنَتَيْ منزله. قالت السيدة ويليت: لقد دعوناه كلانا، أليس كذلك يا فايوليت؟

- آه! نعم يا أمي.

- إنه بحّار طيب بسيط في قرارة نفسه، وما من امرأة لا تحب البحارة أيها المفتش.

خطر للمفتش ناراكوت -في تلك اللحظة- أن السيدة ويليت هي التي أدارت المقابلة كلياً حتى الآن. كان مقتنعاً بأنها امرأة في غاية الذكاء. ربما كانت بريئة كما هو ظاهرها، ولكنها قد لا تكون كذلك. قال: إن النقطة التي أحرص على الحصول على معلومات بشأنها هي التالية.

ثم توقف قليلاً، فقالت: نعم أيها المفتش؟

- لقد كان الميجر بيرنابي -كما تعلمين دون شك- هو الذي اكتشف الجثة، وقد قاده لفعل ذلك حادث حصل هنا في هذا البيت.

- ماذا تعني؟

- أعني جلسة تحضير الأرواح. عفواً...

التفت بحدة، إذ كان صوت خافت قد صدر عن الفتاة. قالت والدتها: مسكينة فايوليت، لقد انزعجت جداً... والحقيقة أننا انزعجنا جميعاً! أمر لا تفسير له إطلاقاً. لستُ ممن يؤمنون بالخرافات، ولكن ذلك الأمر كان عصياً تماماً على التفسير.

- أي أنه حدث إذن؟

فتحت السيدة ويليت عينيها على اتساعهما وقالت: حدث؟ بالطبع قد حدث. وقد رأيت وقتها أنه مزحة... مزحة ثقيلة سمجة جداً تخلو من أي ذوق. وقد شككتُ بالشاب رونالد غارفيلد.

- آه! لا يا أمي. أنا واثقة أنه لم يفعل ذلك؛ فقد حلف بأغلظ الأيمان أنه لم يفعلها.

- أنا أقول ما ظننتُه وقتها يا فايوليت. ماذا كان بوسع المرء أن يرى في ذلك الأمر سوى مزحة؟

قال المفتش ببطء: كان أمراً غريباً. هل أزعجك ذلك كثيراً يا سيدة ويليت؟

- لقد أزعجنا جميعاً. فحتى ذلك الحين كان الأمر مجرد... مجرد لهو سخيف غير جدي. وأنت تعرف كيف تكون مثل تلك الأمور... تسلية جيدة في ليالي الشتاء. ثم فجأة... حدث ذلك! لقد غضبتُ كثيراً.

- غضبتِ؟

- بالطبع. ظننتُ أن أحدهم يقوم بذلك عمداً، أعني تحريك

الطاولة بتلك الكيفية... على سبيل المزاح كما قلت.

- والآن؟

- الآن؟

- نعم، ما الذي ترينه الآن؟

مدت السيدة ويليت ذراعيها في إشارة معبرة وقالت: لا أدري ماذا أرى. إنه... إنه أمر غريب مخيف.

- وأنت يا آنسة ويليت؟

جفلت الفتاة وقالت: أنا؟ إنني... إنني لا أدري. لن أنسى ذلك الحادث أبداً. إنني أحلم به، ولن أجرؤ أبداً على حضور لعبة كهذه ثانية.

قالت أمها: أحسب أن من شأن السيد رايكروفت أن يقول إن ذلك الأمر حقيقي؛ فهو يؤمن بكل تلك الأمور. وأنا -حقاً- أميل إلى تصديق ذلك شخصياً، إذ ما هو التفسير الممكن لذلك سوى أنه كان رسالةً حقيقية من إحدى الأرواح؟

هزّ المفتش رأسه؛ فقد شعر أن تحضير الأرواح كان دليلاً مُضلِّلاً يوضَع في طريقه. جاءت ملاحظته التالية بشكل عرضي تماماً: ألا تجدين الحياة هنا قاحلة جداً في الشتاء يا سيدة ويليت؟

- آه، إننا نحبها. إنها تغيير رائع؛ فنحن من جنوب أفريقيا كما تعلم.

كانت نبرتها سريعة وعادية. وسألها المفتش: حقاً؟ من أية منطقة في جنوب أفريقيا؟

- من كيب تاون. إن فايوليت لم تزر إنكلترا أبداً من قبل، وقد سحرها الجو؛ فهي تجد الثلج رومانسياً جداً. وهذا البيت حقاً مريح جداً.

- ما الذي جعلك تأتين إلى هذه المنطقة؟

كان في نبرته مجرد فضول لطيف. قالت: لقد قرأنا كتباً كثيرة عن منطقة ديفونشير، وخصوصاً عن دارتمور، وقد كنا نقرأ كتاباً على متن السفينة... عن معرض ويدكوم. وقد كانت لديّ دوماً رغبة برؤية دارتمور.

ما الذي جعلك تركزين على إيكزامبتن؟ إنها ليست بتلك البلدة الشهيرة.

- لقد كنا نقرأ تلك الكتب كما قلتُ لك، وكان على متن السفينة فتى يتحدث كثيراً عن إيكزامبتن... وكان متحمساً جداً لها.

- ما هو اسمه؟ وهل هو من أهالي هذه المنطقة؟

- ماذا كان اسمه؟ أظنه كولين... لا، بل كان سميث. يا لغبائي! إنني -حقاً- لا أستطيع تذكر اسمه. أنت تعرف كيف هي العلاقات على متن السفن أيها المفتش؛ تتعرف إلى الناس جيداً وتخطط للّقاء معهم ثانية، وبعد أسبوع من وصولك لا تستطيع حتى تذكر أسمائهم!

ثم ضحكت وقالت: ولكنه كان فتى لطيفاً جداً... لم يكن وسيماً، بل كان أحمر الشعر، ولكنه ذو ابتسامة تبعث السرور.

قال المفتش مبتسماً: وبناء على قوة هذا الدافع قررتِ استئجار بيت في هذه المنطقة؟

- نعم، ألم يكن ذلك جنوناً مني؟

فكر ناراكوت قائلاً لنفسه: "ذكية، ذكية جداً". بدأ يدرك أساليب السيدة ويليت؛ فهي تنقل الحرب دوماً إلى معسكر الخصم. ثم قال: وهكذا كتبتِ للمكتب العقاري وسألتِ عن بيت؟

- نعم. وقد أرسلوا لنا وصفاً لمنزل سيتافورد، وبدا أن ذلك هو تماماً ما كنا نريد.

قال المفتش ضاحكاً: ما كنتُ لأفضّل ذلك في مثل هذا الوقت من السنة.

قالت السيدة ويليت بمرح: ولا أظننا كنا سنفضّله نحن أيضاً لو كنا ممن يعيشون في إنكلترا.

نهض المفتش وسأل: كيف عرفتما اسم مكتب عقاري لتراسلانه في إيكزامبتن؟ لا بد أنكما وجدتما صعوبة في ذلك.

كان هناك صمت... أول صمت في هذا الحديث. وظن أنه لمح ومضة غيظ، بل غضب، في عيني السيدة ويليت. لقد ضرب وتراً لم تُحضّر له جواباً. التفتت إلى ابنتها وقالت: كيف تدبرنا الأمر يا

فايوليت؟ لا أذكر ذلك.

كانت في عيني الفتاة نظرة مختلفة؛ فقد بدت مرعوبة.

ولكن السيدة ويليت استدركت قائلة: آه، بالطبع. لقد عرفنا ذلك من مكتب ديلفريدجيز للاستعلامات. إنه مكتب رائع، أعمد إليه دوماً للسؤال عن أي شيء. طلبت منهم اسم أفضل مكتب عقاري هنا فأعطوني إياه.

فكر المفتش قائلاً لنفسه: "سريعة، سريعة جداً. ولكنك لست بالسرعة الكافية. لقد غلبتكِ في هذا السؤال يا سيدة".

قام بفحص سريع للمنزل فلم يجد فيه ما يثير الانتباه؛ لا أوراق ولا أدراج أو خزائن مقفلة. ورافقته السيدة ويليت وهي تتحدث بانطلاق، وقد استأذن بالانصراف وهو يشكرها بأدب.

ولدى مغادرته لمح ومضة لوجه الفتاة من خلف أمها. ولم يكن ريب فيما رآه من تعبير على وجهها. كان الخوف هو ما رآه على قسماتها. خوف ارتسم هناك بوضوح في تلك اللحظة التي ظنت فيها أن أحداً لا يراقبها.

كانت السيدة ويليت ما زالت تتكلم: ولكن توجد -مع الأسف- علة واحدة كبرى؛ وهي مشكلة الخدم أيها المفتش. فالخادمات لا يتحملن مثل هذه المناطق الريفية، وخادماتي كلهن يهددن بترك العمل منذ بعض الوقت، ويبدو أن خبر الجريمة قد أثار بينهن اضطراباً شديداً. لا أدري ماذا سأفعل. ربما كان الحل في توظيف خدم من الرجال. هذا

ما ينصح به مكتب التسجيل في إيكزيتر.

كان المفتش يجيبها بطريقة آلية؛ إذ لم يكن يصغي لفيض حديثها. كان يفكر بمفاجأته للفتاة والتعبير الذي ظهر على وجهها.

لقد كانت السيدة ويليت ذكية، ولكن ليس لدرجة كافية تماماً. ومضى يتأمل بمشكلته: إن لم يكن للأم وابنتها علاقة بمقتل الكابتن تريفيليان فلماذا كانت فايوليت ويليت خائفة؟

أطلق آخر طلقة لديه. فعندما كانت قدمه فوق عتبة الباب الأمامي تماماً التفت وقال: بالمناسبة، أنتما تعرفان الشاب بيرسن، أليس كذلك؟

لم يكن شك في الصمت الذي ساد هذه المرة. صمت ثقيل لبضع ثوان، ثم تكلمت السيدة ويليت: بيرسن؟ لا أظن...

ولكنها قوطعت، فقد جاء من الغرفة خلفها صوت شهقة غريبة ثم صوت سقوط. وبلمح البصر تجاوز المفتش العتبة وهرع إلى الغرفة. كانت فايوليت ويليت مغمى عليها.

صاحت السيدة ويليت: يا للطفلة المسكينة! كل هذا الضغط العصبي والصدمة. جلسة تحضير الأرواح الفظيعة، ثم جاءت جريمة القتل لتتوج ذلك. إنها ليست بالقوية. شكراً جزيلاً لك أيها المفتش. نعم، على الأريكة من فضلك. هل لك أن تقرع الجرس؟ لا، لا أظن أن بوسعك فعل المزيد. ألف شكر لك.

مضى المفتش في الممشى المنحدر من البيت وقد تغضن وجهه

وتجهم. لقد كان جيمس بيرسن خاطباً لتلك الفتاة رائعة الجمال التي رآها هو في لندن. لماذا -إذن- يُغمى على فايوليت ويليت عند ذكر اسمه؟ ما هي العلاقة بين جيمس بيرسن وهاتين المرأتين؟

توقف متردداً لدى خروجه من البوابة الأمامية، ثم أخذ من جيبه دفتر ملاحظات صغيراً. وفي الدفتر كانت قائمة بساكني البيوت الصغيرة الستة التي بناها الكابتن تريفيليان، وأمام كل واحد بضع ملاحظات مقتضبة. توقفت سبابة المفتش ناراكوت القصيرة الغليظة أمام البند الخاص بالبيت رقم ٦، وقال لنفسه: نعم، من الأفضل أن أراه الآن.

مشى بسرعة في الطريق، ثم طرق بحزم على مطرقة البيت رقم ٦... البيت الذي يسكنه السيد ديوك.

* * *

الفصل الخامس عشر
زيارة للميجر بيرنابي

عبر السيد إندربي الطريق الفرعي إلى بيت الميجر وطرق الباب بشيء من الابتهاج، وفُتح الباب فوراً تقريباً وظهر الميجر بيرنابي بوجهه الأحمر على العتبة.

قال بقليل من الحماسة: أهذا أنت؟

وكان على وشك الاستمرار على نفس الوتيرة عندما وقعت عيناه على إيميلي فتغير تعبيره. قال تشارلز بلهجة لاعب ورق يُخرج «الجوكر» فجأة: هذه هي الآنسة تريفوسيس. وقد كانت مهتمة جداً برؤيتك.

قالت إيميلي وقد رسمت على وجهها أعذب ابتساماتها: هل أستطيع الدخول؟

- نعم، بالتأكيد. بالطبع... نعم، بالطبع.

تراجع الميجر إلى غرفة الجلوس وهو يتلعثم بكلامه، وبدأ يجر الكراسي ويزيح الطاولات.

عمدت إيميلي -كما هي عادتها- إلى الدخول في لب الموضوع مباشرة: الحقيقة أيها الميجر أنني مخطوبة لجيمس... جيمس بيرسن، ومن الطبيعي أنني قلقة جداً عليه.

توقف الميجر وهو يزيح إحدى الطاولات وقد فغر فمه وقال: آه، يا إلهي! هذا أمر مؤسف. يا فتاتي العزيزة، إنني لا أستطيع التعبير عن مقدار أسفي.

- قل لي بصدق يا ميجر بيرنابي: هل تؤمن أنت نفسك بأن جيمس مذنب؟ وأرجوك ألاّ تتردد في مصارحتي إن كنتَ ترى ذلك. إنني أفضّل ألف مرة ألاّ يكذب عليّ الناس.

قال الميجر بصوت عالٍ واثق: كلا، لا أظنه مذنباً.

ضرب وسادةً بقوة مرةً أو مرتين، ثم جلس قبالة إيميلي وقال: إن الفتى لطيف. ولكن قد يكون ضعيفاً بعض الشيء، وأرجو ألاّ تنزعجي لكلامي إن قلتُ إنه من النوع الذي يمكن أن يخطئ بسهولة إن وجد الإغراء لذلك أمامه. أما القتل... فلا. واعلمي أنني أعرف عما أتكلم؛ فلقد مرّ من تحت يدي الكثير من صغار الضباط في زماني. لقد أصبحت العادة هي التندر على ضباط الجيش المتقاعدين هذه الأيام، ولكننا مع ذلك نعرف بعض الأمور يا آنسة تريفوسيس.

- أنا واثقة من ذلك، وأنا ممتنة لك كثيراً على قول ما قلته.

قال الميجر بشيء من الاعتذار: هل... هل لكما بشيء من العصير الجاهز؟

– لا، شكراً يا ميجر بيرنابي.

قال بشيء من الكآبة: كان ينبغي عليّ أن أتمكن من تقديم الشاي.

أجابه تشارلز: لقد شربناه عند السيدة كيرتيس.

قالت إيميلي: ميجر بيرنابي، من الذي تظن أنه فعلها... هل لديك أية فكرة؟

– لا، ليست لدي أدنى فكرة. لقد افترضتُ جدلاً أنه مشرد اقتحم البيت، ولكن الشرطة يقولون الآن إن الأمر لا يمكن أن يكون كذلك. وهذا هو عملهم، وأحسب أنهم يعرفون أفضل منا. يقولون إن أحداً لم يقتحم البيت، ولذلك فإنني أفترض أن أحداً لم يقتحمه. ولكن الأمر يحيرني تماماً رغم ذلك؛ فلم يكن لتريفيليان عدو واحد في العالم حسب معرفتي.

قالت إيميلي: وقد كان من شأنك أن تعرف لو كان يوجد مثل هذا العدو.

– نعم، أحسب أنني أعرف عن تريفيليان أكثر من كثير من أقاربه.

– ألا تستطيع التفكير بأي شيء... أي شيء من شأنه أن يساعد بأية طريقة؟

ربت الميجر على شاربه القصير وقال: أعرف بماذا تفكرين. إذ ينبغي –كما هو الأمر في الروايات– أن يوجد حادث صغير ما يجب أن أتذكّره ويصلح أن يكون دليلاً أو رأس خيط. ولكنني آسف، فليس لديّ مثل هذا الشيء. لقد كان تريفيليان يعيش حياة طبيعية. لا يتلقى إلاّ القليل من الرسائل، وما يكتبه من رسائل أكثر ندرة. ولم تكن في حياته تعقيدات نسوية، أنا واثق من ذلك. كلا، إن الأمر يحيرني كثيراً يا آنسة تريفوسيس.

صمت الثلاثة جميعاً. ثم سأل تشارلز: ماذا عن خادمه ذاك؟

– لقد كان معه منذ سنوات طويلة، وهو مخلص تماماً.

– وقد تزوج أخيراً.

– نعم، تزوج فتاة محترمة جداً.

قالت إيميلي: ميجر بيرنابي، اعذرني على التعبير بهذا الشكل... ولكن ألا ترى أنك قد قلقتَ عليه بسرعة ودون وجود مبرر قوي؟

فرك الميجر أنفه بشيء من الحرج الذي يستولي عليه دوماً كلما تمت الإشارة إلى مسألة تحضير الأرواح ثم قال: نعم، قلقتُ عليه، ولا أنكر ذلك. كنتُ أعرف أن الأمر كله هراء، ولكن مع ذلك...

قالت إيميلي تساعده: ولكنك شعرتَ على نحوٍ ما بأنه لم يكن كذلك.

أومأ الميجر موافقاً وقال: لهذا فإنني أتعجب...

نظر الرجلان إليها، فقالت: أنا لا أستطيع التعبير تماماً عما أريده بالشكل المطلوب. ما أعنيه هو التالي: أنت تقول إنك لا تؤمن بكل مسألة تحضير الأرواح تلك... ومع ذلك فرغم الطقس الرهيب، ورغم ما بدا لك -دون شك- من سخافة في الأمر كله، فقد شعرتَ بعدم الارتياح إلى حد اضطررتَ معه للخروج -رغم كل رداءة الطقس- لكي ترى بنفسكَ إن كان الكابتن تريفيليان على ما يرام. ألا ترى أن ذلك قد يكون بسبب... بسبب وجود شيء في الجو.

ثم مضت قائلة بشيء من اليأس إذ لم ترَ بوادر الفهم على وجه الميجر: أعني أنه كان في عقل شخص آخر شيء كما هو في عقلك، وأنك شعرتَ به بشكل أو بآخر.

قال الميجر: "لا أدري". ثم فرك أنفه ثانية وأضاف آملاً: إن النساء طبعاً يأخذون هذا الأمر بجدية أكبر.

قالت إيميلي: "النساء!"، وتمتمت مع نفسها بهدوء: "نعم، أظن أن هذا هو الأمر بشكل أو بآخر". ثم التفتت فجأة إلى الميجر بيرنابي وقالت: كيف هما تلك المرأتان؟

- آه، حسناً...

أخذ الميجر يتأمل، وبدا واضحاً أنه ليس ماهراً في وصف الأشخاص، ثم أضاف: إنهما لطيفتان جداً... وتحبان المساعدة.

- لماذا أرادتا استئجار بيت مثل سيتافورد في هذا الوقت من السنة؟

- لا أستطيع تخيل سبب لذلك، ولم يستطعه أحد غيري.

- ألا ترى أنه أمر غريب جداً؟

- إنه غريب بالطبع. ولكن أحداً لا يستطيع التنبؤ بأذواق الناس.

- غير صحيح؛ إن الناس لا يقومون بتصرفات دون سبب.

قال الميجر بيرنابي بحذر: "حسناً، أنا لا أعرف. بعض الناس لا يقومون بذلك فعلاً. ما كنتِ أنت لتقدمي على شيء دون سبب يا آنسة تريفوسيس، ولكن بعضَ الناس...". ثم تنهد وهزّ رأسه حيرة.

- أأنت واثق أنهما لم يقابلا الكابتن تريفيليان من قبل؟

فكر الميجر بتلك الفكرة. كان من شأن الكابتن تريفيليان أن يقول له شيئاً لو صح ذلك. لا، لقد كان هو الآخر مندهشاً كغيره تماماً.

- إذن فقد شعر الكابتن فعلاً أن الأمر غريب.

- طبعاً، لقد أخبرتكِ أننا شعرنا جميعاً بذلك.

سألت إيميلي: ماذا كان موقف السيدة ويليت تجاه الكابتن تريفيليان؟ هل حاولت تجنبه؟

ابتسم الميجر وقال: لا، لم تحاول ذلك. لقد كانت تحرجه أشد الحرج وهي تطلب منه المجيء لزيارتهما.

- آه!

قالتها إيميلي بتأمل. توقفت قليلاً ثم قالت: إذن فربما... وأقول ربما كانت قد استأجرت منزل سيتافورد لمجرد التعرف على الكابتن تريفيليان.

بدا وكأن الميجر يقلّب الفكرة في عقله، ثم قال: أظن أن ذلك ممكن، ولكنها طريقة مكلّفة جداً للقيام بذلك.

قالت إيميلي: لا أدري، ولكن لم يكن الوصول إلى الكابتن أمراً سهلاً بطريقة أخرى.

وافقها صديق الكابتن القديم: نعم، لم يكن ذلك سهلاً.

قالت إيميلي: إني لأعجب...

شعرت -فجأة- بانزعاج من المفتش ناراكوت؛ فقد بدا أن كل ما تفكر به يكون المفتش قد فكر به قبلها، وقد كان ذلك مبعث غيظ لفتاة تفتخر بنفسها باعتبارها أذكى من الآخرين.

نهضت قائلة بمرح: شكراً جزيلاً لك يا ميجر بيرنابي.

- أتمنى لو استطعتُ مساعدتك أكثر. إنني رجل من النوع البسيط الواضح... وقد كنتُ دوماً كذلك. ولو كنتُ رجلاً ذكياً لأمكنني أن أضع يدي على شيء ربما شكّل دليلاً ما. يمكنك على أية حال أن تعتمدي عليّ في أي شيء تريدينه.

- شكراً لك، سأعتمد عليك.

قال إندربي: وداعاً يا سيدي. سأمر عليك صباحاً مع آلة التصوير.

ابتسم له بيرنابي، وعاد الاثنان أدراجهما إلى بيت السيدة كيرتيس. وهناك قالت إيميلي لتشارلز: تعال إلى غرفتي، أريد الحديث معك.

جلست على الكرسي الوحيد، فيما جلس هو على طرف السرير، ثم نزعت قبعتها ورمتها فذهبت تدور حتى استقرت في زاوية الغرفة، وقالت: والآن اسمعني. أظن أن لدي نقطة تصلح للبداية. ربما كنتُ مخطئة وربما كنت على صواب، هي فكرة على أية حال. إنني أحسب أن الكثير من الأمور ترتبط بمسألة تحضير الأرواح تلك. لقد مارستَ هذه اللعبة، أليس كذلك؟

- آه، نعم، أحياناً. ولكن ذلك لم يكن جاداً.

- نعم، بالطبع. إنها نوع من التسلية التي يقوم بها المرء في الأمسيات الممطرة، ويتهم كل واحد أصحابه بالغش ودفع الطاولة. حسناً، إن كنت قد جربت ذلك فأنت تعرف ما الذي يحدث. إذ تبدأ الطاولة بالاهتزاز وبتهجئة اسم مثلاً، ويكون ذلك اسماً يعرفه أحد الحضور. وفي أغلب الحالات تجد من يعرفون ذلك الاسم يميزونه على الفور، ويتمنون أن لا يكون هو، وطوال الوقت يُقدم هؤلاء -دون وعي منهم- على ما نسميه بدفع الطاولة لاإرادياً. أعني أن إدراك المرء للأشياء يجعله يضطرب ويهتز لاإرادياً عندما يأتي الحرف اللاحق وتتوقف العملية... وكلما حاولت ألاّ تقوم بذلك كلما حدث ذلك دون إرادتك.

وافقها إندربي قائلاً: نعم، هذا صحيح.

– أنا لا أؤمن أبداً بمسألة تحضير الأرواح وما شابه ذلك، ولكن ماذا لو افترضنا أن أحد أولئك الذين كانوا يلهون بذلك كان يعرف أن الكابتن تريفيليان يُقتل في تلك اللحظة؟

احتج تشارلز قائلاً: هذه فرضية بعيدة مُستهجَنة.

– ولكن ربما لم يكن الأمر بهذه الصورة الصريحة المباشرة. نعم، أظن أن ذلك ما حدث دون ريب. إننا نطرح فرضية فقط... هذا كل ما في الأمر. وهي تؤكد أن أحدهم قد عرف أن الكابتن تريفيليان كان ميتاً ولم يستطع أبداً إخفاء معلومته هذه، وقد فضَحَتْهُ الطاولة.

– هذا افتراض عبقري جداً، ولكنني لا أصدق للحظة واحدة أنه صحيح.

قالت إيميلي بثبات: سنفترض أنه صحيح. أنا واثقة أن عليك ألا تخشى افتراض الأشياء عندما تحقق في جريمة.

– أوافقك تماماً. سنفترض أنه صحيح... كما تحبين.

– ولذلك فإن ما علينا أن نفعله هو أن نستعرض بكل دقة الأشخاص الذين كانوا يلعبون. لدينا -بدايةً- الميجر بيرنابي والسيد رايكروفت، ويبدو من المستبعد جداً أن يكون لأيٍ من هذين شريكٌ هو القاتل. ثم ذلك السيد ديوك، ونحن الآن لا نعرف عنه شيئاً؛ فهو لم يصل إلى المنطقة إلاّ منذ وقت قريب، وربما كان بالطبع غريباً شريراً... مثلاً عضواً في عصابة أو ما شابه ذلك. سنضع علامة أمام اسمه. والآن نأتي إلى السيدة ويليت وابنتها، وإن في هاتين المرأتين

شيئاً غامضاً جداً يا تشارلز.

– ولكن ماذا يمكن لهما أن تربحا من موت الكابتن تريفيليان؟

– ظاهرياً لا شيء، ولكن إذا كانت نظريتي صحيحة لا بد أن توجد صلة ما، وعلينا أن نجد تلك الصلة.

– حسناً، وماذا لو كان ذلك كله مجرد وهم؟

– عندها سيتعيّن علينا البدء من جديد.

صاح تشارلز بغتة: اسمعي!

رفع يده، ثم ذهب إلى النافذة ففتحها، وقد سمعت إيميلي أيضاً الصوت الذي أثار انتباهه. كان ذلك صوت جرس ضخم يُقرَع من بعيد.

وفيما هما واقفان يصغيان نادى صوت السيدة كيرتيس بانفعال من تحت: هل سمعتِ الجرس يا آنسة... هل سمعتِه؟

فتحت إيميلي الباب. وقالت السيدة كيرتيس: هل سمعتِه؟ إنه واضح أشد الوضوح، أليس كذلك؟ هذا عجيب!

سألتها إيميلي: وما هو هذا الصوت؟

– إنه جرس سجن برنستاون يا آنسة، على بعد نحو من اثني عشر ميلاً، وهو يعني أن مجرماً قد هرب. جورج، جورج، أين ذهب الرجل؟ هل سمعت الجرس؟ يوجد مجرم طليق.

ثم تلاشى صوتها بعد أن دخلت المطبخ.

أغلق تشارلز النافذة وجلس على السرير ثانية وقال بشيء من خيبة الأمل: من المؤسف أن تحدث الأمور كلها على نحو خاطئ. لو أن هذا المجرم هرب يوم الجمعة فقط، لكان لدينا قاتلنا الجاهز الذي نبحث عنه، وما كنا لنتعب في البحث بعيداً. مجرم جائع ويائس يقتحم البيت، ويأتي تريفيليان للدفاع عن بيته، فيقوم المجرم اليائس بضربه. كل شيء من أبسط ما يكون.

قالت إيميلي وهي تتنهد: كان من شأن ذلك أن يكون بسيطاً فعلاً.

– ولكنه بدلاً من ذلك يهرب متأخراً ثلاثة أيام. إنه... إنه حادثٌ يفتقر تماماً لأي حسٍّ فني.

ثم هزّ رأسه بحزن.

* * *

الفصل السادس عشر
السيد رايكروفت

خرجت إيميلي في صباح اليوم التالي مبكرة، فقد أدركت –وهي الفتاة الذكية– أن من المستبعد أن تحصل على تعاون السيد إندربي إلاّ بعد أن يحلّ الضحى. ولأنها كانت تشعر بالتململ وعدم القدرة على البقاء في فراشها، فقد نهضت وانطلقت في سير سريع على طول الطريق في الاتجاه المعاكس لذلك الذي سلكاه في اليوم السابق.

تجاوزت بوابة منزل سيتافورد على يمينها، وبعد ذلك بقليل اتخذ الطريق منحنى حاداً إلى اليمين وارتفع صعوداً على التلة لينتهي بإطلالة على السهل الفسيح، حيث أخذ الطريق شكل ممر معشب، وسرعان ما تلاشى أثره كلياً. كان الصباح بارداً ومنعشاً، وكان المنظر جميلاً. وصعدت إيميلي إلى قمة هضبة سيتافورد، حيث كانت كومة من الصخور الرمادية ذات الأشكال الغريبة، ومن هذا المرتفع نظرت أسفلَ منها إلى منبسط من السهول التي لا يقطع انسيابها شيء على مرمى النظر، ولا يرى المرء فيها أثراً لأي سكن أو طريق.

وأسفل منها إلى الجانب المقابل من الهضبة كانت كميات هائلة من الصخور الغرانيتية الكبيرة. وبعد أن تمعنت في المنظر للحظات استدارت لترى المنظر الممتد إلى الشمال من حيث أتت. كانت قرية سيتافورد تحتها مباشرة تتجمع على جناح التلة، منزل سيتافورد الذي اكتسب شكل نقطة رمادية مربعة، والبيوت الصغيرة مثل نقاط وراءه. وفي الوادي إلى الأسفل كان بوسعها أن ترى إيكزامبتن.

فكرت إيميلي باضطراب قائلة لنفسها: ينبغي للمرء أن يرى الأمور بشكل أفضل من مكان مرتفع كهذا. ينبغي أن يكون ذلك أشبه بنزع سقف بيت الدمية والنظر إلى داخله من فوق.

تمنت من كل قلبها لو أنها كانت قد قابلت الرجل القتيل ولو لمرة واحدة، فمن الصعب جداً تكوين فكرة عن الناس دون أن يقابلهم المرء أبداً، وفي تلك الحالة علينا أن نعتمد على حكم الناس، ولم يسبق لإيميلي أن اعترفت أبداً حتى الآن بأن أحكام الآخرين تتفوق على أحكامها. إن انطباعات الآخرين لا تفيد المرء، فهي قد تكون بنفس دقة انطباعات المرء نفسه، ولكنه لا يستطيع العمل بموجبها. إن المرء لا يستطيع استخدام زاوية الهجوم الخاصة بشخص آخر إذا صح التعبير.

تنهدت إيميلي بنفاد صبر وهي تتأمل في هذه المسائل بغيظ، ثم غيرت من جلستها. لقد كانت غارقة في أفكارها إلى درجة جعلتها تغفل تماماً عما يحيط بها عن قرب. وقد فوجئت ودُهشت إذ أدركت أن رجلاً كهلاً ضئيل الجسم كان يقف على بعد بضعة أقدام منها، وقد أمسك قبعته بيده بأدب وهو يتنفس بشكل لا يخلو من سرعة.

قال الرجل: اعذريني، أظنك الآنسة تريفوسيس، أليس كذلك؟

- نعم.

- اسمي رايكروفت. سامحيني إن تكلمتُ معك، ولكن أصغر التفاصيل سرعان ما تُعرف في مجتمعنا الصغير هذا، ومن الطبيعي أن خبر وصولك إلى هنا بالأمس قد انتشر. يمكنني أن أؤكد لك أن الجميع يشعرون بتعاطف عميق معك في موقفك يا آنسة تريفوسيس. إننا جميعاً حريصون على مساعدتك بأية صورة ممكنة.

- هذا لطف كبير منكم.

- أبداً، أبداً. أنت رمز الجمال المنكوب، وأرجو أن تسامحيني على طريقتي القديمة في التعبير. ولكن يمكنك جدياً -يا آنستي العزيزة- أن تعتمدي عليّ إن كنت أستطيع مساعدتك بأية طريقة. إنه منظر جميل من هنا، أليس كذلك؟

وافقته إيميلي قائلة: رائع. إن هذا السهل رائع تماماً.

- هل عرفتِ أن مجرماً قد هرب الليلة الماضية من سجن برنستاون؟

- نعم. هل أعادوا اعتقاله؟

- ليس بعد كما أظن. آه، مسكين! لا بد أن يمسكوا به عما قريب. لا أحسبني مخطئاً إن قلتُ إن أحداً لم ينجح في الهروب من برنستاون خلال السنوات العشرين الماضية.

- في أي اتجاه هو السجن؟

مد السيد رايكروفت ذراعه وأشار جنوباً فوق السهل وقال: إنه هناك، على بعد حوالي اثني عشر ميلاً كبُعدٍ مباشر، ولكن طول الطريق إليه يبلغ ستة عشر ميلاً.

ارتعدت إيميلي قليلاً، فقد أثّرت فيها بقوة فكرة رجل يائس مُطارَد. كان السيد رايكروفت يراقبها، وقد أومأ برأسه وقال: نعم، إنني أشعر نفس الشعور شخصياً. من الغريب كيف تثور غرائز المرء ضد فكرة مطاردة رجل حتى الإمساك به، ومع ذلك فإن هؤلاء الرجال في سجن برنستاون كلهم من المجرمين الخطرين العنيفين، من ذلك الطراز الذي نسعى أنا وأنت بكل جهودنا لوضعهم هناك أصلاً.

ثم أطلق ضحكة اعتذار صغيرة وقال: يجب أن تعذريني يا آنسة تريفوسيس، فأنا مهتم كثيراً بدراسة الجرائم، وهي دراسة ممتعة جداً. إن علم الطيور وعلم الجريمة هما موضوعاي المفضلان.

سكت قليلاً ثم مضى قائلاً: هذا هو السبب الذي يدفعني -إذا سمحتِ لي بذلك- إلى الرغبة بالاشتراك معك في هذه القضية. فعلى الدوام كانت دراسةُ جريمةٍ أكون على تماسٍ مباشر معها حلماً لم أستطع تحقيقه. هل لك أن تضعي ثقتك بي يا آنسة تريفوسيس، وأن تسمحي لي بوضع خبرتي تحت تصرفك؟ لقد قرأتُ هذا الموضوع ودرستُه بعمق.

بقيت إيميلي ساكتة للحظات. كانت تهنئ نفسها على الطريقة التي كانت الأمور فيها تصب في مصلحتها؛ فها هي تُقدّم لها خبرة مباشرة بالحياة كما تُعاش في سيتافورد. «زاوية الهجوم»، كررت مع

نفسها تلك العبارة التي خطرت في بالها قبل قليل. كانت قد استمعت إلى «الزاوية» التي ينظر من خلالها الميجر بيرنابي إلى الأمور، وكانت زاوية واقعية... بسيطة... مباشرة، تدرك الحقائق وتغفل تماماً عن الخفايا الصغيرة الدقيقة. والآن تُقدّم لها زاوية أخرى رأت أنها قد تفتح أمامها حقلاً مختلفاً تماماً من الرؤية. فهذا الرجل الضئيل النحيل الأعجف قد قرأ ودرس الأمور بعمق، وهو واسع الاطلاع على الطبيعة البشرية، ولديه ذلك الفضول النهم المهتم بالحياة الذي تبديه الشخصيةُ المتأملة المفكرة، كنقيضٍ للشخصية التي تبادر للتصرف والفعل.

قالت ببساطة: ساعدني أرجوك. إنني شديدة القلق والبؤس.

- هذا طبيعي يا عزيزتي، هذا طبيعي. والآن فقد فهمتُ أن الموقف كما يلي: لقد تم اعتقال أو حجز أكبر أبناء أخت الكابتن تريفيليان... والدليل المتوفر ضده ذو طبيعة بسيطة وواضحة إلى حدٍ ما. إن لدي بالطبع عقلاً منفتحاً. يجب أن تسمحي لي بذلك.

- بالطبع. فلماذا تؤمن ببراءته وأنت لا تعرف عنه شيئاً؟

- هذا كلام معقول تماماً. أنت شخصياً يا آنسة تريفوسيس تصلحين موضوعاً للدراسة مثيرة جداً. وبالمناسبة، فيما يخص اسمك... هل هو من أسماء منطقة كورنوول، كاسم صديقنا المسكين تريفيليان؟

- نعم، فوالدي كان من كورنوول، ووالدتي إسكوتلندية.

- آه! هذا مثير جداً. والآن لنتقرب من مشكلتنا الصغيرة. فمن جهة نحن نفترض أن الشاب جيمس... إن اسمه جيمس، أليس كذلك؟

حسناً، إننا نفترض أن الشاب جيمس كان بحاجة ماسة للمال، وأنه جاء لرؤية خاله وطلب منه مالاً، وأن خاله رفض، وأنه -في لحظة غضب- أخذ كيس رمل كان مرمياً عند الباب وضرب به خاله على رأسه. لم تكن الجريمة عن سابق تصور وتصميم... بل كانت في الحقيقة تصرفاً أحمق غير عقلاني تم القيام به بشكل سيء جداً. والآن، فإن كل شيء قد يكون جرى على هذا النحو. ومن جهة أخرى فربما يكون الشاب قد ترك خاله غاضباً فتقدم شخص آخر بعد ذلك مباشرة وارتكب الجريمة. هذا هو ما تؤمنين به... وإذا أردنا التعبير عن ذلك بطريقة مختلفة لقلنا إن هذا هو ما أتمناه. فأنا لا أريد أن يكون خطيبك هو الذي ارتكب الجريمة، لأن قيامه بذلك سيكون -من وجهة نظري- مسألة تفتقر تماماً للإثارة. ولذلك فإنني أدعم وجهة النظر الأخرى. لقد ارتكبت الجريمة من قبل شخص آخر. سنفترض ذلك ونمضي مباشرة إلى نقطة هامة جداً. هل كان ذلك الشخص الآخر عارفاً بالمشاجرة التي حدثت قبل قليل؟ هل سرّعت المشاجرة ارتكاب الجريمة في الحقيقة؟ هل تفهمين فكرتي؟ لقد كان شخص يفكر في قتل الكابتن تريفيليان، وقد انتهز الفرصة مُدركاً أن الشكوك ستنصرف -دون شك- إلى الشاب جيمس.

فكرت إيميلي في القضية من وجهة نظره، ثم قالت ببطء: في تلك الحالة...

أكمل السيد رايكروفت عنها الحديث قائلاً بسرعة: في تلك الحالة سيتعين على القاتل أن يكون شخصاً على علاقة وثيقة بالكابتن تريفيليان. وينبغي أن يكون مقيماً في إيكزامبتن، ويغلب أن يكون في

البيت، إما خلال المشاجرة أو بعدها. وبما أننا لسنا في محكمة الآن، ونستطيع استعراض الأسماء بكل حرية، فإن اسم الخادم إيفانز يقفز إلى ذهننا باعتباره رجلاً يمكن أن تنطبق عليه شروطنا؛ رجلاً كان يمكن أن يكون في البيت بسهولة، وأن يسمع المشاجرة ويستغل الفرصة. نقطتنا التالية هي أن نعرف ما إذا كان إيفانز يستفيد بأي شكل من وفاة سيده.

- أظنه يحصل على إرث بسيط.

- يمكن أن يشكّل ذلك دافعاً كافياً، ويمكن ألاّ يشكل. يجب أن نكتشف ما إذا كان إيفانز في حاجة شديدة إلى المال. ينبغي أيضاً أن نفكر بالسيدة إيفانز... فقد فهمت أنه تزوج مؤخراً. لو أنك درست علم الجريمة -يا آنسة تريفوسيس- لعرفت ذلك التأثير الغريب الذي تسببه التنشئة والتربية، وخاصة في مقاطعات الريف. نعم... ينبغي ألاّ ندع السيدة إيفانز خارج الموضوع.

- ما رأيك بقضية تحضير الأرواح تلك يا سيد رايكروفت؟

- هذه مسألة غريبة جداً... في غاية الغرابة. إنني أعترف -يا آنسة تريفوسيس- بأنني تأثرتُ بشدة بتلك الحادثة، ولعلك قد سمعت بأنني ممن يؤمنون بالأمور الخارقة. وقد كتبتُ -بالفعل- وصفاً كاملاً وأرسلته إلى «جمعية بحوث الخوارق»، إذ كانت هذه حالة مدهشة موثّقة بشكل جيد. فقد كان هناك خمسة أشخاص، ليس بينهم من يمكن أن تخطر في باله أدنى فكرة أو شك بأن الكابتن تريفيليان قد قُتل.

قالت: "ألا تظن؟..."، ثم توقفت؛ فلم يكن سهلاً عليها أن تذكر للسيد رايكروفت فكرتها القائلة إن أحد الخمسة ربما كانت لديه معرفة مسبقة تؤرق ضميره، إذ كان هو نفسه واحداً من أولئك الخمسة. وهذا لا يعني أنها كانت تشك للحظة واحدة بوجود ما يربط السيد رايكروفت بالمأساة، ومع ذلك شعرت أن إشارتها لتلك الفكرة قد لا تكون لبقة تماماً. ولذلك تابعت موضوعها بأسلوب أكثر التفافاً: ماذا عن السيد غارفيلد هذا؟

- إنه فتى لطيف، ولكنه ليس مُبرِّزاً في أي شيء.

- أحسبه ميسوراً تماماً.

- بل أظنه مفلساً تماماً. وأرجو أنني أستعمل هذا التعبير بشكل دقيق. لقد جاء إلى هنا ليتزلف لخالة له يتوقع منها إرثاً. والآنسة بيرسهاوس امرأة شديدة الذكاء، وأظنها تعرف قيمة ما يُظهره لها من اهتمام. ولكن بما أنها ذات روح خاصة بها تتصف بالسخرية المريرة فإنها تتركه يتزلف.

- إنني أرغب برؤيتها.

- نعم، ينبغي أن تريها بالتأكيد، ولا شك أنها ستصر على اللقاء بك. إنه الفضول يا عزيزتي الآنسة تريفوسيس... الفضول.

- أخبرني عن السيدة ويليت وابنتها.

- رائعتان... رائعتان تماماً. إنهما من أهل المستعمرات طبعاً. ليس لديهما كل ذلك الاتزان إن كنتِ تفهمين قصدي. مفرطتان قليلاً

في ضيافتهما، ولديهما مسحة خفيفة من التأنق في كل شيء.

- غريب أن تأتيا إلى مثل هذا المكان في الشتاء.

- نعم، غريب جداً، أليس كذلك؟ ولكن ذلك منطقي في نهاية المطاف، فنحن الذين نعيش في هذا البلد نتوق إلى الشمس والطقس الحار وأشجار النخيل الباسقة، والناس الذين يعيشون في أستراليا أو جنوب أفريقيا تسحرهم فكرة عيد ميلاد على الطراز القديم تحف به الثلوج والجليد.

قالت إيميلي لنفسها: إني لأتساءل أي واحدة منهما أخبرته بذلك!

فكرت بأن من غير الضروري أن يدفن المرء نفسه في قرية نائية للحصول على عيد ميلاد قديم تحف به الثلوج والجليد. من الواضح أن السيد رايكروفت لا يرى شيئاً مريباً في اختيار المرأتين لمنتجع شتوي، ولكنها فكرت بأن ذلك ربما كان طبيعياً بالنسبة لرجل عالم بالطيور وعالم بالجرائم. فمن الواضح أن سيتافورد تبدو للسيد رايكروفت مكاناً مثالياً للسكنى، ولا يستطيع أن يتصور أنها مكان غير مناسب للآخرين.

كانا ينزلان المنحدر ببطء على جانب التلة، وقد وصلا الآن إلى الطريق. سألت إيميلي فجأة: من يسكن في ذلك البيت؟

- الكابتن وايت... وهو مُقعد. وأخشى أنه غير اجتماعي إلى حدٍ ما.

- هل كان صديقاً للكابتن تريفليان؟

– لم يكن صديقاً حميماً بأي شكل. كان تريفيليان يكتفي بزيارته زيارات رسمية من وقت لآخر، والحقيقة أن الكابتن وايت لا يشجع الزائرين؛ فهو رجل نكد سيء المزاج.

كانت إيميلي ساكتة، فقد كانت تستعرض طريقة تستطيع من خلالها أن تصبح هي نفسها زائرة للكابتن وايت. لم يكن في نيتها أن تترك أي «زاوية هجوم» دون أن تستكشفها. وفجأة تذكرت واحداً من المشاركين بجلسة تحضير الأرواح لم يُذكر حتى الآن، فسألت بابتهاج: ماذا عن السيد ديوك؟

– ماذا عنه؟

– من هو؟

قال السيد رايكروفت ببطء: حسناً، هذا ما لا يعرفه أحد.

– ما أغرب ذلك!

– الحقيقة أن ذلك ليس غريباً، فالسيد ديوك شخص غير غامض على الإطلاق، وأحسب أن اللغز الوحيد فيه هو أصله الاجتماعي. ليس... ليس واضحاً إن كنتِ تفهمينني.

إلاّ أنه أسرع ليضيف: ولكنه رجل طيب تماماً.

سكتت إيميلي. وتوقف السيد رايكروفت وقال: هذا بيتي، هل تشرفينني بالدخول ورؤيته؟

– يسعدني ذلك.

مشا الاثنان في الممر القصير المؤدي إلى البيت ودخلا إليه. كان داخل البيت رائعاً، وقد اصطفت رفوف الكتب على طول الجدران. وتنقلت إيميلي من رف لآخر وهي تنظر -بفضول- إلى عناوين الكتب. كان أحد الأقسام مختصاً بالكتب التي تتناول الظواهر الخارقة، وكان قسم آخر مكرساً للقصص البوليسية الحديثة، ولكن القسم الأكبر من الكتب كان مُخصصاً لعلم الجريمة وللمحاكمات الشهيرة في العالم. أما كتب الطيور فقد احتلت حيزاً صغيراً نسبياً.

قالت: هذا كله رائع. يجب أن أعود الآن؛ أظن أن السيد إندربي قد نهض، وهو ينتظرني. والحقيقة أنني لم أتناول إفطاري بعد. لقد قلنا للسيدة كيرتيس أن تُعد إفطارنا في التاسعة والنصف، وأرى أن الساعة قد بلغت العاشرة. سوف أتأخر كثيراً... ذلك لأن صحبتك كانت مثيرة جداً، وكنتَ في غاية المساعدة.

وعندما التفتت إيميلي إليه بنظرة ساحرة دمدم السيد رايكروفت قائلاً: سأبذل كل ما أستطيعه. يمكنك الاعتماد علي؛ فنحن شركاء.

أعطته إيميلي يدها وضغطت على يده مصافحة بحرارة، ثم قالت مُستخدمة العبارة التي وجدت -في حياتها القصيرة- أنها شديدة التأثير: من الرائع أن يشعر المرء أنه يوجد من يمكنه أن يعتمد عليه حقاً.

* * *

الفصل السابع عشر
الآنسة بيرسهاوس

عادت إيميلي لتجد في انتظارها البيض واللحم وريتشارد.

كانت السيدة كيرتيس ما زالت تشتعل انفعالاً لهروب المجرم. قالت: لقد مضى عامان على هروب آخر واحد، وقد قضوا ثلاثة أيام قبل أن يمسكوا به، وقد وجدوه قرب مورتن هامبستيد.

سألها تشارلز: أتظنينه سيأتي إلى هذه المنطقة؟

اعترضت الخبرة المحلية على هذا الاحتمال: إنهم لا يأتون أبداً من هنا، فكل المنطقة سهل مكشوف، ولا توجد إلاّ قرى صغيرة عندما يخرج المرء من السهل. الأرجح أن يتجه نحو بلايموث، ولكنهم سيمسكون به قبل ذلك.

قالت إيميلي: بوسعك أن تجدي مخبأ جيداً بين تلك الصخور على الجانب الآخر من الهضبة.

– أنت على حق يا آنسة، ويوجد مخبأ بالفعل في تلك المنطقة، يسمونه كهف بيكسي، له فتحة ضيقة جداً، ولكنه يتسع من الداخل. يقولون إن أحد رجال الملك تشارلز قد اختبأ هناك لأسبوعين، وكانت خادمة من مزرعة قريبة تأتيه بالطعام.

قال تشارلز: يجب أن أرى كهف بيكسي هذا.

– سوف تندهش لصعوبة العثور عليه يا سيدي. الكثير من المتنزهين في الصيف يبحثون عنه طوال ساعات ولا يجدونه، ولكن إذا وجدتَه فاحرص على أن تترك فيه دبوساً لجلب الحظ.

وعندما انتهى الإفطار وخرج تشارلز وإيميلي ليمشيا قليلاً في الحديقة الصغيرة في الخارج قال تشارلز: أتساءل إن كان عليّ الذهاب إلى برنستاون؟ مدهش كيف تتراكم الأمور عندما يحالف المرءَ قليلٌ من الحظ. فها أنذا... بدأت بجائزة مسابقة بسيطة، وسرعان ما وجدتُ نفسي أمام سجين هارب وقاتل. أمر رائع!

– ماذا عن مسألة تصوير بيت الميجر بيرنابي؟

رفع تشارلز بصره إلى السماء وقال: همهم، أظنني سأقول إن الطقس لا يساعد. يجب عليّ أن أبقى ممسكاً بعذرِ وجودي هنا في سيتافورد لأطول فترة ممكنة، وأرى أن الضباب قد بدأ ينتشر. أرجو ألاّ يكون لديك مانع، ولكنني أبرقتُ لتوي بمقابلة معك إلى الصحيفة.

أجابت إيميلي بطريقة آلية: آه! لا بأس بذلك. ما الذي جعلتني أقوله؟

– الأشياء المعتادة التي يحب الناس سماعها: موفدنا الخاص يسجل مقابلة مع الآنسة إيميلي تريغوسيس، خطيبة السيد جيمس بيرسن الذي اعتقلته الشرطة واتهمته بقتل الكابتن تريفيليان... ثم وضعتُ انطباعاتي عنك كفتاة جميلة وذات معنويات عالية.

– شكراً لك.

– وقصيرة الشعر.

– ماذا قلت؟

– قلت إنك قصيرة الشعر.

– أنا هكذا بالطبع، ولكن لماذ تذكر ذلك؟

– إن القارئات يحببن دوماً معرفة هذه الأمور. كانت مقابلة رائعة! لا تتخيلين الأمور النسائية المؤثرة التي قلتِها حول الوقوف إلى جانب رجلك حتى وإن كان العالم كله ضده.

قالت إيميلي وهي تتقبض قليلاً: هل قلتُ ذلك حقاً؟

سألها تشارلز بلهفة: هل تمانعين في ذلك؟

– آه! لا، أبداً.

– وقد وضعتُ فقرة جيدة حول مهنة الكابتن تريفيليان البحرية، وأدرجت تلميحاً بسيطاً إلى احتمال وجود تماثيل لآلهة أجنبية أخذها، وإمكانية انتقام رجل دين غريب... مجرد تلميح عابر.

– حسناً، يبدو أنك قد أديت عمل يومك؟

– ماذا كنتِ أنت تفعلين؟ لقد صحوتِ في وقت مبكر جداً.

وصفت له إيميلي لقاءها بالسيد رايكروفت. ثم توقفت فجأة، والتفت إندربي ونظر حيث تنظر، فرأى شاباً أحمر الوجه ظاهر الصحة يتكئ على البوابة ويُصدر عدة أصوات اعتذارية ليجذب الانتباه لنفسه. قال الشاب: أنا آسف جداً لتدخلي وفضولي. أعني أن موقفي محرج جداً، ولكن خالتي أرسلتني.

– آه؟

صدرت تلك الآهة عن إيميلي وتشارلز معاً، إذ لم يزدهم التفسير فهماً للموقف.

قال الشاب: نعم، فالحقيقة أن خالتي طاغية، وما تقوله ينبغي أن يُنفَّذ، إن كنتما تفهمان قصدي. إنني أرى طبعاً أن المجيء في وقت كهذا أمر سيء جداً، ولكن لو عرفتما خالتي... ولو فعلتما ما تريده فستعرفانها خلال دقائق معدودة.

قاطعته إيميلي قائلة: هل خالتك هي الآنسة بيرسهاوس؟

قال الشاب وقد بكثير من الارتياح: هذا صحيح، أوتعرفين إذن كل شيء عنها؟ أحسب أن السيدة كيرتيس كانت تتكلم. إن لها لساناً نشيطاً، أليس كذلك؟ مع أنها ليست من النوع السيء. حسناً، لقد قالت خالتي إنها تريد رؤيتكما، وطلبت مني أن آتي وأخبركما بذلك...

أن أنقل لكما تحياتها وغير ذلك، وأسألكما إن كان في الإمر إزعاج كبير لكما؛ فهي مقعدة ولا تستطيع الخروج، وسيكون مجيئكما لطفاً كبيراً منكما... أنتما تعرفان مثل هذه الديباجات. لا حاجة بي لترديدها كلها. وبالطبع فإن الأمر مجرد فضول حقاً، وإن قلتما إن لديكما صداعاً أو رسائل عليكما كتابتها لما كان في ذلك بأس، ولما احتجتما لهذا العناء.

قالت إيميلي: ولكنني أود ذلك العناء؛ سآتي معك فوراً. إن على السيد إندربي أن يذهب لرؤية الميجر بيرنابي.

قال تشارلز بصوت منخفض: هل عليّ حقاً ذلك؟

أجابته إيميلي بحزم: "نعم". ثم صرفته بإيماءة من رأسها وانضمّت إلى صديقها الجديد في الطريق وقالت: أظنك السيد غارفيلد.

- صحيح، كان يجب أن أخبرك.

- حسناً، لم يكن تخمين ذلك مسألة صعبة.

- رائع منكِ أن تأتي بهذا الشكل. لقد كان من شأن الكثير من الفتيات أن يشعرنَ بإساءة بالغة، ولكنك تعرفين طبيعة العجائز.

- أنت لا تعيش هنا، أليس كذلك يا سيد غارفيلد؟

قال السيد غارفيلد بحماسة: لا أعيش هنا بالتأكيد. هل رأيت في حياتك منطقة أكثر انقطاعاً عن العالم من هذه؟ حتى لا توجد هنا سينما يذهب إليها المرء. حسناً، ها قد وصلنا.

فتح بوابة فعبرتها إيميلي وقطعت الممشى المؤدي إلى بيت صغير لا يختلف عن بقية البيوت في شيء. وفي غرفة المعيشة المطلة على الحديقة كانت أريكة، وعليها تمددت امرأة عجوز ذات وجه نحيل ملأته التجاعيد وأنف من أكثر الأنوف التي رأتها إيميلي حدةً وفضولاً.

رفعت نفسها بشيء من الصعوبة معتمدة على أحد مرفقيها وقالت: فقد جئتَ بها إذن. إنه لطف كبيرٌ منكِ يا عزيزتي أن تأتي لرؤية امرأة عجوز، ولكنك تعرفين كيف تكون الأمور عندما يكون المرء مقعداً؛ إذ ينبغي أن تكون لك يدٌ في كل طبخة تحري، وإلّم تكوني قادرة على الذهاب إلى الطبخة، فلا بد -حينها- من أن تأتي الطبخة إليك. ولا حاجة لأن تحسبي أن الأمر كله فضول... فهو أبعد من ذلك. رونالد، اذهب وقم بطلاء أثاث الحديقة. عند نهاية الحديقة كرسيان من القصب ومقعد خشبي، وستجد الطلاء هناك جاهزاً.

انسحب ابن الأخت المطيع قائلاً: حسناً يا خالة كارولين.

قالت الآنسة بيرسهاوس: تفضلي اجلسي.

جلست إيميلي على الكرسي الذي أشارت مضيفتها إليه. ولعل من الغريب القول إنها أحست فوراً بحب وتعاطف أكيدين لهذه المرأة العجوز المقعدة ذات اللسان الحاد بعض الشيء، بل شعرت في الحقيقة بنوع من القرابة معها. فكرت إيميلي قائلة لنفسها: ها هي امرأة تدخل مباشرة في موضوعها، وتحرص على أن تكون لها الكلمة الأولى وتسيطر على كل من يمكنها السيطرة عليه. مثلي تماماً، باستثناء أنني قُدِّر لي أن

أكون جميلة بعض الشيء، بينما تضطر هي للقيام بذلك معتمدةً على قوة شخصيتها فقط.

– لقد فهمتُ أنك الفتاة المخطوبة لابن أخت تريفيليان. وقد سمعتُ كل شيء عنك، أما وقد رأيتك الآن فإنني أفهم تماماً ما الذي تسعين من أجله، وأنا أتمنى لك حظاً سعيداً.

– شكراً لك.

– إنني أكره المرأة العاطفية الرخوة، وأحب المرأة التي تنهض وتفعل شيئاً.

ثم نظرت إلى إيميلي بحدة وقالت: أحسبك تشفقين علي... وأنا أتمدد هنا غير قادرة على النهوض والمشي؟

قالت إيميلي وهي تتأمل: لا، لا أظنني أشعر بذلك. أحسب أن بوسع المرء –إذا ما توفر له التصميم– أن يجد في الحياة متعة على الدوام، فإن لم تستطيعي الحصول عليها بطريقة ما يمكنك الحصول عليها بطريقة أخرى.

– هذا صحيح تماماً. يترتب عليك أن تنظري إلى الحياة من زاوية مختلفة، هذا كل ما في الأمر.

تمتمت إيميلي: زاوية الهجوم.

– ما هذا الذي قلته؟

وبقدر ما أمكنها من وضوح قامت إيميلي باستعراض النظرية التي

طورتها في ذلك الصباح، وما قامت به من تطبيق لها على القضية موضوع البحث.

قالت الآنسة بيرسهاوس وهي تومىء برأسها: لا بأس بذلك. والآن يا عزيزتي... إلى العمل. وبما أنني لست مغفلة بالولادة، فإنني أحسب أنك قد جئتِ إلى هذه القرية لاكتشاف ما يمكنك اكتشافه عن الناس هنا، ولتريْ إن كان لما تكتشفينه أية علاقة بجريمة القتل. وإذا ما كان لديك شيء تريدين معرفته عن الناس هنا، فإن بوسعي أن أخبرك به.

لم تضيع إيميلي وقتاً، فقد دخلت في الموضوع باختصار وبأسلوب عملي فقالت: الميجر بيرنابي؟

– صورة نموذجية لضابط الجيش المتقاعد: ضيق الأفق، محدود الرؤية، ذو مزاج حسود، ساذج في المسائل المالية، من تلك النوعية التي لا تتردد في الاستثمار في أفشل المشاريع لأنه لا يستطيع أن يرى أبعد من أنفه، وهو يحب أن يفي بديونه مباشرة ويكره الناس الذين لا يمسحون أحذيتهم على الممسحة أمام باب المنزل.

– السيد رايكروفت؟

– رجل ضئيلٌ غريب، متضخم الأنا، مهووس بنظرياته، يحب أن يرى في نفسه رجلاً رائعاً، وأحسب أنه عرض أن يساعدك في حل القضية بالشكل الصحيح بسبب معرفته الرائعة بعلم الجرائم.

اعترفت إيميلي بأن هذا ما حصل فعلاً. ثم سألت: السيد ديوك؟

– لا أعرف شيئاً عن هذا الرجل... ولكن يجب أن أعرف. إنه من النوع العادي جداً. يجب أن أعرف... ومع ذلك فإنني لا أعرف. أمر غريب! إنه أمر أشبه بوجود اسم على طرف لسانك ومع ذلك لا تستطيعين أبداً تذكره.

– والمرأتان ويليت؟

– آه! ويليت!

رفعت الآنسة بيرسهاوس نفسها معتمدة على مرفقها ثانية بشيء من الانفعال وقالت: ما شأن هاتين المرأتين فعلاً؟ سأخبرك شيئاً عنهما يا عزيزتي؛ فربما كان مفيداً لك، وربما لم يكن كذلك. اذهبي إلى طاولة كتابتي تلك وافتحي الدرج العلوي الصغير... إلى اليسار... نعم، هذا. أعطني المغلف الأبيض هناك.

أحضرت إيميلي المغلف كما قيل لها. وقالت العجوز: أنا لا أزعم أنه مهم، بل ربما لا يكون مهماً؛ فالجميع يكذبون بطريقة أو بأخرى، وللسيدة ويليت الحق الكامل في الكذب شأنها في ذلك شأن الجميع.

أخذت المغلف وأدخلت يدها فيه قائلة: سأخبرك كل شيء عن هذا الأمر. عندما وصلت السيدة ويليت وابنتها إلى هنا، بملابسهما الأنيقة وخادماتهما والصناديق الحديثة لثيابهما، جاءت السيدة ويليت وفايوليت في سيارة الفورد، وجاءت الخادمات وصناديق الثياب في حافلة المحطة. وبما أن وصولهما كان حدثاً بارزاً فقد كان من الطبيعي أنني كنت أنظر من النافذة وهم يعبرون، وقد رأيت ملصقاً ملوناً ينزعه

الهواء عن أحد الصناديق فيسبح في الهواء ويقع على حافة إحدى المساكب في حديقتي. وإن كان يوجد ما أكرهه أكثر من أي شيء آخر فهو رؤية نفايات أوراق أو وسخ من أي نوع، ولذلك أرسلتُ رونالد للخارج ليأخذ الملصق عن الأرض، وقد كنتُ على وشك رميه في سلة المهملات عندما لفت انتباهي أنه ملصق ملون بألوان زاهية جميلة، وأن من الأفضل أن أحتفظ به من أجل دفاتر الملصقات تلك التي أصنعها لمستشفى الأطفال. ولم يكن من شأني أن أفكر فيه أكثر من ذلك لولا أن السيدة ويليت قد تعمدت أن تذكر في مناسبتين أو ثلاث أن فايوليت لم تخرج أبداً من جنوب أفريقيا من قبل، وأنها –هي نفسها– لم تسافر أبداً إلاّ إلى جنوب أفريقيا وإنكلترا والريفييرا.

– نعم؟

– حسناً. والآن... انظري لهذا.

أعطت الآنسة بيرسهاوس لإيميلي ملصق أمتعة، وقد كُتب عليه: «فندق مندل، ميلبورن».

قالت الآنسة بيرسهاوس: إن أستراليا ليست جنوب أفريقيا... أو أنها لم تكن كذلك أيام شبابي. وأظن أن ذلك ليس بالأمر الهام، ولكن ها هو مهما كانت قيمته. وسوف أخبرك شيئاً آخر: لقد سمعتُ السيدة ويليت تستخدم في مناداة ابنتها مفردة «كووي»، وهي مفردة أسترالية وليست من جنوب أفريقيا. إن ما أقوله هو أن هذا الأمر غريب. فلماذا لا يرغب المرء بالاعتراف بقدومه من أستراليا إن كان قد جاء منها؟

- هذا غريب بالتأكيد. وغريب أيضاً أن تأتيا للعيش هنا في فصل الشتاء كما حصل.

- هذا ما يلفت النظر فوراً. هل قابلتِهما بعد؟

- كلا، لقد فكرتُ في الذهاب إليهما صباح اليوم، إلاّ أنني لم أعرف ما الذي يمكن لي قوله.

قالت الآنسة بيرسهاوس بسرعة: سأزوّدكِ بمبرر لذلك. أحضري لي قلم الحبر وبعض الورق ومغلفاً. نعم، من هناك. والآن، دعيني أفكر...

توقفت تفكر ثم صاحت دون سابق إنذار صيحة كريهة عالية: رونالد، رونالد، رونالد! هل الفتى أصم؟ لماذا لا يأتي عندما أناديه؟ رونالد! رونالد!

وصل رونالد بخطى سريعة وفرشاة الطلاء بيده وقال: ما الأمر يا خالة كارولين؟

- وماذا يمكن أن يكون؟ لقد كنتُ أناديك، هذا كل ما في الأمر. هل تناولت أي نوع من الكعك مع الشاي عندما كنتَ عند السيدة ويليت مساء أمس؟

- كعك؟

- كعك، شطائر... أي شيء. يا لك من بطيء يا فتى! ماذا تناولت مع الشاي؟

قال رونالد وقد أخذته الحيرة كل مأخذ: قُدِّم لنا كعك بطعم القهوة، وبعض شطائر اللحم.

قالت الانسة بيرسهاوس: كعك بطعم القهوة. هذا يكفي.

ثم بدأت تكتب بسرعة وهي تقول: يمكنك العودة إلى طلائك يا رونالد. لا تبقَ متسمراً هكذا، ولا تقف هناك فاغراً فمك. لقد استأصلوا لك الجيوب الأنفية وأنت ابن سبع سنين، ولذلك ما من سبب لفتح فمك هكذا.

ثم راحت تكتب:

عزيزتي السيدة ويليت،

لقد سمعتُ أنكم قدمتم مع الشاي بالأمس نوعاً لذيذاً جداً من الكعك بطعم القهوة. هل لك أن تتلطفي وتعطيني وصفة لطريقة تحضير هذا الكعك؟ أعلم أنك لن تمانعي من طلبي هذا؛ فليس لدى مُقعدة مثلي من تنوع في تسلياتها إلاّ في طعامها. وقد تلطفت الآنسة تريفوسيس ووعدت بأن تُحضر لي تلك الوصفة لأن رونالد مشغول صباح اليوم. أليس هذا الخبر عن هروب السجين فظيعاً؟

المخلصة جداً: كارولين بيرسهاوس

وضعت الرسالة في مغلف، وألصقته وكتبت عليه اسم المرسل إليها، ثم قالت: هاك أيتها الشابة. ربما وجدت مدخل البيت مكتظاً

بالصحفيين؛ فقد عبر العديد منهم في الطريق بسيارة الفورد. لقد رأيتهم، ولكن اطلبي السيدة ويليت وقولي إنك أحضرت لها رسالة مني وستدخلين. ولا حاجة لأن أوصيك بفتح عينيك جيداً واستغلال الزيارة إلى أبعد ما تستطيعين، فسوف تفعلين ذلك في كل حال.

قالت إيميلي: أنت لطيفة... لطيفة حقاً.

- إنني أساعد أولئك الذين يستطيعون مساعدة أنفسهم. وبالمناسبة، أنت لم تسأليني بعد عن رأيي برونالد، وأحسب أنه مُدرج على قائمة أهل القرية لديك. إنه فتى طيب بطريقته الخاصة، ولكنه ضعيف إلى حدٍ يثير الشفقة. يؤسفني القول إنه يكاد يكون مستعداً لفعل أي شيء من أجل المال. انظري إلى ما يتحمله مني! وليس له من العقل ما يجعله يدرك أن من شأني أن أحبه عشرة أضعاف ما أحبه لو أنه وقف وواجهني بين فترة وأخرى وصاح بي أن أذهب إلى الجحيم! الشخص الوحيد المتبقي في القرية هو الكابتن وايَت. أظنه يدخن الأفيون... وهو أسوأ أهل إنكلترا طباعاً! هل من شيء آخر تودين معرفته؟

- لا أظن ذلك؛ إن ما أخبرتِني به يبدو شاملاً تماماً.

* * *

الفصل الثامن عشر
إيميلي تزور منزل سيتافورد

لاحظت إيميلي مرة أخرى وهي تمشي في الطريق بسرعة كيف تتغير طبيعة هذا الصباح؛ فقد كان الضباب يلف المكان، وفكرت مع نفسها قائلة: يا له من مكان فظيع للسكنى في إنكلترا! فما لم يكن الجو مُثلجاً أو ماطراً أو عاصفاً، تكون الدنيا في حالة ضباب كثيف. وإذا ما طلعت الشمس بالفعل يكون الجو بارداً بحيث لا يكاد المرء يشعر بأطراف أصابعه.

قاطع تأملاتها هذه صوتٌ أجش يتكلم قريباً من أذنها اليمنى. قال الصوت: اعذريني، ولكن هل حدث ورأيتِ في طريقك كلبة من نوع تيرير؟

جفلت إيميلي والتفتت، فرأت رجلاً طويلاً نحيلاً ذا بشرة سمراء تماماً وشعر أشيب يتكئ على بوابة بيت. وكان يُسند أحد جانبيه إلى عكاز، وينظر إلى إيميلي باهتمام شديد. ولم تجد صعوبة في التعرف إليه باعتباره الكابتن وايَت، المالك المُقعد للبيت رقم ٣.

قالت له: لا، لم أرها.

- إنها مخلوقة رائعة، ولكنها مغفلة تماماً، إذ خرجت بوجود كل هذه السيارات...

- لا أحسب أن الكثير من السيارات تقطع هذا الطريق.

قال الكابتن وايت بتجهم: بل تأتي العربات في الصيف. إنها رحلة الست بنسات الصباحية التي تأتي من إيكزامبتن. تصعد هضبة سيتافورد، وتقف في منتصف الطريق ليتناول الركاب شيئاً من المرطبات.

- نعم، ولكن هذا ليس وقت الصيف.

- ومع ذلك فقد جاءت عربة قبل قليل. أحسبهم صحفيين يريدون إلقاء نظرة على منزل سيتافورد.

- هل كنتَ تعرف الكابتن تريفيليان جيداً؟

كانت ترى أن حادثة الكلبة التي خرجت لا تعدو أن تكون كذبة من الكابتن وايت أملاها عليه فضوله الطبيعي. كانت تدرك تماماً بأنها الموضوع الرئيس الذي يثير الانتباه في سيتافورد في الوقت الحاضر، وكان من الطبيعي أن يرغب الكابتن وايت بإلقاء نظرة عليها شأنه في ذلك شأن الجميع.

أجابها قائلاً: لا أدري إن كنتُ أعرفه معرفة جيدة. لقد باعني هذا البيت.

قالت إيميلي تشجعه: نعم.

- كان رجلاً جشعاً. كانت الترتيبات تقضي بأن يقوم بإعداد البيت بما يلائم ذوق المشتري، ولمجرد أنني طليتُ واقيات النوافذ البنية بلون أصفر عند أطرافها، بقصد إبراز لونها أراد مني أن أدفع مقابل ذلك، وقال إن الشروط كانت تقضي بوجود لون موحد للبيوت كلها.

- أنت لم تكن تحبه.

قال: "كنتُ أتشاجر معه على الدوام". ثم قال مستدركاً: ولكنني أتشاجر دوماً مع الجميع، ففي مكان كهذا على المرء أن يعلم الناس كيف يتركونه وشأنه. دائماً يقرعون الباب ويأتون للزيارة ويثرثرون. أنا لا أمانع في رؤية الناس عندما يروق لي ذلك... ولكن يجب أن يكون هذا عندما يروق لي أنا، وليس عندما يروق لهم هم. لا فائدة من إقدام تريفيليان على التعامل معي بنفسية الإقطاعي الذي يشرف على أحوال رعاياه، وزيارتي كلما راق له ذلك.

ثم أضاف بشيء من الرضا: لا أحد في القرية يتقرب مني الآن.

- آه!

قال: "هذه هي فائدة الاحتفاظ بخادم من أهل المستعمرات؛ فهم يفهمون الأوامر". ثم صاح مزمجراً: عبدول!

جاء هندي طويل القامة من البيت ووقف قربه بكل انتباه. قال الكابتن: ادخلي وتناولي شيئاً، وشاهدي بيتي الصغير.

- أنا آسفة، ولكن عليَّ أن أسرع.

– آه، لا، ليس هذا ضرورياً.

– بل ضروري؛ فلديّ موعد.

قال الكابتن: لا أحد يفهم فنّ العيش في أيامنا هذه. اللحاق بالقطارات، والاحتفاظ بمواعيد، وتحديد وقت لكل شيء... هذا كله هراء. إنني أقول: انهضي مع شروق الشمس، وتناولي وجباتك عندما تشعرين بالرغبة في ذلك، ولا تربطي نفسك بأي وقت أو موعد. إن بوسعي أن أُعلّم الناس كيفية العيش لو أنهم أصغوا إلي.

فكرت إيميلي بأن نتائج هذه الطريقة السامية في العيش لم تكن مُشجعة جداً. فقد كان الكابتن وايت أشبه بحطام رجل من أي شخص رأته من قبل. ولكنها –وقد شعرت أن فضوله قد أُشبع بما يكفي مؤقتاً– أصرت مرة أخرى على موعدها ومضت في طريقها.

* * *

كان لمنزل سيتافورد باب أمامي قوي من خشب البلوط، وجرس لطيف، وممسحة ضخمة أمامه لمسح الأرجل، وفيه فتحة نحاسية مُلمّعة لصندوق الرسائل.

فتحت لها الباب خادمة مرتبة تقليدية، وقد استنتجت إيميلي أن داء الصحفيين كان قد سبقها إلى البيت؛ إذ سارعت الخادمة فوراً للقول بنبرة رتيبة: "السيدة ويليت لن ترى أحداً هذا الصباح".

قالت إيميلي: لقد أحضرتُ رسالة من الآنسة بيرسهاوس.

ومن الواضح أن ذلك قد غير مجرى الأمور؛ فقد أبدى وجه

الخادمة شيئاً من التردد، ثم غيرت موقفها وقالت: هل لك أن تدخلي من فضلك.

أدخلت إيميلي إلى ما يسميه دلالو العقارات: «صالة مفروشة بأحسن فرش»، ومن هناك إلى غرفة جلوس ضخمة. كانت النار تشتعل مُتقدة في الموقد، وفي الغرفة لمسات نسائية؛ بعض الأزهار في كأس من الماء، وسلة جميلة فيها أدوات حياكة، وقبعة فتاة، ودمية ببغاء ذي ساقين طويلتين جداً. وقد لاحظت عدم وجود صور في الغرفة.

وبعد أن استوعبت إيميلي جميع ما في الغرفة أخذت تدفئ راحتيها أمام الموقد فيما انفتح الباب ودخلت فتاة في مثل عمرها. لاحظت إيميلي أنها فتاة جميلة جداً، ترتدي ثياباً أنيقة ثمينة، كما فكرت بأنها لم ترَ أبداً من قبل فتاة لديها مثل هذه الخشية والترقب العصبي، رغم أن ذلك لم يكن ظاهراً على السطح، فقد كانت الآنسة ويليت تتظاهر بإطلالة طبيعية لفتاة في كامل راحتها.

قالت وهي تتقدم وتصافح ضيفتها: صباح الخير. آسفة جداً لعدم نزول أمي، ولكنها تقضي صباحها في الفراش.

– آه، أنا آسفة. أخشى أن أكون قد جئتُ في وقت غير مناسب.

– لا، أبداً. إن الطباخة تكتب الآن وصفة ذلك النوع من الكعك. يسرنا كثيراً أن نخدم الآنسة بيرسهاوس. هل تقيمين معها؟

فكرت إيميلي بابتسامة داخلية بأن هذا البيت ربما كان البيت الوحيد في سيتافورد الذي لا يعلم ساكنوه تماماً من هي وما هو سبب

وجودها هنا. إن لمنزل سيتافورد نظاماً محدداً للمستخدمين والمستخدَمين. وربما كان المستخدَمون يعرفون بشأنها... أما المستخدمات فمن الواضح أنهن لا يعرفن. قالت: لا أقيم معها بالضبط. الحقيقة أنني أقيم لدى السيدة كيرتيس.

– إن بيت الآنسة بيرسهاوس صغير جداً بالطبع، ولديها ابن أختها رونالد معها، أليس كذلك؟ لا أحسب أن يكون عندها متسع لك أيضاً. إنها امرأة رائعة، أليس كذلك؟ دائماً كنتُ أرى أن لها شخصية قوية، ولكنني أخاف منها بعض الشيء بالفعل.

وافقتها إيميلي بمرح قائلة: إنها متنمرة، أليس كذلك؟ ولكن إغراء التنمر على الآخرين كبير جداً لدى الإنسان، خاصة إن كان الناس لا يواجهونك.

تنهدت الآنسة ويليت وقالت: أتمنى لو أستطيع مواجهة الناس. لقد مرّ علينا صباح مزعج اليوم، أفسده الصحفيون تماماً.

– آه، بالطبع، فهذا حقاً هو منزل الكابتن تريفيليان، أليس كذلك؟... الرجل الذي قُتل في إيكزامبتن.

كانت تحاول أن تحدد السبب الدقيق لارتباك فايوليت ويليت، فقد بدا واضحاً أن الفتاة مستعجلة. كان شيء يخيفها... ويخيفها كثيراً. وقد ذكرت إيميلي اسم الكابتن تريفيليان بشكل مباشر عن قصد. ولم تُبدِ الفتاة أي رد فعل ملحوظ على ذلك بأي شكل، ولكن ربما كانت تتوقع مثل هذه الإشارة أصلاً.

أجابت فايوليت: نعم، ألم يكن ذلك فظيعاً؟

– أخبريني عنه... هذا إلّم يكن لديك مانع في الحديث؟

– لا، لا، أبداً... لماذا أمانع؟

فكرت إيميلي قائلة لنفسها: "لدى هذه الفتاة شيء ما غير طبيعي أبداً. إنها لا تكاد تعرف ما تقول. ما الذي جعلها تخاف هذا الصباح بالتحديد؟". ولكنها مضت قائلة: أعني حول مسألة تحضير الأرواح تلك. لقد سمعت عنها بشكل عرضي، وبدت لي مثيرة جداً... أعني أنها كانت مخيفة جداً.

ثم فكرت ثانية قائلة لنفسها: سألعب دور المهتمة بالإثارة التي تجذب الفتيات.

قالت فايوليت: آه، لقد كانت تلك أمسية رهيبة... لن أنساها أبداً! ظننا طبعاً أن أحدهم يمزح... رغم أنها بدت مزحة قذرة جداً.

– نعم؟

– لن أنسى أبداً عندما أشعلنا المصابيح... بدا الجميع في حالة غريبة جداً، إلاّ السيد ديوك والميجر بيرنابي؛ فهما من النوع القاسي، وما كانا ليعترفا أبداً بتأثرهما بأي شيء من هذا القبيل. ولكن كان بوسع المرء أن يرى أن الميجر بيرنابي كان –في الواقع– مضطرباً جداً من ذلك، وأحسب أنه كان يؤمن بذلك عملياً أكثر من أي شخص آخر. ولكنني رأيتُ أن السيد رايكروفت المسكين الضئيل يوشك أن يصاب بأزمة قلبية أو بشيء من ذلك، رغم أنه معتاد على مثل هذا الأمر بلا شك؛ لأنه يقوم بالكثير من البحوث في مجال الخوارق. أما بالنسبة

لرونالد غارفيلد فقد بدا وكأنه رأى شبحاً... وكأنه رأى شبحاً بالفعل. حتى أمي انزعجت كثيراً... أكثر من أي مرة أخرى رأيتها.

– لا بد أن ذلك كان مخيفاً جداً. ليتني كنتُ حاضرة لأرى.

– كان ذلك مرعباً حقاً. وقد تظاهرنا جميعاً بأن الأمر كان... مجرد تسلية، ولكنه لم يبدُ كذلك. ثم حزم الميجر بيرنابي أمره فجأة على الذهاب إلى إيكزامبتن، وحاولنا جميعاً ثنيه عن ذلك، وقلنا له إنه سيدفن تحت أكوام الثلوج، ولكنه أصر على الذهاب. وجلسنا نحن هناك بعد ذهابه وكلنا يشعر بالخوف والقلق. وبعدها، ليلة أمس... لا، بل صباح أمس وصلَنا النبأ.

قالت إيميلي بصوت كله خشية: أتظنين أنها كانت روح الكابتن تريفيليان؟ أم تظنين أنها كانت تخاطراً عن بُعد؟

– لا أدري. ولكني لن أضحك أبداً أبداً من هذه الأمور ثانية.

دخلت الخادمة حاملة ورقة مطوية على صينية وسلّمتها لفايوليت. ثم انسحبت الخادمة، فيما فتحت فايوليت الورقة وألقت نظرة إليها، ثم أعطتها لإيميلي وقالت: تفضلي. الحقيقة أنك جئت في الوقت المناسب تماماً، فمسألة الجريمة هذه أخافت الخادمات. يحسبن أن من الخطورة العيش في هذه المنطقة النائية، وقد فقدت أمي أعصابها معهن مساء أمس وطلبت منهن جميعاً حزم حقائبهن. إنهن ذاهبات بعد الغداء، وسوف نجلب رجلين بدلاً منهن، أحدهما سيكون خادماً والآخر سائقاً. أظن أن ذلك سيكون ترتيباً أنسب.

– إن الخادمات سخيفات، أليس كذلك؟

– الكابتن تريفيليان لم يُقتل في هذا البيت أصلاً بحيث يخفن.

سألت إيميلي وهي تحاول جعل سؤالها يبدو طبيعياً من فتاة مثلها: ما الذي جعلكما تفكران بالقدوم للعيش هنا؟

– آه، لقد ظننا أن ذلك سيكون ممتعاً.

– ألا تجدان الحياة هنا مملة بعض الشيء؟

قالت فايوليت: "لا؛ فأنا أحب الريف". ولكن عينيها تجنبت عيني إيميلي، وللحظة واحدة فقط بدت مرتابة خائفة.

تململت بقلق في كرسيها فنهضت إيميلي واقفة بشيء من التردد وقالت: يجب أن أذهب الآن. شكراً جزيلاً لك يا آنسة ويليت، وآمل أن تمسي أمك على ما يرام.

– إنها على أحسن حال حقاً. إنها فقط مشكلة الخدم... وكل هذا القلق.

– بالطبع.

وبحنكة، ودون أن تنتبه الفتاة الأخرى، تمكنت إيميلي من تناسي قفازيها على طاولة صغيرة. رافقتها فايوليت ويليت إلى الباب الأمامي وودعا بعضهما ببعض العبارات اللطيفة.

كانت الخادمة التي فتحت الباب لإيميلي قد فتحته بالمفتاح، ولكن عندما أغلقت فايوليت الباب خلفها لم تسمع إيميلي –وهي

تبتعد- صوت المفتاح يُدار في القفل، ولذلك فقد عادت أدراجها ببطء إلى المنزل بعدما وصلت إلى البوابة.

لقد أكدت هذه الزيارة نظرياتها حول منزل سيتافورد أكثر مما توقعت. يوجد شيء غريب يجري هنا. لم ترَ ما يشير إلى تورط مباشر لفايوليت بالأمر، إلاّ إذا كانت ممثلة شديدة الذكاء. ولكن كان هناك شيء غير طبيعي، ولا بد أن يكون لذلك الشيء علاقة بالمأساة. لا بد أن تكون صلة ما بين هاتين المرأتين والكابتن تريفيليان، وفي تلك الصلة يمكن أن يكمن الدليل لحلّ اللغز كله.

جاءت إلى الباب الأمامي، وأدارت مقبضه بكل هدوء وعبرت العتبة. كانت الصالة خالية. توقفت إيميلي غير واثقة من خطوتها التالية. إن لديها عذرها المتمثل بالقفازين اللذين تركتهما قصداً في غرفة الجلوس. توقفت جامدة تصغي، ولكن لم تسمع أي صوت في أي مكان باستثناء همهمة ضعيفة لأصوات آتية من الطابق العلوي. تسللت إيميلي بكل ما استطاعت من هدوء إلى أسفل الدرج ووقفت تنظر إلى الأعلى. ثم قامت -بكل حذر- بالصعود درجة درجة بكل بطء. لقد كان هذا الأمر أكثر خطورة، إذ لا تكاد تستطيع أن تزعم بأن قفازيها قد طارا وحدهما إلى الطابق العلوي. إن بنّائي هذه الأيام لا يصنعون الأبواب محكمة الإغلاق أبداً برأي إيميلي؛ إذ يمكن للمرء أن يسمع همهمة الأصوات وهو هنا في الأسفل، ولذلك إذا ما وصل المرء إلى الباب نفسه فسيسمع بوضوح الحديث الذي يجري داخل الغرفة. درجة أخرى... وثانية أيضاً... صوت امرأتين... فايوليت وأمها دون شك.

وفجأة حدث توقف في الحديث... وصوت خطوات. عادت إيميلي أدراجها بسرعة. وعندما فتحت فايوليت باب غرفة أمها ونزلت الدرج فوجئت بوجود زائرتها السابقة واقفة في الصالة تنظر حولها مثل كلب ضلّ طريقه.

قالت تشرح موقفها: إنهما قفازاي. لا بد أني نسيتهما، وقد عدت لآخذهما.

- أظن أنهما هناك.

دخلتا إلى غرفة الجلوس، وهناك بالتأكيد كان قفازا إيميلي على طاولة صغيرة حيث كانت تجلس. قالت: آه، شكراً لك. إنه إهمال شديد مني. أنا أنسى دوماً أشيائي.

- ولا بد لك من قفازات في هذا الطقس؛ فالجو بارد جداً.

ومرة أخرى افترقتا عند باب الصالة، وسمعت إيميلي هذه المرة المفتاح يُدار في القفل من الداخل.

مشت في الممشى المؤدي إلى البوابة وفي رأسها الكثير مما تفكر فيه، ذلك أنها سمعت بوضوح - عندما انفتح ذلك الباب عند استراحة الدرج العليا- جملة واحدة قيلت بصوت المرأة الكبرى المتذمر الشاكي. فقد ناح ذلك الصوت قائلاً: يا إلهي! لا أستطيع تحمل ذلك. ألن تأتي هذه الليلة أبداً؟

* * *

الفصل التاسع عشر

نظريّات

وصلت إيميلي إلى البيت لتجد صديقها غائباً، وشرحت لها السيدة كيرتيس بأنه قد ذهب مع العديد من الشبان الآخرين، وقالت لها إن برقيتين قد جاءتاها. أخذتهما إيميلي وفتحتهما، ثم وضعتهما في جيب سترتها والسيدة كيرتيس تنظر إليهما أثناء ذلك، إلى أن قالت: أرجو ألاّ تكون أنباء سيئة.

- آه، لا.

- إن البرقيات تخيفني دائماً.

- أعرف، أمر مزعج جداً.

شعرت حينها أنها لا تميل إلاّ إلى الوحدة؛ فقد أرادت ترتيب أفكارها الخاصة. صعدت إلى غرفتها فأخذت قلماً وأوراقاً وجلست تعمل وفق نظام خاص بها، وبعد عشرين دقيقة من هذا العمل جاء السيد إندربي ليقطع عليها عملها قائلاً: مرحى، مرحى، ها أنت هنا. لقد

كانت الصحافة البريطانية كلها تسعى خلفك طوال الصباح، ولكنهم لم يعثروا لك على أثر في أي مكان. وقد أخبرتهم -على أي حال- أنك لا تريدين لأحد أن يزعجك. ففيما يخص شؤونك أنت، أنا أصبحتُ المسؤول.

ثم جلس على الكرسي وقال: بلا حسد أو ضغينة! كنت أنا من يوزع عليهم المعلومات؛ فأنا أعرف الجميع وداخل في صميم الأمر. إنها حال أروع من أن تُصدّق. إنني أقرص نفسي طوال الوقت خشية أن أكون في حلم وأخشى أن أصحو في أية لحظة. هل لاحظتِ كل هذا الضباب؟

- لن يمنعني الضباب من الذهاب إلى إيكزيتر بعد الظهر، أليس كذلك؟

- أتريدين الذهاب إلى إيكزيتر؟

- نعم. عليّ أن أقابل السيد داكرز هناك. إنه محاميّ... الذي يتولى الدفاع عن جيمس؛ وهو يريد رؤيتي. وأظنني سأزور خالة جيمس جينيفر طالما أنا هناك. إن إيكزيتر لا تبعد عن إيكزامبتن إلاّ نصف ساعة في نهاية الأمر.

- أتعنين أنها ربما كانت قد استقلت القطار وضربت أخاها على رأسه ثم عادت دون أن يلحظ غيابها أحد؟

- أعرف أن ذلك يبدو غير محتمل بعض الشيء، ولكن على المرء أن يدقق في كل شيء. وهذا لا يعني أنني أريد أن تكون الخالة

جنيفر هي القاتلة، بل أنا لا أريد ذلك، وأفضل كثيراً لو كان القاتل هو مارتن ديرنغ. إنني أكره صنف الرجال الذين يستغلون وضعهم كأصهار ويقومون بأشياء في العلن لا تستطيع معها أن تصفع وجوههم.

- أهو من ذلك النوع؟

- من ذلك النوع تماماً. إنه شخص مثالي يصلح ليكون قاتلاً... تصله دوماً برقيات من وكلاء السباقات، ويخسر أمواله على الخيل. إنه لمن المزعج أن يكون لديه دليل غياب عن مكان الجريمة. لقد أخبرني السيد داكرز عن ذلك. ويبدو اللقاء مع أحد الناشرين ثم تناول عشاء أدبي دليلاً محترماً لا يمكن دحضه.

- عشاء أدبي؟ ليلة الجمعة؟ مارتن ديرنغ... دعيني أتذكر. مارتن ديرنغ... آه، نعم، أكاد أكون واثقاً من ذلك. تباً، بل أنا واثق تماماً منه، ولكنني أستطيع التأكد من الأمور بالإبراق لكاروثرز.

- ما الذي تتحدث عنه؟

- اسمعي. أنت تعلمين أنني جئتُ إلى إيكزامبتن مساء الجمعة، وقد كنت بحاجة لمعلومة كنتُ سآخذها من صديق لي، وهو صحفي آخر اسمه كاروثرز. كان سيأتي لرؤيتي في حوالي الساعة السادسة والنصف إذا استطاع ذلك... قبل أن يذهب لحضور عشاء أدبي ما. فكاروثرز هذا شخصية كبيرة، وإن لم يستطع القدوم لرؤيتي فإنه سيرسل لي رسالة إلى إيكزامبتن. ولكنه لم يستطع الحضور، وأرسل لي رسالة.

- وما علاقة هذا كله بالأمر؟

- لا تتعجلي هكذا، فسأصل إلى المغزى من ذلك. كان الرجل منفعلاً بعض الشيء عندما كتب الرسالة، ويبدو أنه استفاد من العشاء. فبعد أن أعطاني المعلومة التي كنتُ أريدها مضى ليشرح لي بإسهاب ما حصل في العشاء؛ حول الخُطب التي أُلقيت، وكيف كان الروائي الفلاني الشهير والمسرحي الفلاني المعروف مجرد حمارين. ثم قال إنه قد حظي بأسوأ مكان على مائدة العشاء؛ فقد كان إلى يمينه كرسي فارغ يُفترض أنه للكاتبة روبي ماكالموت، تلك المرأة الفظيعة التي تحقق قصصها أعلى المبيعات، وإلى يساره كرسي فارغ آخر كان يُفترض أنه للكاتب المتخصص بالقصص الخلاعية مارتن ديرنغ، ولكنه نقل مكانه ليقترب من أحد الشعراء المشهورين تماماً في بلاكهيث، وحاول أن يستغل وجوده أفضل استغلال. والآن، هل فهمت المقصود؟

انفعلت إيميلي حتى كادت تهتز طرباً، وقالت: تشارلز! يا عزيزي! ما أروع ذلك. إذن فإن ذلك الوحش لم يكن في العشاء أبداً؟

- بالضبط.

- أأنت واثق من أنك تذكرت الاسم بشكل صحيح؟

- بالتأكيد. لقد مزقتُ الرسالة مع الأسف، ولكن بوسعي أن أبرق لكاروثرز للتأكد. وإن كنت أعرف تماماً أنني لستُ مخطئاً.

- ما زال لديه -بالطبع- لقاؤه مع الناشر الذي قضى معه فترة العصر، ولكنني أحسبه كان ناشراً سيعود لتوه إلى أمريكا، وإذا كان الأمر كذلك فإنه يبدو أمراً مريباً. أعني أن الأمر يبدو وكأنه قد اختار شخصاً لا يمكن سؤاله دون بذل الكثير من الجهود.

- أتظنين حقاً أننا وقعنا على الحقيقة؟

- يبدو الأمر قريباً من ذلك. أظن أن أفضل شيء نفعله هو... أن نذهب مباشرة إلى ذلك المفتش اللطيف ناراكوت ونخبره بهذه الحقائق الجديدة. أعني أننا لا نستطيع العثور على ناشر أمريكي قد يكون في مكان ما على متن هذه الباخرة أو تلك، فهذا عمل الشرطة.

- يا إلهي؛ إذا ما نجحنا! يا له من سبق صحفي! لو حصل ذلك فلا أظن أن الديلي واير يمكن أن ترقّيني إلى أقل من...

قاطعت إيميلي أحلامه في الترقية بقسوة وقالت: ولكن يجب ألاّ نفقد صوابنا بذلك ونرمي كل ما عداه في الريح. يجب أن أذهب إلى إيكزيتر، ولا أحسب أنني سأستطيع العودة إلى هنا حتى الغد. ولكن لدي مهمة لك.

- ما نوع تلك المهمة؟

وصفت له إيميلي زيارتها إلى منزل سيتافورد والجملة الغريبة التي سمعتها قبل مغادرتها، وقالت: ينبغي أن نكتشف بشكل كامل وأكيد ما الذي سيحدث الليلة. في الأفق شيء ما.

- يا له من أمر غريب!

- أليس كذلك؟ ولكن ربما كان ذلك مصادفة بالطبع. وربما لم يكن كذلك... ولكن لاحِظ أن الخادمات قد تمت إزاحتهن من الطريق. سيحدث شيء غريب هناك الليلة، ويجب أن تكون أنت في مسرح الحدث لترى ما هو.

- أتعنين أن عليّ أن أقضي الليلة كلها مرتعداً تحت شجيرة في الحديقة؟

- لا أحسبك تمانع في ذلك، أليس كذلك؟ فالصحفيون لا يأبهون بما يفعلونه في سبيل قضية جيدة.

- من قال لك ذلك؟

- لا تهتم بمن قال لي، ولكنني أعرفه. ستقوم بذلك، أليس كذلك؟

- أظنني سأفعل. لستُ مستعداً لإضاعة شيء من ذلك. ولئن قُدّر لشيء غريب أن يحدث في منزل سيتافورد الليلة فسأكون أنا مشاركاً فيه.

أخبرته إيميلي -بعد ذلك- عن ملصق الأمتعة، فقال السيد إندربي: هذا غريب. إن أستراليا هي حيث يعيش الابن الثالث من عائلة بيرسن، أليس كذلك؟... الابن الأصغر. دون أن يعني ذلك شيئاً بالضرورة، ولكن مع ذلك... ربما كانت توجد صلة.

- همهم، أظن أن هذا كل ما لدينا. هل لديك ما تخبرني به أنت؟

- حسناً، إن لديّ فكرة.

- ما هي؟

- الأمر الوحيد هو أنني لا أدري إن كانت ستروق لك.

- ماذا تعني بقولك تروق لي؟

- ألن تستشيطي غضباً منها؟

- لا أظن ذلك. أعني أنني أرجو أن أكون قادرة على الإصغاء بتفهم وهدوء لأي شيء.

قال تشارلز إندربي وهو ينظر إليها بارتياب: حسناً، النقطة هي... ولا تظني أنني أقصد الإساءة أو غير ذلك، ولكن هل تظنين أن فتاك هذا يُمكن أن يُعتمَد عليه وعلى تصريحه بالحقيقة التامة؟

- أتعني أنه قد قتل خاله في نهاية الأمر. إنني أرحب تماماً بمناقشة تلك الفكرة إن أحببت. لقد قلتُ لك -في البداية- إن تلك هي وجهة النظر الطبيعية التي تخطر للمرء، ولكنني قلتُ إن علينا أن نعمل بافتراض أنه لم يقتله.

- أنا لا أعني ذلك. إنني معك في افتراض أنه لم يقتل العجوز. ما أعنيه هو التالي: ما مدى صحة روايته الخاصة عن الأحداث؟ لقد قال إنه ذهب إلى هناك، وتبادل بعض الحديث مع العجوز، ثم خرج وتركه حياً بأحسن حال.

- نعم.

- حسناً، لقد خطرت لي الفكرة فقط، ألا تظنين أن من المحتمل أنه ذهب إلى هناك فوجد العجوز ميتاً عملياً؟ أعني أنه ربما خاف وأصابه الرعب فلم يعجبه أن يقول ذلك.

كان تشارلز قد طرح هذه النظرية بشيء من الشك، ولكنه ارتاح

إذ وجد أن إيميلي لم تُظهر علامات الغضب منه بسببها، بل قطبت جبينها وهي تفكر ثم قالت: لن أتظاهر بشيء، إن ذلك ممكن. أنا لم أفكر في ذلك من قبل. إنني أُعرف أنه ليس من شأن جيمس أن يقتل أحداً، ولكن من الممكن تماماً أن يكون قد ارتبك فقال كذبة سخيفة، ثم تعين عليه بعد ذلك أن يُصر عليها بالطبع. نعم، إن ذلك ممكن تماماً.

- إن الأمر الفظيع هو أنه ليس بإمكانك أن تذهبي وتسأليه عن ذلك الآن. أعني أنهم لن يسمحوا لك برؤيته على انفراد، أليس كذلك؟

- يمكنني أن أكلف السيد داكرز به؛ إذ يخيل إليّ أنك تستطيع رؤية محاميك على انفراد. إن أسوأ ما في جيمس أنه عنيد جداً، وإن قال مرةً شيئاً فسيصر عليه.

قال تشارلز متفهماً: ممن يقولون هذه هي قصتي وأنا مُصرٌّ عليها.

- نعم. يسعدني أنك ذكرت لي هذا الاحتمال يا تشارلز، إذ أنه لم يخطر في بالي. لقد كنا نبحث عن شخص أتى بعد جيمس ثم غادر... ولكن ماذا لو كان قد أتى قبله...

سكتت وهي تتأمل. وانتصبت أمامها نظريتان مختلفتان جداً تشيران إلى اتجاهين مختلفين: تلك التي اقترحها السيد رايكروفت والتي كانت فيها مشاجرة جيمس مع خاله هي النقطة الحاسمة المقرّرة، والنظرية الأخرى التي لا تُلقي بالاً لجيمس أبداً. شعرت إيميلي أن أول ما ينبغي عمله هو رؤية الطبيب الذي فحص الجثة أول مرة، فإن كان

ممكناً أن يكون الكابتن تريفيليان قد قُتل في الساعة... الرابعة مثلاً، فربما كان في ذلك فرق كبير فيما يخص دلائل الغياب عن مكان الجريمة وقت وقوعها. والأمر الآخر الذي ينبغي عمله هو حمل السيد داكرز على أن يشرح لموكِّله بكل قوة الضرورة القصوى لقول الحقيقة في هذه النقطة.

نهضت قائلة: حسناً، من الأفضل أن تكتشف لي كيف يمكنني الذهاب إلى إيكزامبتن. أحسب أن لدى الحداد سيارة، هل لك أن تذهب وتتفق معه على الأمر؟ سأنطلق بعد الغداء مباشرة، إذ أن القطار ينطلق في الثالثة وعشر دقائق من إيكزامبتن إلى إيكزيتر، وهذا سيمنحني من الوقت ما أستطيع معه رؤية الطبيب أولاً. كم الساعة الآن؟

قال السيد إندربي وقد نظر إلى ساعته: الثانية عشرة والنصف.

– سنذهب كلانا –إذن– ونرتب أمر السيارة. ولكن بقي أمر واحد أريد عمله قبل مغادرة سيتافورد.

– وما هو؟

– إنا ذاهبة لزيارة السيد ديوك. إنه الشخص الوحيد الذي لم أره في سيتافورد، وقد كان أحد حضور جلسة تحضير الأرواح.

– سنمر أمام بيته في طريقنا إلى محل الحداد.

* * *

كان بيت السيد ديوك آخر البيوت في تلك السلسلة. وفتح تشارلز وإيميلي مزلاج البوابة ومشيا في الممر المؤدي إلى الباب الأمامي. وعند ذلك حدث شيء مُدهش بعض الشيء، فقد فُتح الباب وخرج منه رجل، وكان ذلك الرجل هو المفتش ناراكوت.

وقد بدا مندهشاً هو الآخر، وخُيل لإيميلي أنه بدا مُحرجاً أيضاً. تخلت إيميلي عن هدفها الأصلي وقالت للمفتش: أنا سعيدة جداً إذ لاقيتك أيها المفتش ناراكوت. عندي أمر أو أمران أريد الحديث معك بشأنهما إن أمكن.

قال المفتش: "يسعدني ذلك يا آنسة تريفوسيس". ثم أخرج من جيبه ساعة وقال: أخشى أن يتعين عليكِ أن تكوني سريعة جداً؛ فلدي سيارة تنتظرني، وعلي أن أعود إلى إيكزامبتن على الفور تقريباً.

– يا لحظي الرائع! يمكنك أن تقلني معك، أليس كذلك أيها المفتش؟

قال المفتش بشيء من البرود إنه سيكون سعيداً بذلك.

قالت إيميلي لتشارلز: يمكنك الذهاب وإحضار حقيبتي يا تشارلز، فهي محزومة وجاهزة.

غادر تشارلز فوراً، وقال المفتش: إنها لمفاجأة عظيمة أن أقابلك هنا يا آنسة تريفوسيس.

ذكّرته إيميلي قائلة: لقد قلتُ لك: "إلى اللقاء".

- لم أنتبه لذلك وقتها.

قالت إيميلي بمودة: أنت لم ترَ مني بعدُ إلاّ القليل. ستعلم أيها المفتش أنك ارتكبت غلطة؛ إن جيمس ليس هو الرجل الذي تسعى خلفه.

- حقاً؟!

- وفوق ذلك فإنني أؤمن أنك توافقني على ذلك في قرارة نفسك.

- ما الذي يجعلك ترين ذلك يا آنسة تريفوسيس؟

ردت عليه قائلة: ماذا كنتَ تفعل في بيت السيد ديوك؟

بدا ناراكوت مُحرجاً، وسارعت هي لمتابعة هجومها: إنك مُرتاب أيها المفتش. هذه هي الحقيقة... مُرتاب. لقد ظننتَ أنك وصلت إلى المجرم الذي تريده، وأنت الآن لست واثقاً تماماً من ذلك، ولذلك فإنك تقوم ببعض التحريات. حسناً، إن لديّ ما أخبرك به مما قد يساعدك، وسأخبرك به في طريقنا إلى إيكزامبتن.

سُمع وقع خطوات على الطريق، وظهر رونالد غارفيلد. بدا كتلميذ كثير التغيب، مقطوع الأنفاس شاعراً بالذنب. بدأ يقول: آنسة تريفوسيس، ما رأيك أن نتمشى قليلاً بعد الظهر؟ بينما تقضي خالتي وقت قيلولتها.

- مستحيل؛ فأنا ذاهبة إلى إيكزيتر.

- ماذا، حقاً! أتعنين نهائياً؟

- آه، لا. سأعود غداً.

- هذا رائع.

أخرجت إيميلي من حقيبتها شيئاً وأعطته إياه قائلة: هل لك أن تعطي هذا لخالتك؟ إنها وصفة لصنع الكعك بطعم القهوة، وقل لها إنها طلبتها في الوقت المناسب تماماً، فالطباخة ستغادر اليوم، وكذلك بقية الخدم. تأكد من قول ذلك لها، فستكون مهتمة بذلك.

جاءت صرخة بعيدة يحملها النسيم تنادي: رونالد... رونالد.

جفل رونالد وقال بارتباك: هذه خالتي، من الأفضل أن أذهب.

قالت له إيميلي: أظن ذلك أفضل.

ثم خاطبته من خلفه: إن على خدك الأيسر طلاء أخضر.

اختفى رونالد داخل بوابة بيت خالته، فيما قالت إيميلي: ها هو صديقي جاء بحقيبتي. هيا أيها المفتش، سأخبرك بكل شيء في السيارة.

* * *

الفصل العشرون
زيارة للخالة جينيفر

في الساعة الثانية والنصف تلقى الدكتور وورين زيارة من إيميلي، وقد أعجب مباشرة بهذه الفتاة الجميلة العملية. كانت أسئلتها مباشرة وفي صلب الموضوع.

– نعم يا آنسة تريفوسيس، أنا أفهم تماماً ما تعنينه. لعلك تعرفين أن الأمر مناقض للاعتقاد الشائع في الروايات، وأن من الصعب جداً تحديد وقت الوفاة بدقة. لقد رأيت الجثة في الساعة الثامنة، وأستطيع القول –حازماً– إن الكابتن تريفيليان كان قد مات قبل ساعتين من ذلك على الأقل، ولكن يصعب الجزم بالحد الأعلى للوقت الذي مرّ على وفاته. ولكن قلتِ لي إنه قُتل في الساعة الرابعة لقلتُ إن ذلك ممكن، مع أن رأيي الخاص يميل إلى وقت بعد ذلك. ومن ناحية أخرى فليس ممكناً –بالتأكيد– أن يكون قد قُتل قبل ذلك بكثير. من شأن أربع ساعات ونصف أن تكون الحد الأعلى للفترة التي مرت على وفاته عندما رأيته.

قالت إيميلي: شكراً لك؛ هذا كل ما أردتُ معرفته.

لحقت بقطار الثالثة وعشر دقائق في المحطة، وعند وصولها إلى إيكزيتر استأجرت سيارة فوراً إلى حيث يقيم السيد داكرز.

كان لقاؤهما عملياً وخالياً من العواطف. كان السيد داكرز يعرف إيميلي منذ أن كانت طفلة، وقد تولى إدارة أمورها منذ أن بلغت سن الرشد. قال لها: ينبغي أن تُحضّري نفسك لصدمة يا إيميلي. إن الأمور أسوأ بكثير مما تخيلنا بالنسبة لجيمس بيرسن.

– أسوأ؟

– نعم. ليس من المفيد اللف والدوران؛ فقد ظهرت حقائق معينة لا بد أن تجعله في موقف سيء جداً، وهذه الحقائق هي التي قادت الشرطة إلى اتهامه فعلياً بارتكاب الجريمة. وإذا ما حجبتُ عنكِ هذه الحقائق فلن أكون في موقف من يعمل لصالحك.

– قل لي رجاء.

كان صوتها هادئاً تماماً. وكائناً ما كانت الصدمة الداخلية التي شعرت بها، لم يكن في نيتها أن تُظهر مشاعرها على الملأ؛ فليست المشاعر هي التي ستساعد جيمس بيرسن، بل العقل. وينبغي أن تحافظ على كل ملكاتها العقلية جاهزة.

قال المحامي: ما من شك في أنه في حاجة ماسة وفورية للمال. لن أدخل في أخلاقيات الموقف الآن، ويبدو واضحاً أن جيمس قد قام

في عدة أوقات قبل الآن باقتراض المال من شركته (وأقول ذلك مجازاً؛ إذ يمكنني القول إنه فعل ذلك دون معرفة الشركة). كان مغرماً بالمضاربة على الأسهم، وفي إحدى الحالات السابقة كان يتوقع أن تدخل بعض أرباح الأسهم في حسابه خلال فترة أسبوع، فقام باستباق ذلك باستخدام أموال الشركة لشراء أسهم معينة كان على علم أكيد بأنها سترتفع دون شك. وقد كانت العملية ناجحة تماماً، فقد تم إعادة المبلغ إلى مكانه في الشركة، ويبدو أن جيمس لم يراوده أي شك بنزاهة العملية. والظاهر أنه كرر هذه العملية قبل نحو أسبوع، وفي هذه المرة حدث شيء لم يكن بالحسبان. كانت سجلات حسابات الشركة تُراجع في أوقات محددة معلومة، ولكن -لسبب ما- تم تقريب موعد مراجعتها هذه المرة، وواجه جيمس ورطة صعبة كريهة. كان مُدركاً تماماً للتفسير الذي سيُعطى لتصرفه، كما كان عاجزاً تماماً عن جمع المبلغ المطلوب، وقد اعترف أنه حاول اللجوء إلى عدة جهات لمساعدته وفشل، ثم هرع -كملجأ أخير- إلى ديفونشير ليضع القضية أمام خاله ويقنعه بمساعدته، ولكن الكابتن تريفيليان رفض ذلك تماماً. ونحن الآن -يا عزيزتي إيميلي- عاجزون تماماً عن منع هذه الحقائق من الظهور على الملأ؛ فقد اكتشف الشرطة المسألة أصلاً، ولعلك ترين أن لدينا هنا دافعاً ضاغطاً ومُلحاً لارتكاب الجريمة، ففي اللحظة التي يموت فيها الكابتن تريفيليان يمكن لجيمس أن يحصل بسهولة على المبلغ المطلوب كدفعة أولى من المحامي كيركوود وينقذ نفسه من كارثة، وربما من الملاحقة الجنائية.

قالت إيميلي بيأس: يا له من غبي!

- بالضبط. يبدو لي أن فرصتنا الوحيدة هي أن نثبت أن جيمس بيرسن لم يكن مُطّلعاً على شروط وصية خاله.

ساد بعض الصمت بينما فكرت إيميلي بالمسألة. ثم قالت بهدوء: أخشى أن يكون ذلك مستحيلاً. كانوا ثلاثتهم يعلمون... سيلفيا وجيمس وبرايان. وكثيراً ما كانوا يناقشون الأمر ويضحكون ويطلقون النكات على خالهم الغني في ديفونشير.

- يا إلهي! هذا مؤسف جداً.

- أنت لا تظنه مذنباً يا سيد داكرز؟

- الغريب تماماً أنني لا أراه مذنباً. إن جيمس بيرسن شاب شفاف جداً في بعض النواحي. وإذا سمحتِ لي -يا إيميلي- فإنني أقول إنه لم يكن ذا معايير عالية في مسألة النزاهة التجارية، ولكنني لا أصدق لدقيقة واحدة بأن يده هي التي امتدت لقتل خاله.

- حسناً، هذا أمر جيد. ليت الشرطة يرون مثل رأيك.

- صحيح. إن انطباعاتنا وأفكارنا الخاصة غير ذات فائدة عملية؛ فالدلائل ضده قوية مع الأسف، ولن أخفي عنك -يا طفلتي العزيزة- أن الوضع المُنتظَر سيء. إنني أقترح أن يتولى الدفاع عنه المحامي لوريمر مُستشار التاج.

ثم أضاف بشيء من الابتهاج: إنهم يسمونه رجل اليائسين.

- أود معرفة شيء واحد: لقد رأيتَ جيمس طبعاً، أليس كذلك؟

– بالتأكيد.

قالت: "أريدك أن تخبرني –بصدق– إن كنتَ ترى أنه قد قال الحقيقة فيما يخص الأمور الأخرى". ثم لخصت له الفكرة التي اقترحها عليها إندربي.

فكر المحامي بالمسألة بإمعان قبل أن يجيب قائلاً: إن انطباعي هو أنه يقول الحقيقة عندما يصف لقاءه مع خاله، ولكن ما من شك أنه خاف خوفاً شديداً، وإن كان قد التفّ إلى الباب الزجاجي الخلفي ودخل منه فوجد جثة خاله... فمن الممكن تماماً أن يتملكه الرعب بحيث لا يعترف بالحقيقة ويخترع هذه القصة الأخرى.

– هذا ما ظننتُه. هل لك أن تحثه على قول الحقيقة عندما تراه في المرة القادمة يا سيد داكرز؟ فقد يكون في ذلك فرقٌ هائل.

– سأفعل ذلك. ومع ذلك...

سكت للحظات ثم قال: أظنك مخطئة في هذه الفكرة؛ فقد انتشر خبر مقتل الكابتن تريفيليان في إيكزامبتن في حوالي الساعة الثامنة والنصف، وفي ذلك الوقت كان آخر قطار قد غادر إلى إيكزيتر، ولكن جيمس استقل أول قطار ممكن في الصباح... وهو –بالمناسبة– إجراء غير حكيم على الإطلاق؛ إذ أنه قد جعل تحركاته موضع انتباه ما كان ليُثار لو أنه غادر في قطار آخر في ساعة اعتيادية. والآن، لو أنه اكتشف جثة خاله –كما تقولين– في وقت ما بعد الساعة الرابعة لكان من شأنه أن يغادر إيكزامبتن فوراً فيما أظن. يوجد قطار يغادر بعد السادسة بقليل، وقطار آخر يغادر في الثامنة إلاّ ربعاً.

– هذه نقطة وجيهة. لم أفكر في ذلك.

– لقد سألته بكل دقة عن طريقته في دخول بيت خاله. قال إن الكابتن تريفيليان قد جعله ينزع حذاءه ويتركه عند العتبة خارج الباب، وهذا يفسر عدم اكتشاف آثار رطوبة في الصالة.

– ألم يتحدث عن سماعه لأي صوت... أي شيء على الإطلاق يمكن أن يعطيه فكرة بأن في البيت أحداً آخر؟

– لم يذكر ذلك لي، ولكني سأسأله.

– شكراً لك. إن كتبتُ له رسالة فهل تستطيع أن توصلها له؟

– ولكنها ستخضع للقراءة من قبل الشرطة بالطبع.

قالت: "ستكون رسالة متحفّظة جداً". ثم ذهبت إلى طاولة الكتابة فكتبت بضع كلمات على عجل:

الأعز جيمس،

سيكون كل شيء على ما يرام؛ فلا تبتئس. إنني أعمل عمل العبيد للعثور على الحقيقة. كم كنتَ مغفلاً يا حبيبي!

مع حبي: إيميلي

قرأها السيد داكرز، ولكنه لم يُعلّق.

قالت إيميلي: لقد بذلتُ جهداً لتحسين خطي بحيث تستطيع

سلطات السجن قراءته بسهولة. والآن، ينبغي أن أذهب.

- اسمحي لي أن أقدم لك كوباً من الشاي.

- لا، شكراً يا سيد داكرز؛ ليس لدي وقت أضيعه. إنني ذاهبة لرؤية جينيفر، خالة جيمس.

* * *

في منزل لوريلز قيل لإيميلي إن السيدة غاردنر خارجة ولكنها ستعود عما قريب. ابتسمت إيميلي في وجه الخادمة وقالت: سأدخل وأنتظرها إذن.

- هل تودين رؤية الممرضة ديفيز؟

كانت إيميلي مستعدة دوماً لرؤية أي شخص، ولذلك قالت بسرعة: نعم.

بعد بضع دقائق وصلت الممرضة ديفيز رسمية السمت والفضول بادٍ عليها.

قالت إيميلي: تشرفتُ بمعرفتك. أنا إيميلي تريفوسيس... أكاد أكون شبه كنّة للسيدة غاردنر. أعني أنني سأكون زوجة لابن أختها، ولكن خطيبي جيمس بيرسن قد اعتُقل كما قد تعلمين.

قالت الممرضة ديفيز: آه، لقد كان ذلك فظيعاً! لقد قرأنا ذلك كله في الصحف صباح اليوم. يا له من أمر رهيب! يبدو أنك تتحملين

الأمر بشكل جيد يا آنسة تريفوسيس... بشكل رائع فعلاً.

كان في نبرة الممرضة أثر خفيف من الاستنكار، وكأن لسان حالها كان يقول إن الممرضات قادرات على التحمل بسبب قوة شخصياتهن، أما المخلوقات الأدنى فالمتوقع منها أن تنهار.

- على المرء ألاّ يركع على ركبتيه. أرجو ألاّ تكوني مهتمة كثيراً. أعني أن الأمر لا بد فظيع بالنسبة لك أن تكوني على صلة بعائلة حدثت فيها جريمة قتل.

قالت الممرضة ديفيز دون أن يثنيها هذا اللطف: الأمر كريه جداً بالطبع، ولكن واجب المرء إزاء مريضه يأتي في مقدمة الواجبات.

- ما أروع ذلك! لا بد أنه من الرائع -بالنسبة للخالة جينيفر- أن تشعر أن لديها شخصاً تستطيع الاعتماد عليه.

قالت الممرضة وهي تبتسم: آه، أنت لطيفة جداً بالفعل، ولكني عشتُ -بالطبع- تجارب غريبة قبل هذه، ففي آخر حالة كنتُ أعتني بها...

استمعت إيميلي بصبر إلى قصة طويلة تحتوي على مسائل طلاق وخصام حول ضم الأبناء، وبعدما هنّأت الممرضةَ على لباقتها وتكتمها وحسن تصرفها عادت لموضوع أسرة غاردنر، فقالت: أنا لا أعرف زوج الخالة جينيفر أبداً. لم أقابله من قبل، وهو لا يخرج أبداً من البيت، أليس كذلك؟

- نعم، مسكين.

- ما هو مرضه بالضبط؟

انخرطت الممرضة ديفيز في الموضوع بحماسة مهنية، وبعد أن أكملت تمتمت إيميلي بتأمل: إذن فمن الممكن حقاً أن يتحسن في أية لحظة.

- ولكنه سيكون ضعيفاً جداً.

- طبعاً، ولكن ذلك يجعل الأمر يبدو باعثاً على الأمل، أليس كذلك؟

هزت الممرضة رأسها بكآبة مهنية ثابتة وقالت: لا أحسب أن لحالته أي شفاء.

كانت إيميلي قد رسمت في دفتر ملاحظاتها الصغير جدولاً بما أسمته عذر غياب الخالة جينيفر عن مكان الجريمة. والآن تمتمت بحذر: كم يبدو غريباً أن يفكر المرء بأن الخالة جينيفر كانت -عملياً- في السينما عندما قُتل أخوها.

- أمر محزن جداً، أليس كذلك؟ لم يكن بوسعها أن تعرف بالطبع... ولكن ذلك يسبب للمرء صدمة فظيعة فيما بعد.

أخذت إيميلي تفكر بكيفية اكتشاف ما تريد معرفته دون طرح سؤال مباشر. سألت: ألم تشعر برؤية أو نذير غريب ما؟ ألم تكوني أنت مَن قابلها في الصالة عندما عادت وهتف بها أنها تبدو غريبة تماماً؟

- لا، ليس أنا؛ فأنا لم أرها حتى موعد جلوسنا معاً على العشاء، وقد بدت -وقتها- كعادتها تماماً. يا له من أمر مثير!

- أحسب أنني أخطأت بينك وبين شخص آخر.

- ربما كان ذلك قريباً آخر لها. لقد عدتُ متأخرة قليلاً. شعرتُ بشيء من الذنب لأنني تركتُ مريضي فترة طويلة، ولكنه هو الذي حثّني على الذهاب.

ثم نظرت فجأة إلى ساعتها وقالت: آه، يا إلهي! لقد طلب مني زجاجة أخرى من الماء الحار. يجب أن أتدبر أمرها في الحال. هل لك أن تعذريني يا آنسة تريفوسيس؟

عذرتها إيميلي ثم مضت إلى قرب الموقد فقرعت الجرس.

جاءت الخادمة وعلى وجهها شيء من الخوف، فسألتها إيميلي: ما هو اسمك؟

- بياتريس يا آنسة.

- آه، بياتريس. ربما لا أستطيع الانتظار لرؤية خالتي السيدة غاردنر... لقد أردت أن أسألها عن بعض الأشياء التي تسوقتها يوم الجمعة. هل تعرفين إن كانت قد أحضرت معها كيساً كبيراً؟

- لا يا آنسة، لم أرها عندما عادت.

- أحسبكِ قلتِ إنها عادت في الساعة السادسة.

– نعم يا آنسة، عادت وقتها بالفعل. لم أرها تدخل، ولكن عندما صعدتُ لآخذ بعض الماء الحار لغرفتها في الساعة السابعة أُصبتُ بشيء من الصدمة إذ وجدتها هناك ممددة على سريرها في الظلام. قلت لها: "لقد صدمتني فعلاً يا سيدتي"، فقالت: "لقد عدتُ منذ وقت طويل، في الساعة السادسة".

ثم أضافت بياتريس وهي تحاول كل جهدها لتكون مفيدة: ولم أرَ أي كيس كبير في أي مكان.

فكرت إيميلي قائلة لنفسها: الأمر كله صعب جداً، فعلى المرء أن يخترع الكثير من الأمور. لقد اخترعتُ –حتى الآن– مسألة النذير الغريب، والكيس الكبير، ولكن على المرء –فيما أرى– أن يخترع شيئاً ما إذا أراد ألاّ يثير الشبهات.

ابتسمت بعذوبة وقالت: لا بأس يا بياتريس، فهذا لا يهم.

غادرت بياتريس الغرفة، فأخرجت إيميلي من حقيبتها جدولاً صغيراً بحركة القطارات المحلية وراجعته وهي تتمتم مع نفسها: تغادر إيكزيتر في قطار الثالثة وعشر دقائق، وتصل إيكزامبتن في الرابعة إلاّ ثماني عشرة دقيقة. والوقت المطلوب للذهاب إلى بيت أخيها وقتله (كم يبدو ذلك وحشياً قاسياً، بل وسخيفاً أيضاً!) ولكن لنقل إن الوقت المطلوب هو من نصف ساعة إلى ثلاثة أرباع الساعة. والآن: ما هي قطارات العودة؟ قطار في الرابعة وخمس وعشرين دقيقة، وواحد ذكره السيد داكرز في الساعة السادسة وعشر دقائق ويصل إيكزيتر في الساعة السابعة إلاّ ثلاث وعشرين دقيقة. نعم، إن ذلك ممكن عملياً

في كلا الحالتين. من المؤسف عدم وجود سبب للاشتباه بالممرضة؛ فقد كانت خارجة طوال فترة العصر، ولا أحد يعرف أين كانت. إنني لا أصدق طبعاً أن أياً من أفراد هذا البيت قد قتل الكابتن تريفيليان، ولكن من المريح –على نحو ما– أن يعرف المرء أن ذلك كان ممكناً بالنسبة لهم. آه... ها هو الباب الأمامي يُفتح.

كانت في الصالة همهمة أصوات، ثم انفتح الباب ودخلت جينيفر غاردنر الغرفة.

– أنا إيميلي تريفوسيس... المخطوبة لجيمس بيرسن.

قالت السيدة غاردنر وهي تصافحها: إذن فأنت إيميلي. إن هذه لمفاجأة!

شعرت إيميلي –فجأة– بأنها شديدة الضعف والصغر، أشبه بفتاة صغيرة ضُبطت وهي تقوم بشيء سخيف جداً؛ فالخالة جينيفر امرأة استثنائية جداً. كانت شخصية... بكل ما تعنيه الكلمة، ولديها من قوة الشخصية ما يكفي شخصين وثلاثة أرباع الشخص، وليس شخصاً واحداً فقط.

– هل تناولت الشاي يا عزيزتي؟ لا؟ سنشربه هنا إذن. لحظة فقط... فعليّ أن أصعد وأرى روبرت أولاً.

ارتسم على وجهها تعبير غريب وهي تذكر اسم زوجها، فقد رقّ الصوت القوي الجميل. كان كالضوء فوق صفحة مياه معتمة متموجة.

فكرت إيميلي وقد بقيت وحدها في الغرفة: إنها متيمة به. ومع

ذلك فإن في الخالة جينيفر شيئاً مخيفاً. إني لأتساءل إن كان يروق للخال روبرت أن يلقى كل هذا القدر من الهيام.

عندما عادت جينيفر غاردنر كانت قد نزعت قبعتها، وقد أُعجبت إيميلي بتسريحة شعرها الأملس المشدود إلى الخلف بدءاً من الجبين.

– هل تريدين الحديث عن الأمور يا إيميلي أو لا تحبين ذلك؟ إن كنت لا تريدين فسأتفهّم ذلك تماماً.

– ليس من المفيد كثيراً أن نتحدث عنها، أليس كذلك؟

– لا يسعنا إلاّ أن نأمل بأن يعثروا على القاتل الحقيقي بسرعة. اقرعي الجرس إذا سمحتِ يا إيميلي. سأرسل شاي الممرضة إليها فوق؛ فلا أريدها أن تثرثر هنا. كم أكره الممرضات!

– أهي ممرضة جيدة؟

– أظنها جيدة. روبرت يقول إنها جيدة على أية حال. إنني أكرهها بشدة، وقد كرهتها دوماً، ولكن روبرت يقول إنها أفضل بكثير من أية ممرضة استخدمناها.

قالت إيميلي: إنها جميلة بعض الشيء.

– هراء، ويداها بشعتان مسترجلتان؟

راقبت إيميلي أصابع خالتها الطويلةَ البيضاء وهي تلمس إبريق الحليب وملقط السكر. ثم جاءت بياتريس فأخذت كوب الشاي وطبقاً عليه بعض المأكولات وغادرت الغرفة.

قالت السيدة غاردنر: لقد انزعج روبرت كل الانزعاج من هذا الأمر، وقد أزعج نفسه حتى وصل إلى حالة غريبة. وأظن أن ذلك كله جزء من مرضه في الواقع.

– إنه لم يكن يعرف الكابتن تريفيليان جيداً، أليس كذلك؟

هزت جينيفر رأسها وقالت: لم يكن يعرفه ولا يأبه له. وإن أردت الصدق فأنا نفسي لا أستطيع التظاهر بالحزن الكبير على موته؛ لقد كان رجلاً قاسياً جشعاً يا إيميلي، لقد كان يعرف الكفاح الذي خضناه... والفقر! وكان يعرف أن من شأن قرضٍ يُعطى لنا في الوقت المناسب أن يوفر لروبرت العلاج الخاص الذي من شأنه أن يغير من حالته كثيراً. لقد نال جزاءه.

كانت تتكلم بصوت عميق مُعتمِل. وفكرت إيميلي قائلة لنفسها: يا لها من امرأة غريبة! جميلة وفظيعة، كشيء خرج من مسرحية إغريقية.

قالت السيدة غاردنر: ومع ذلك ربما لا يكون الوقت متأخراً جداً على العلاج. لقد كتبتُ للمحامي في إيكزامبتن اليوم لأسأله إن كان بوسعي الحصول على مبلغ من المال مقدماً. إن العلاج الذي أتحدث عنه هو –في بعض جوانبه– ما يسمونه بالعلاج غير التخصصي الذي يقوم به أناس من غير الأطباء، ولكنه نجح في الكثير جداً من الحالات. إيميلي... كم سيكون رائعاً أن يستطيع روبرت المشي ثانية.

كان وجهها متوهجاً مضيئاً كما لو أن مصباحاً أضاءه.

كانت إيميلي متعبة؛ فقد قضت يوماً طويلاً حافلاً، ولم تكد تأكل شيئاً، وقد أتعبتها العواطف المكبوتة. وقد ظلت الغرفة تروح وتجيء أمام عينيها.

- ألا تشعرين أنك بخير يا عزيزتي؟

شهقت إيميلي: "لا بأس". ثم كان من دواعي دهشتها وانزعاجها ومهانتها أن انفجرت باكية.

لم تحاول السيدة غاردنر أن تنهض لمواساتها، الأمر الذي كانت إيميلي ممتنة له، فقد اكتفت بالجلوس صامتة حتى تغيض دموع إيميلي، ثم تمتمت بصوت متأمل: يا للطفلة المسكينة! إنه لمن سوء الطالع الشديد أن يُعتقل جيمس بيرسن... حظ سيء فعلاً. أتمنى أن يمكن القيام بشيء في هذا الأمر.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

أحاديث

أما وقد تُرك تشارلز إندربي لشؤونه فإنه لم يخفف من مجهوداته. ولكي يتعرف على الحياة كما تُعاش في قرية سيتافورد ما كان عليه إلاّ أن «يفتح» السيدة كيرتيس كما يفتح المرء حنفية، ثم يجلس بعد ذلك ليصغي بشيء من الذهول إلى فيض من القصص والذكريات والشائعات والتخمينات والتفاصيل الدقيقة، ثم يسعى بشجاعة لغربلة الغث من الثمين. وما أن يذكر بعد ذلك اسماً آخر حتى يتجه دفق المياه فوراً في ذلك الاتجاه. وهكذا سمع كل شيء عن الكابتن وايَت؛ مزاجه الاستوائي الحاد، ووقاحته، ومشاجراته مع جيرانه، ورقته المدهشة من وقت لآخر (وخاصة مع الشابات الجميلات)، والحياة التي يفرضها على خادمه الهندي، والأوقات الغريبة التي يتناول فيها وجباته، والحمية الدقيقة التي يلتزمها فيما يأكله. وسمع عن مكتبة السيد رايكروفت، والمستحضرات المقوية للشَعر لديه، وإصراره على الترتيب الشديد والدقة في المواعيد، وفضوله الشديد تجاه أفعال الآخرين، وبيعه -مؤخراً- بعضاً من أغراضه القديمة الثمينة، وتعلقه الذي لا يمكن

تفسيره بالطيور، والفكرة السائدة بأن السيدة ويليت تحاول استمالته ليخطبها. سمع عن العانس العجوز بيرسهاوس ولسانها، والطريقة التي تضطهد بها ابن أختها، والشائعات التي تتحدث عن حياة اللهو التي يعيشها ابن الأخت ذاك في لندن. وسمع -من جديد- عن الصداقة التي جمعت الميجر بيرنابي والكابتن تريفيليان، وذكرياتهما عن الماضي، وتعلقهما بالشطرنج. وسمع كل ما هو معروف عن السيدة ويليت وابنتها، بما في ذلك الاعتقاد القائل إن الآنسة فايوليت كانت تخدع السيد رونالد غارفيلد، وإنها لا تقصد حقاً إقامة علاقة معه. وقد تم التلميح إلى أنها قامت بجولات غامضة في السهل المجاور، وأنها قد شوهدت تمشي هناك مع شاب. وأن هذا -دون ريب، كما خمنت السيدة كيرتيس- هو السبب وراء قدومهما إلى هذه المنطقة النائية. فقد أبعدتها أمها فوراً "لتنسيها الأمر تماماً"، ولكن ما الفائدة؟ "يمكن للفتيات أن يكُنّ أوسع حيلة مما تظن السيدات". أما عن السيد ديوك فالغريب أنه لم يوجد الكثير مما يمكن سماعه؛ إذ أنه لم يسكن المنطقة إلاّ منذ عهد قريب، ويبدو أن أنشطته كانت كلها في مجال البستنة.

كانت الساعة قد بلغت الثالثة والنصف، وإذ كان رأس السيد إندربي يدور من كل ما سمعه من أحاديث السيدة كيرتيس، فإنه خرج ليتمشى قليلاً. كان هدفه هو تعزيز معرفته أكثر بابن أخت الآنسة بيرسهاوس، وقد أثبتت المراقبة الحذرة لمنطقة بيت الآنسة بيرسهاوس عدم جدواها، ولكن تشارلز (وبضربة حظ) صادف ذلك الشاب وهو يخرج منزعجاً من بوابة منزل سيتافورد، وكان مظهره يدل تماماً على شخص تم إخراجه بعد أن تلقى توبيخاً.

قال له تشارلز: مرحباً. أليس هذا هو منزل الكابتن تريفيليان؟

- نعم، إنه هو.

- كنتُ آمل أن أستطيع تصويره صباح اليوم. وذلك لصحيفتي كما تعلم، ولكن هذا الطقس سيء جداً بالنسبة لمهمة التصوير.

تقبل رونالد هذا القول بكل نية حسنة دون أن يخطر في باله أن التصوير لو لم يكن ممكناً إلاّ في أيام الصحو المشمسة لكانت الصور التي تظهر في الصحف قليلة جداً.

قال رونالد: لا بد أن مهنتك مثيرة جداً.

- إنها حياة الكلاب!

قالها تشارلز وهو مخلص للتقليد الذي يتبعه البعض في عدم إظهار الحماسة لأعمالهم. ثم التفت نحو منزل سيتافورد وقال: يخيل لي أنه كئيب بعض الشيء.

- أنت لا تتصور الفرق بين وضعه سابقاً ووضعه منذ أن نزلت فيه أسرة ويليت. لقد كنتُ هنا في المنطقة في نفس هذه الفترة من العام الماضي، وأنت لا تكاد حقاً تحسبه نفس المكان! ومع ذلك فإنني لا أعرف تماماً ما الذي فعلتاه به. أظن أنهما حركتا الأثاث قليلاً ووضعتا بعض الوسائد والأمور الأخرى هنا وهناك، ويمكنني القول إن وجودهما هنا كان نعمة ربانية بالنسبة لي.

- ولكني لا أحسبها منطقة مفرحة جداً عموماً.

– مفرحة؟ لو عشت هنا أسبوعين لمتُّ كلياً. إن ما يحيرني هو كيف تمكنت خالتي من التعلق بالحياة بهذه الطريقة. أنت لم ترَ قططها، أليس كذلك؟ لقد تعين علي أن أمشِّط إحداها صباح اليوم، وانظر إلى الطريقة التي خمشتني بها تلك المتوحشة.

ثم مد يده وذراعه ليراهما تشارلز الذي قال: هذا حظ سيء.

– نعم، أظنه كذلك. قل لي، هل تقوم بأي من أعمال التحري؟ إن كان الأمر كذلك فهل يمكنني مساعدتك؟ أعطني دور واطسن، مرافق شيرلوك هولمز، أو أي شيء من هذا القبيل.

سأله تشارلز بشكل عرضي: هل في منزل سيتافورد أية أدلة؟ أعني هل ترك الكابتن تريفيليان أياً من أشيائه هناك؟

– لا أظن ذلك. لقد كانت خالتي تقول إنه نقل الحمل بما حمل. أخذ أقدام فيله، وأنياب فرس النهر، وكل بنادق الصيد... وغير ذلك.

– وكأنه لم يكن ينوي العودة.

– هذه فكرة... أنت لا تظن أن الأمر كان انتحاراً، أليس كذلك؟

– إن من شأن رجل يستطيع أن يضرب نفسه بدقة على مؤخرة رأسه بكيس رملي أن يكون فناناً في دنيا الانتحار.

قال رونالد: "نعم، لقد عرفتُ أن هذه الفكرة ليست مقبولة. ومع ذلك يبدو وكأنه كان يحس بنُذُر هذا الأمر". ثم تهلل وجهه

وقال: اسمعني، ما رأيك بهذه الفكرة؟ كان أعداء يلاحقونه، وعرف أنهم قادمون ولذلك فقد وضع غيره مكانه وهرب، أعني السيدة ويليت وابنتها.

– لقد كان قدومهما أشبه بالمعجزة.

– نعم، لا أستطيع فهم هذا الأمر. تخيل أن يزرع المرء نفسه في الريف بهذا الشكل. إن فايلوت لا تبدو ممانعة في ذلك، بل هي تقول إنها تحب ذلك بالفعل. لا أدري ما قصتها اليوم... أظنها مشكلة الخدم. لا أدري لماذا تقلق النساء إلى هذه الدرجة حول مسألة الخدم، فإذا ما سببوا لك الإزعاج، اطردهم واسترح.

– هذا هو ما فعلتاه بالضبط، أليس كذلك؟

– نعم، أعرف ذلك. ولكنهما في غاية الانفعال حيال هذا الأمر. الأم متمددة تنتابها نوبات هستيريا وصراخ أو ما شابه ذلك، والابنة تصرخ ككلب مسعور. لقد كادت تدفعني للخروج دفعاً قبل قليل.

– هل جاء إليهم الشرطة؟

حدق به رونالد وقال: الشرطة؟ لا، ولماذا يجيؤون إليهم؟

– لقد كنتُ أتساءل فقط، بعد أن رأيتُ المفتش ناراكوت في سيتافورد صباح اليوم.

وقعت من رونالد عصاه فجأة وانحنى ليأخذها، ثم قال: مَن تقول إنه كان في سيتافورد صباح اليوم... المفتش ناراكوت؟

– نعم.

– هل هو... هل هو الرجل الذي يتولى قضية تريفيليان؟

– نعم.

– ماذا كان يفعل في سيتافورد؟ أين رأيتَه؟

– آه، أظنه كان يدس أنفه ويتسقط الأخبار فقط... يتحرى حياة الكابتن تريفيليان الماضية إذا صح التعبير.

– أتظن أن هذا هو كل ما في الأمر؟

– أحسب ذلك.

– ألا يظن أن لأحد في سيتافورد علاقة بالأمر؟

– من شأن ذلك أن يكون مستبعداً جداً، أليس كذلك؟

– آه، جداً. ولكنك –مع ذلك– تعرف طبيعة الشرطة. دائماً يدسون أنوفهم ويتبعون الطريق الخاطئ. هذا هو ما يقال عنهم في الروايات البوليسية على الأقل.

قال تشارلز: "أظنهم حقاً مجموعة من الرجال الأذكياء". ثم أضاف: كما أن الصحافة تساعدهم بالطبع. ولكنك إن قرأت أية قضية بدقة وتمحيص لأدهشتك طريقة اكتشافهم للقتلة رغم عدم وجود دليل فعلي يعتمدون عليه.

– آه... حسناً. من الرائع أن يعرف المرء هذا، أليس كذلك؟ لقد توصلوا –بالتأكيد– لذلك الرجل، بيرسن، بسرعة كبيرة. وتبدو قضية واضحة جداً.

– أوضح من شمس النهار. الأمر الجيد هو أنه لم يكن أنا ولا أنت، أليس كذلك؟ حسناً، عليّ إرسال بعض البرقيات. يبدو أنهم غير معتادينَ تماماً على إرسال البرقيات في هذه القرية. فإن أنت أرسلت ما تفوق قيمته بضعة بنسات في وقت واحد نظروا إليك وكأنهم يرونك مجنوناً هارباً من مستشفى المجانين.

* * *

أرسل تشارلز برقياته، واشترى علبة من لفافات التبغ وقليلاً من سكاكر النعناع ذات الشكل المريب، وروايتين قصيرتين قديمتين جداً. ثم عاد إلى البيت فألقى بنفسه على سريره ونام بعمق، هانئاً بنعمة عدم الوعي بأنه كان –هو وعلاقاته، وخصوصاً الآنسة إيميلي تريفوسيس– موضوعاً للنقاش في أماكن مختلفة حوله.

ولعله من الحقيقي القول إن ثلاثة موضوعات فقط كانت تشغل قرية سيتافورد في الوقت الحاضر. الموضوع الأول هو جريمة القتل، والآخر هو هروب السجين، والثالث هو الآنسة تريفوسيس وابن عمها. والحقيقة أن أربعة أحاديث منفصلة كانت تجري في لحظة معينة واحدة وموضوعها الأساسي هو الآنسة تريفوسيس.

الحديث رقم ١ كان في منزل سيتافورد، حيث كانت فايوليت

ويليت ووالدتها قد أكملتا لتوهما غسل أواني الشاي الخاصة بهما (وذلك بسبب انسحاب الخدم).

قالت فايوليت: السيدة كيرتيس هي التي أخبرتني.

كانت ما زالت تبدو شاحبة مُتعَبة. وقالت أمها: إن طريقة كلام تلك المرأة أشبه بالوباء.

– أعرف، ويبدو أن تلك الفتاة تقيم هناك مع ابن عمٍ لها أو شيء كذلك. لقد أشارت هذا الصباح إلى أنها عند السيدة كيرتيس، ولكنني ظننتُ أن ذلك كان بسبب عدم وجود مكانٍ لها عند الآنسة بيرسهاوس، والآن يبدو أنها لم ترَ الآنسة بيرسهاوس أبداً إلاّ صباح اليوم!

– إنني أكره تلك المرأة كرهاً شديداً.

سألت فايوليت: السيدة كيرتيس؟

– لا، لا، أعني بيرسهاوس؛ فذلك النوع من النساء خطير. إنهن يعشن من أجل اكتشاف ما يستطعنَ اكتشافه من حياة الآخرين. وترسل لي الفتاة إلى هنا من أجل وصفة كعك؟! بودّي لو أنني بعثتُ لها وصفة كعك مسموم؛ فقد كان من شأن ذلك أن يوقفها عن التطفل إلى الأبد!

بدأت فايوليت تقول: أحسب أنني كان ينبغي أن أدرك...

ولكن والدتها قاطعتها قائلة: وكيف لك أن تعرفي يا عزيزتي؟ وما الضرر الذي حصل على أية حال؟

– لماذا تظنينها أتت إلى هنا؟

– لا أحسب أنه كان في ذهنها أي شيء محدد. كانت تتحسس فقط لترى المشهد. هل السيدة كيرتيس واثقة بشأن خطوبة الفتاة لجيمس بيرسن؟

– أحسب أن الفتاة نفسها أخبرت السيد رايكروفت بذلك، وقالت السيدة كيرتيس إنها خمنت ذلك منذ البداية.

– حسناً، الأمر كله طبيعي تماماً إذن. إنها تبحث فقط –على غير هدىً– عن شيء قد يساعد.

– أنت لم تريها يا أمي. إنها ليست على غير هدى.

– ليتني رأيتُها، ولكن أعصابي كانت في غاية الانهيار صباح اليوم، وأحسب أن ذلك رد فعل بعد تلك المقابلة بالأمس مع مفتش الشرطة ذاك.

– لقد كنتِ رائعة يا أماه. لو أنني فقط لم أكن مغفلة جداً... بحيث أغمي عليّ. آه! إنني أخجل من نفسي لكشفي المسألة كلها بهذا الشكل، فيما كنتِ أنتِ هناك هادئة تماماً ورابطة الجأش... لم تهتز لك شعرة.

قالت السيدة ويليت بصوت قاسٍ وجاف: إنني مدربة جيداً. لو أنك مررت بما مررتُ به أنا... ولكنّي آمل ألاّ تمري بذلك أبداً يا طفلتي. أنا أثق وأؤمن أن حياة هادئة سعيدة تنتظرك.

هزت فايوليت رأسها وقالت: إنني خائفة... إنني خائفة.

- هراء... وأما بالنسبة لقولك إنك كشفتِ المسألة إذ أغمي عليكِ بالأمس فلا يوجد شيء من ذلك؛ لا تقلقي.

- ولكن ذلك المفتش. لا بد أن يظن...

- بأن ذكر جيمس بيرسن قد جعلكِ تفقدين الوعي؟ نعم، سيظن ذلك بالتأكيد؛ فذلك المفتش ناراكوت ليس بالأحمق، ولكن ماذا لو ظن ذلك؟ سيشك بوجود صلة، وسيبحث عنها... ولن يجدها.

- أترين أنه لن يجدها؟

- بالطبع! كيف يمكنه ذلك؟ ثقي بي يا عزيزتي فايوليت. هذا يقين لا يخامره الشك، وربما كان في إغمائك -بطريقةٍ ما- خير كثير. سنفكر فيه على هذا النحو على كل حال.

* * *

الحديث رقم ٢ كان في بيت الميجر بيرنابي، وكان حديثاً من طرف واحد إلى حد ما؛ إذ وقع العبءُ الأكبر فيه على عاتق السيدة كيرتيس التي كانت قد استعدت للرحيل طوال النصف ساعة الماضية، بعد أن مرت لأخذ غسيل الميجر بيرنابي.

قالت السيدة كيرتيس بزهو: إنها مثل بيليندا ابنة عمتي سارة، هذا ما قلته لزوجي صباح اليوم. فتاة لا يُسبر غورها... وتستطيع أن تدير كل الرجال حول إصبعها.

صدرت عن الميجر بيرنابي ابتسامة عريضة.

- وهي مخطوبة لشاب وتخرج مع شاب آخر. هذا دأب بيليندا ابنة عمتي سارة تماماً. ولكن انتبه إلى أن ذلك ليس بهدف المتعة، إنه ليس مجرد تقلب واستهتار؛ فهي فتاة عميقة الغور. والآن السيد غارفيلد... سوف تأسره قبل أن يرف له جفن. لم أرَ في حياتي شاباً يبدو كنعجة خانعة كما بدا هو صباح اليوم... وتلك علامة لا تُخطئ.

توقفت لتأخذ نَفَساً فقال الميجر بيرنابي: حسناً، حسناً... لا أريد أن أؤخرك يا سيدة كيرتيس.

قالت السيدة كيرتيس دون أن تتحرك: سيطلب زوجي الشاي بالفعل. لم أكن أبداً ممن يتلكؤون بهدف الغيبة والثرثرة. فليمضِ الإنسان في عمله... هذا هو شعاري. وبمناسبة الحديث عن العمل؛ ما رأيك يا سيدي في تنظيف شامل للبيت؟

قال الميجر بيرنابي بقوة: لا!

- لقد مر شهر منذ آخر تنظيف شامل له.

- لا. أحب أن أعرف أين أضع يدي لأعثر على أي شيء في البيت، وبعد مثل تلك «التنظيفات» لا يجد المرء شيئاً قد عاد إلى مكانه الصحيح.

تنهدت السيدة كيرتيس، فقد كانت مُنظِّفة شديدة الحماسة. قالت: إن بيت الكابتن وايت هو الذي يحتاج إلى تنظيف ربيعي. ما

الذي يعرفه ذلك الخادم الهندي لديه عن التنظيف؟ هذا ما أود معرفته.

– ليس أفضل من خدم المستعمرات؛ فهم يتقنون عملهم ولا يثرثرون.

وكائناً ما كان التلميح الذي انطوت عليه الجملة الأخيرة فقد ذهب هباء مع السيدة كيرتيس. عاد عقلها إلى موضوع سابق وهي تقول: لقد أتتها برقيتان... برقيتان وصلتا خلال نصف ساعة. وقد أثارتا هلعي. ولكنها قرأتهما بكل برود، ثم قالت لي إنها ذاهبة إلى إيكزيتر ولن تعود إلاّ غداً.

قال الميجر بيرنابي بنبرة أمل: هل أخذت زميلها الشاب معها؟

– لا، إنه ما زال هنا. إنه شاب حسن الحديث، ومن شأنهما أن يكونا زوجاً رائعاً.

ابتسم الميجر بيرنابي، فيما قالت: حسناً، سأذهب.

لم يكد الميجر يجرؤ على التنفس خشية أن يشغلها ذلك عن الذهاب، ولكنها كانت عند كلمتها هذه المرة، وانغلق الباب خلفها.

وبارتياح تنهد الميجر وسحب غليوناً وبدأ يدرس نشرة عن منجم معين وُصف بعبارات استثمارية متفائلة جداً إلى حدٍ من شأنه أن يثير الشكوك في قلب أي شخص ما عدا أرملة أو عسكرياً متقاعداً. تمتم قائلاً لنفسه: اثنا عشر بالمئة... يبدو هذا ربحاً جيداً جداً.

* * *

في البيت المجاور كان الكابتن وايَت يُعلم السيد رايكروفت أساسيات الحياة: إن الرجال من أمثالك لا يعرفون شيئاً عن العالم. أنت لم تعش أبداً؛ لم تستغنِ أبداً عن وسائل الراحة.

لم يقل السيد رايكروفت شيئاً. كان من الصعب جداً أن يتجنب المرء قول ملاحظة خاطئة للكابتن وايَت، بحيث كان من الأسلم عدم الإجابة أبداً.

اتكأ الكابتن على جانب كرسي العجزة الخاص به وقال: إلى أين وصلت تلك الفتاة الجميلة؟ ماذا تفعل هنا؟ هذا ما أود معرفته.

ثم عاد ليغرق في كرسيه ثانية وهو يتابع تساؤلاته: ما الذي تريده هنا؟ مع من تتحدث في منطقة كهذه؟ من شأنكم أنتم الثقلاء أن تثيروا فيها أشد الضجر. لقد تبادلت معها بضع كلمات صباح اليوم، وأظنها دُهشت إذ وجدت رجلاً مثلي في مثل هذه المنطقة.

ثم فتل شاربه، فقال السيد رايكروفت: إنها خطيبة جيمس بيرسن، الرجل الذي اعتُقل بسبب مقتل تريفيليان.

أوقع وايَت كأساً من الشراب كان يرفعه إلى شفتيه فانكسر على الأرض، فزمجر على الفور طالباً خادمه، وشتمه بكلمات –لا يمكن وصفها– لأنه لم يضع الطاولة الصغيرة في الزاوية المناسبة قرب كرسيه. ثم تابع حديثه: إذن فتلك هي هويتها. إنها أفضل بكثير من أن تكون لبهلوان مثله. إن فتاة كهذه تحتاج إلى رجل حقيقي.

– إن الشاب بيرسن وسيم تماماً.

- وسيم... وسيم... إن الفتيات لا يردن دمية بشرية كتلك التي يستخدمها الحلاقون. ما الذي يعرفه عن الحياة شابٌ كهذا يعمل في مكتب كل يوم؟ ما هي تجربته للواقع؟

قال السيد رايكروفت ببرود: ربما كانت تجربة محاكمته بتهمة القتل واقعاً كافياً يستمر معه لوقت طويل.

- وهل الشرطة متأكدون أنه الفاعل؟

- لا بد أنهم متأكدون كثيراً، وإلاّ لما اعتقلوه.

قال الكابتن وايَت بازدراء: مجموعة أجلاف.

- ليس تماماً؛ لقد رأيت في المفتش ناراكوت هذا الصباح رجلاً قديراً على درجة عالية من الكفاءة.

- أين رأيتَه هذا الصباح؟

- لقد زارني في بيتي.

قال الكابتن وكأن مشاعره قد جُرحت: ولكنه لم يزرني أنا.

- أنت لم تكن صديقاً مقرباً للكابتن تريفيليان.

- لا أدري ما الذي تعنيه. لقد كان تريفيليان رجلاً جشعاً شحيحاً وقد قلتُ له ذلك في وجهه. لا يستطيع أن يأتي ويمارس دور المُعلم عليّ. لم أتذلل له كبقية الناس هنا... زيارات طوال الوقت، زيارات، زيارات. إن أنا اخترتُ ألاّ أرى أحداً لأسبوع أو لشهر أو لسنة فهذا

شأني أنا.

- أنت لم ترَ أحداً منذ أسبوع الآن، أليس كذلك؟

- نعم، ولماذا يتعين علي أن أرى أحداً؟

ضرب الكابتن الغاضب الطاولة، وأدرك السيد رايكروفت -كالعادة- أنه قال العبارة الخطأ.

- من هو الشيطان الذي يجبرني على ذلك؟ قل لي؟

كان السيد رايكروفت من الحصافة بحيث لزم الصمت. فتلاشى غضب الكابتن، ودمدم قائلاً: ومع ذلك فإذا ما أراد الشرطة أن يعرفوا عن تريفيليان فأنا الرجل الذي كان ينبغي أن يأتوا إليه. فقد خبرتُ العالم، ولدي حكمي. يمكنني أن أقوِّم رجلاً وأعطيه قيمته الحقيقية. ما فائدة الذهاب إلى الكثير من الخرِفين والنساء العجائز؟ إن ما يحتاجونه هو رأي وحكم رجل.

ثم ضرب على الطاولة ثانية. فقال رايكروفت: حسناً، أحسب أنهم يعرفون ماذا يريدون.

- لقد سألوا عني، أليس كذلك؟ من الطبيعي أن يسألوا عني.

قال السيد رايكروفت بحذر: الحقيقة... أنني... أنني لا أتذكر تماماً.

- لماذا لا تتذكر؟ أنت لم تخرف بعد.

قال السيد رايكروفت مُهدئاً: أظنني كنتُ... مضطرباً.

– أكنتَ مضطرباً؟ خفتَ من الشرطة؟ أنا لا أخاف من الشرطة. دعهم فليأتوني هنا. هذا ما أقوله... سأريهم. هل تعلم أنني أطلقتُ النار على قطة على بعد مئة متر قبل ليلتين؟

– حقاً؟

كانت عادة الكابتن في إطلاق النار من مسدسه على قططٍ حقيقية أو وهميةٍ تشكل محنة كبرى لجيرانه.

قال الكابتن: حسناً، لقد تعبت. أتريد كوباً آخر من الشاي قبل أن تنصرف؟

نهض السيد رايكروفت وقد فسّر التلميح بشكل صحيح. واستمر الكابتن بحثّه على تناول كوب آخر، ولكن السيد رايكروفت رفض العرض.

* * *

في البيت رقم ٤ كانت الآنسة بيرسهاوس تتكلم مع ابن اختها رونالد.

– إن كنت تحب الدوران خلف فتاة لا تريدك فهذا شأنك يا رونالد، من الأفضل أن تلزم تلك الفتاة وبليت. إذ يمكن أن تكون لك فرصة هناك، رغم أنني أظن ذلك مستبعداً جداً.

احتج رونالد، ولكن خالته تابعت قائلة: والأمر الآخر الذي أود

قوله هو أنه إذا كان في سيتافورد ضابط شرطة فينبغي أن أعلم بذلك. من يدري، فربما كنتُ قادرة على إعطائه معلومات قيّمة.

– أنا لم أعلم بذلك إلاّ بعد أن غادر.

– هذا مألوف منك يا رونالد... هذا دأبك دائماً.

– آسف يا خالة كارولين.

– وعندما تقوم بطلاء أثاث الحديقة لا حاجة لأن تطلي وجهك أيضاً؛ فهذا لا يُحسِّن من شكله، كما أن فيه مضيعة للطلاء.

– آسف يا خالة كارولين.

قالت الآنسة بيرسهاوس وهي تغمض عينيها: والآن لا تجادلني، فأنا متعبة.

حرك رونالد قدمه وبدا غير مرتاح، فقالت له بحدة: حسناً، ما الأمر؟

– آه! لا شيء... فقط...

– نعم؟

– لقد كنتُ أتساءل إن كنتِ تمانعين في ذهابي إلى إيكزيتر غداً.

– لماذا؟

– أريد أن أقابل شخصاً هناك.

- أي شخص هذا؟

- آه! مجرد شخص.

- إن رغب شاب بالكذب فإن عليه أن يكذب جيداً.

- آه! ولكن...

- لا تعتذر.

- لا بأس إذن؟ أأستطيع الذهاب؟

- لا أدري ما الذي تعنيه بقولك: "أأستطيع الذهاب" كما لو كنتَ طفلاً صغيراً. لقد جاوزت الحادية والعشرين!

- نعم، ولكني أعني أنني لا أريد أن...

أغمضت الآنسة بيرسهاوس عينيها ثانية وقالت: لقد طلبتُ منك قبل قليل ألاّ تحادثني. إنني متعبة وأريد الراحة. إن كان الشخص الذي تريد مقابلته في إيكزيتر يلبس تنورة واسمه إيميلي تريفوسيس فهذا دليل على أنك مغفل... هذا كل ما أقوله.

- ولكن اسمعيني...

- أنا متعبة يا رونالد. هذا يكفي.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

مغامرات تشارلز الليلية

لم يكن تشارلز يتطلع بأي تشوق لما ستحمله له حراسته الليلية، وقد فكر -بينه وبين نفسه- بأن هذه المهمة يُحتمل ألاّ تعدو كونها ملاحقة سراب، ورأى أن إيميلي كانت واقعة تحت سيطرة خيال نشيط جامح.

كان مقتنعاً أنها قد وضعت في الكلمات القليلة التي سمعتها معنى لم يكن موجوداً إلاّ في عقلها، وربما كان السأم وحده هو الذي دفع السيدة ويليت إلى تمني قدوم الليل.

نظر من نافذته إلى الخارج وارتعد؛ فقد كانت ليلة قارصة البرد يسودها الضباب... كانت آخر ليلة يمكن للمرء أن يتمنى قضاءها في العراء متسكعاً ينتظر حدوث شيء شديد الغموض والضبابية أساساً.

ومع ذلك لم يتجرأ على الاستسلام لرغبته الجامحة بالبقاء في البيت مرتاحاً، فقد تذكر عذوبة صوت إيميلي وهي تقول: "من الرائع

أن يجد المرء شخصاً يستطيع الاعتماد عليه حقاً". لقد اعتمدت عليه، ويجب ألاّ يكون اعتمادها عبثاً. ماذا؟ أيخذل تلك الفتاة الجميلة اليائسة؟ أبداً.

وبعد أن ارتدى كل ما توفر لديه من ملابس داخلية أعقبها بكنزتين وفوقهما معطفه، فكر بأن الأمور ستكون مزعجة جداً بالنسبة لإيميلي إذا ما وجدت -عند عودتها- أنه لم يفِ بوعده، وربما قالت أسوأ ما يمكن تخيله من أشياء. كلا، ليس باستطاعته أن يجازف بذلك. أما بالنسبة لحدوث شيء...

ولكن متى وكيف سيحدث ذلك الشيء على أية حال؟ إنه لا يستطيع أن يكون في كل الأماكن في وقت واحد. وربما كان ما سيحدث -كائناً ما كان- إنما سيحدث داخل منزل سيتافورد، ولن يكون من شأنه أن يعرف عنه شيئاً.

قال لنفسه متبرماً: "كشأن الفتيات دوماً، تذهب بكل سهولة إلى إيكزيتر وتترك لي القيام بالمهمات القذرة!". ثم تذكر -مرة أخرى- النبرات العذبة لصوت إيميلي وهي تعبر عن اعتمادها عليه، فشعر بالخجل من فورة غضبه.

أكمل ارتداء ملابسه ثم خرج خفية من البيت. كانت الليلة أكثر برداً وإزعاجاً حتى من توقعاته. هل أدركت إيميلي مقدار ما سيعانيه من أجلها؟ رجا أن تكون أدركت ذلك.

دخل إلى الأراضي التابعة لمنزل سيتافورد بعد أن اتخذ

الاحتياطات المناسبة. لم يكن لدى السيدة ويليت كلب حراسة، ولذلك لم يكن خوف من إثارة إنذار من هذه الناحية. وقد أظهر ضوء في بيت البستاني أنه مأهول. أما منزل سيتافورد نفسه فقد كان الظلام يلفه باستثناء نافذة واحدة مضاءة في الطابق الأول.

فكر تشارلز قائلاً لنفسه: إن هاتين المرأتين بمفردهما في البيت. ما كنتُ لأهتم شخصياً لذلك، ولكن الأمر مخيف بعض الشيء!

لقد رأى أن إيميلي قد سمعت بالفعل تلك الجملة: "ألن تأتي هذه الليلة أبداً؟". ما الذي تعنيه هذه الجملة حقّاً؟ ثم فكر قائلاً لنفسه: أتراهما تنويان الهروب؟ حسناً، سأكون هنا لرؤية كل ما يمكن أن يحصل.

دار حول البيت من مسافة آمنة، وبسبب الضباب الكثيف لم يكن يخشى أن يراه أحد. وبدا له أن كل شيء عادي حسبما يرى، وقد قام بالمرور -بحذر- على الغرف الخارجية الملحقة بالبيت فوجدها مقفلة.

قال تشارلز لنفسه والساعات تمر: أرجو أن يحدث شيء. أنا لم أرَ برداً كهذا أبداً. لا يمكن أن تكون قصص الآباء القديمة عما عانوه في الحرب بأشد من برد هذه الليلة.

نظر إلى ساعته فدُهش إذ رأى أنها ما زالت الثانية عشرة إلاّ ثلثاً؛ فقد كان مقتنعاً أن وقت الفجر قد أزف دون شك. ثم سمع صوتاً مفاجئاً جعله ينصب أذنيه بانفعال. كان صوت مزلاج يُرفع بكل هدوء،

وقد جاء من ناحية المنزل. قام تشارلز بالتنقل من شجيرة إلى أخرى. نعم، لقد كان مُحقاً تماماً، فقد فُتح الباب الجانبي الصغير ببطء، ووقف جسم داكن على العتبة وراح ينظر بلهفة إلى الليل في الخارج.

قال تشارلز لنفسه: أهي السيدة ويليت أم الآنسة ويليت؟ بل هي فايوليت الجميلة كما أظن.

وبعد انتظار دقيقة أو اثنتين خرج الجسم إلى الممشى، وأغلقت المرأة الباب خلفها بهدوء وبدأت تمشي مبتعدة عن البيت، في الاتجاه المعاكس للممر الأمامي. كان الممشى المعني يلتف إلى خلف منزل سيتافورد، ماراً عبر بقعة تغطيها الأشجار لينتهي بعد ذلك عند حدود السهل. وقد انعطف الممشى قريباً من الأشجار التي يختبئ تشارلز خلفها، وكان الممشى قريباً بحيث استطاع أن يميّز المرأة عند مرورها. لقد كان مُحقاً تماماً؛ فقد كانت فايوليت ويليت. كانت ترتدي معطفاً قاتماً طويلاً وتضع قبعة على رأسها.

مضت في الممشى صعوداً، وتبعها تشارلز بما أوتي من هدوء. لم يكن يخشى أن تراه، ولكنه أدرك خطورة سماع خطواته. وقد كان حريصاً جداً على عدم إثارة انتباه الفتاة، وبسبب حرصه هذا فقد ابتعدت عنه. وقد خشي -للحظات- من فقدان أثرها، ولكنه -عندما استدار بدوره حول البقعة المشجرة- وجدها تقف على مبعدة منه إلى الأمام. وهناك كانت بوابة في الجدار المنخفض الذي يحيط بأراضي المنزل. كانت فايوليت تقف عند تلك البوابة وتتكئ عليها وتنظر إلى الليل خارجها.

زحف تشارلز بقدر ما أمكنه مقترباً منها... ومر الوقت. كان لدى الفتاة مصباح جيب، وقد أشعلته مرة لبضع ثوان ووجهته -كما ظن تشارلز- لرؤية الوقت في الساعة في معصمها، ثم اتكأت على البوابة ثانية بنفس أسلوب الانتظار والاهتمام. وفجأة سمع تشارلز صفيراً منخفضاً يتكرر مرتين.

رأى الفتاة تتأهب فجأة. اتكأت أكثر على البوابة وخرجت من شفتيها نفس الإشارة... صفير منخفض يتكرر مرتين. وبعدها، وبشكل مباغت تماماً، خرج من الظلمة خيال رجل، وصدر عن الفتاة صوت تعجب منخفض. تراجعت خطوة أو خطوتين، وفُتحت البوابة إلى الداخل، وانضم الرجل إليها. تكلمت معه بصوت منخفض متسرع، وعندما لم يستطع تشارلز سماع حديثهما تقدم إلى الأمام بشيء من الطيش، فطقطق غصن تحت قدمه.

التفت الرجل على الفور وقال: ما هذا؟

ثم رأى جسم تشارلز يتراجع، فقال: هيه، توقف! ماذا تفعل هنا؟

ثم اندفع خلف تشارلز بسرعة. واستدار تشارلز وتقدم منه فالتقيا وجهاً لوجه، وما هي إلاّ لحظة حتى كان الاثنان يتقلبان على الأرض وهما يحتضنان بعضهما البعض بقوة.

كان الصراع قصيراً. وكان مُهاجم تشارلز أثقل وأقوى بكثير منه. وأخيراً نهض واقفاً ساحباً تشارلز بقوة معه وقال: أشعلي الضوء يا فايوليت؛ دعينا نرى هذا الرجل.

تقدمت الفتاة التي كانت تقف مرعوبة على بعد بضع خطوات وأشعلت المصباح طائعة. ثم قالت: لا بد أنه الرجل الذي يقيم في القرية... الصحفي.

هتف الرجل: صحفي، أليس كذلك؟ أنا لا أحب هذه الطائفة. ماذا تفعل –أيها الحقير– بتطفلك في أملاك خاصة في مثل هذه الساعة؟

ارتجف المصباح في يد فايوليت، وشاهد تشارلز –لأول مرة– شكل خصمه كاملاً. كان قد فكر –للحظات– بالفكرة المستبعدة بأن الزائر قد يكون السجين الهارب، ولكن نظرة واحدة إلى الرجل كانت كافية لتبديد أية فكرة من ذلك القبيل؛ فقد كان هذا شاباً لا يعدو الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين، طويلاً وسيماً، وذا عزيمة ليس فيه ما يدل على مجرم مطارد هارب.

قال الرجل بحدة: والآن، ما هو اسمك؟

– اسمي تشارلز إندربي، ولكنك لم تقل لي اسمك أنت.

– تباً لوقاحتك!

وجاءت ومضة إلهام لتشارلز، وقد كان التخمين المعتمد على الإلهام قد ساعده أكثر من مرة من قبل. كان ذلك التخمين ضرب عشواء، ولكنه آمن بأنه على حق. قال بهدوء: ولكن أظنني أستطيع تخمين اسمك.

– ماذا؟!

بدا واضحاً أن الرجل قد فوجئ تماماً.

قال تشارلز: أظن أنني أتشرف بمخاطبة السيد برايان بيرسن القادم من أستراليا. أليس ذلك صحيحاً؟

ساد الصمت... وكان صمتاً طويلاً بعض الشيء، وشعر تشارلز أن الأدوار قد انقلبت. قال الرجل أخيراً: لا يمكنني أن أتصور كيف عرفت، ولكنك على حق. إن اسمي هو برايان بيرسن بالفعل.

قال تشارلز: في هذه الحالة، ماذا لو ذهبنا إلى البيت وتحدثنا في الأمور؟

* * *

الفصل الثالث والعشرون

في هيزلمور

كان الميجر بيرنابي يجري حساباته. وقد كان الميجر رجلاً منهجياً جداً، وكان يحتفظ -في دفتر ذي غلاف جلدي- بسجل للأسهم المُشتراة، والأسهم المباعة، وما يرافق ذلك من ربح أو خسارة، وكانت خسارة في العادة، ذلك أن ما كان يجذب الميجر -كشأن أغلب الضباط المتقاعدين- هو النسب العالية من الأرباح، وليس النسب المنخفضة للربح في استثمارات آمنة مضمونة.

كان يتمتم مع نفسه قائلاً: لقد بدت حقول النفط هذه جيدة، يبدو وكأن فيها ثروة دون شك. ومع ذلك فهي لا تقل سوءاً عن منجم الألماس ذاك! الأراضي في كندا؟ يجب أن تكون هذه استثماراً جيداً.

ولكن جاء ما يقطع عليه تأملاته، إذ أطل رأس السيد رونالد غارفيلد من النافذة المفتوحة وقال بمرح: مرحباً، أرجو ألاّ أكون متطفلاً؟

- إن كنت تريد الدخول فاذهب إلى الباب الأمامي، وانتبه إلى

النباتات الصخرية. أظنك واقفاً عليها الآن.

تراجع رونالد معتذراً، وسرعان ما ظهر عند الباب الأمامي. صاح الميجر بيرنابي: امسح قدميك بالممسحة من فضلك.

كان يحد الشباب مزعجين تماماً، والحقيقة أن الشاب الوحيد الذي شعر نحوه بود لفترة طويلة هو الصحفي، تشارلز إندربي. كان الميجر بيرنابي قد قال لنفسه: إنه شاب لطيف، وهو مهتم كثيراً بما قلته له عن حرب البوير.

أما تجاه رونالد غارفيلد فلم يكن الميجر يشعر بمثل هذا الود، وكان كل ما يقوله المسكين رونالد يزعج الميجر بيرنابي أيما إزعاج. ومع ذلك فإن الضيافة هي الضيافة.

قال الميجر: هل تشرب شيئاً؟

- لا، شكراً. الحقيقة أنني مررتُ لأرى فقط إن كان بوسعنا الذهاب معاً. لقد أردتُ الذهاب إلى إيكزامبتن اليوم، وسمعتُ أن إيلمر محجوز لكي يوصلك إلى هناك.

أومأ بيرنابي وقال: عليّ أن أرتب أغراض تريفيليان. لقد انتهى الشرطة من البيت الآن.

قال رونالد بكثير من الارتباك: حسناً، ربما تعلم، لقد أردت بشكل خاص أن أذهب إلى إيكزامبتن اليوم، ورأيت أنه إذا كان بإمكاننا الذهاب سوياً، وتقاسم الأمر معاً، ما رأيك؟

– بالتأكيد، موافق. ولكن المشي يفيد أكثر بكثير؛ فهو تمرين. ما من أحد منكم –معشر شباب اليوم– يقوم بأي تمرين. إن مسيرة ستة أميال سريعة ذهاباً وستة أميال سريعة إياباً ستكون تمريناً مفيداً جداً. ولو لم أكن بحاجة إلى السيارة لإحضار بعض أغراض تريفيليان معي إلى هنا لكنت سأذهب إلى هناك مشياً. إن لعنة زماننا هذا هو ما أصاب الناس من رقة وتنعم.

– أنا لا أؤمن –شخصياً– بكل هذه الخشونة، ولكني سعيد لحلِّ الموضوع على ما يرام. لقد قال إيلمر إنك ستنطلق في الساعة الحادية عشرة، أهذا صحيح؟

– نعم.

– حسناً، سأكون هناك.

ولكن رونالد لم يكن عند كلمته تماماً؛ فقد كانت فكرته عن الوصول في الوقت المحدد تعني التأخر عشر دقائق، وقد وجد الميجر يغلي ويدمدم، ولا يميل أبداً إلى تقبل اعتذار عرضي يقال لتهدئته.

وفكر رونالد مع نفسه قائلاً: يا لهذه الزوبعة التي يثيرها العجائز! إنهم لا يعلمون ما يشكلونه من ابتلاء للجميع بدقتهم وإصرارهم على القيام بكل شيء في اللحظة المحددة، وبتمارينهم التعيسة للمحافظة على لياقتهم.

ثم ترك عقله يلهو –لدقائق– بفكرة زواج يجمع خالته مع الميجر بيرنابي، وتساءل لمن ستكون الغلبة في مثل هذا الزواج؟ ورأى أن

الغلبة ستكون لخالته دوماً. من الممتع أن يتخيلها المرء وهي تصفق بيديها وتُطلق صرخات تصم الآذان لتنادي الميجر بيرنابي ليأتي إلى جانبها.

نحّى هذه الأفكار جانباً ومضى للدخول في حديث مُسلٍّ، فقال: لقد أصبحت سيتافورد مكاناً بهيجاً جداً، أليس كذلك؟ الآنسة تريفوسيس وهذا الشاب إندربي، والفتى القادم من أستراليا... بالمناسبة، متى وصل هذا الشاب؟ لقد كان هناك صباح اليوم بقضه وقضيضه، ولم يعرف أحد من أين جاء. لقد كان هذا الأمر يقلق خالتي أيما قلق.

قال الميجر بيرنابي بمرارة: إنه يقيم مع المرأتين ويليت.

– نعم، ولكن من أين ظهر فجأة؟ فحتى السيدتان ويليت لا تملكان مطاراً خاصاً. أتعلم؟ إنني أرى أن في هذا الفتى، بيرسن، شيئاً غامضاً جداً. إن له التماعة قذرة في عينيه... وميضاً شريراً جداً. إن انطباعي هو أنه هو الذي قتل العجوز المسكين تريفيليان.

لم يجبه الميجر بشيء، فمضى قائلاً: أنا أرى الأمر على هذا النحو: إن من يذهبون إلى المستعمرات يكونون –عادة– من الناس السيئين. لا يحبهم أقرباؤهم فيدفعون بهم إلى هناك لهذا السبب. حسناً إذن... يعود السيء مفلساً، ويزور خاله الغني في فترة عيد الميلاد، ولا يقبل الخال الغني إعطاء المال لابن الأخت المفلس، فيقوم ابن الأخت المفلس بضربه. هذا ما أسميه نظرية.

– ينبغي أن تذكرها للشرطة.

- لقد حسبتُ أن بوسعك أنت أن تقوم بذلك؛ فأنت صديق ناراكوت، أليس كذلك؟ وبالمناسبة، لا أظنه عاد للتطفل في سيتافورد، أليس كذلك؟

- لا أعلم أنه عاد.

- لم يقابلك في البيت اليوم إذن، أليس كذلك؟

بدا أن إجابات الميجر المقتضبة قد أثارت انتباه رونالد أخيراً. قال بشيء من الغموض: "حسناً، هذا هو الحال". ثم لجأ إلى صمتٍ متأمل.

* * *

في إيكزامبتن توقفت السيارة أمام فندق ثري كراونز. نزل رونالد، وبعد الاتفاق مع الميجر على الالتقاء في الفندق في الساعة الرابعة والنصف للعودة معاً مضى رونالد باتجاه المحلات الموجودة في إيكزامبتن.

مضى الميجر بداية لرؤية السيد كيركوود، وبعد حديث قصير معه أخذ المفاتيح وانطلق إلى هيزلمور.

كان قد طلب من إيفانز أن يقابله هناك في الساعة الثانية عشرة، وقد وجد الخادم المخلص بانتظاره عند عتبة الباب. أدخل الميجر المفتاح في الباب ووجهه متجهم بعض الشيء، ودخل إلى البيت الفارغ وإيفانز يتبعه. لم يكن قد دخل البيت منذ ليلة المأساة، ورغم

تصميمه الحديدي على عدم إظهار أي ضعف، إلاّ أنه ارتعد قليلاً وهو يعبر غرفة الجلوس.

عمل الميجر وإيفانز معاً بتعاطف وصمت، وعندما كان أي منهما يقول ملاحظة مقتضبة كان الآخر يقدرها ويفهمها. قال الميجر بيرنابي: إن هذه مهمة صعبة مؤلمة، ولكن لا بد من القيام بها.

وقد أجابه إيفانز وهو يجمع الجوارب في كومة مرتبة ويعد ملابس النوم: إنها تبدو مهمة غير طبيعية، ولكن كما قلت، لا بد من القيام بها.

كان إيفانز بارعاً في عمله وعلى درجة عالية من الكفاءة، وقد تم ترتيب كل شيء في مجموعات منفصلة. وفي الساعة الواحدة ذهب الاثنان إلى الفندق لتناول وجبة خفيفة. وعندما عادا إلى البيت أمسك الميجر فجأة بذراع إيفانز وهو يغلق الباب الأمامي خلفه وقال: صه، هل تسمع وقع الخطوات فوقنا؟ إنها... إنها في غرفة نوم تريفيليان.

- يا إلهي! إنها كذلك بالفعل.

سيطر عليهما -للحظات- رعبٌ ناتج عن إيمان بالخرافات، ثم تحرر الميجر منه وشد كتفيه بغضب ومشى إلى أسفل الدرج وصاح بصوت جهوري. ولدهشته الشديدة وانزعاجه (ولكن لارتياحه أيضاً) ظهر رونالد غارفيلد في أعلى الدرج. بدا مُحرجاً خانعاً وقال: مرحباً، لقد كنتُ أبحث عنك.

- ماذا تعني تبحث عني؟

– لقد أردتُ أن أخبرك بأنني لن أكون مستعداً في الرابعة والنصف؛ فعليّ أن أذهب إلى إيكزيتر، ولذلك لا تنتظرني. سيتعين عليّ أن أستأجر سيارة من إيكزامبتن.

– كيف دخلت إلى هذا البيت؟

هتف رونالد: لقد كان الباب مفتوحاً، ومن الطبيعي أنني ظننتُك هنا.

التفت الميجر بيرنابي إلى إيفانز بحدة وقال: ألم تقفل الباب عندما خرجت؟

– لا يا سيدي؛ المفتاح ليس معي.

دمدم الميجر: يا لغبائي!

قال رونالد: لا أحسبك تمانع، أليس كذلك؟ لم أرَ أحداً في الطابق السفلي ولذلك صعدتُ وألقيت نظرة في الأعلى.

– هذا لا يهم بالطبع، ولكنك فاجأتني. هذا كل ما في الأمر.

قال رونالد بدون اهتمام: حسناً، سأذهب الآن، إلى اللقاء.

ابتسم الميجر فيما نزل رونالد الدرج وقال بشكل صبياني: قل لي، هل تمانع في أن تقول لي... أين... أين حدث الأمر؟

أشار الميجر بإصبعه نحو غرفة الجلوس، فقال رونالد: آه، هل لي أن أنظر بداخلها؟

– إذا رغبت.

فتح رونالد باب غرفة الجلوس. وغاب لبضع دقائق ثم عاد. كان الميجر قد صعد إلى الطابق العلوي، ولكن إيفانز كان في الصالة واقفاً بأسلوب كلب يتولى الحراسة، وعيناه الصغيرتان العميقتان تراقبان رونالد بشيء من الإمعان الحاقد.

قال رونالد: لقد ظننتُ أنكم لن تستطيعوا أبداً غسل بقع الدم. ظننتُ أنها ستعود للظهور مهما غسلتموها. آه، بالطبع. لقد ضُرب العجوز بكيس رملي، أليس كذلك؟ وهذا لا يترك دماً. يا لغبائي! لقد كان الكيس واحداً من هذه الأكياس، أليس كذلك؟

أخذ كيساً قماشياً طويلاً كان أمام أحد الأبواب، ثم وزنه بيديه متأملاً ووازنه بين يديه قائلاً: "لعبة صغيرة، أليس كذلك؟". ثم أرجحه بضع مرات بحذر في الهواء.

كان إيفانز صامتاً. وقال رونالد وقد أدرك أن صمت إيفانز لم يكن صمت من يحبذ تصرفاته تماماً: حسناً، يحسن أن أذهب. أخشى أنني كنت قليل اللباقة بعض الشيء، أليس كذلك؟

ثم أشار بيده إلى الطابق العلوي وقال: لقد نسيتُ أنهما كانا صديقين حميمين. لقد كانا على نفس الشاكلة، أليس كذلك؟ حسناً، إنني ذاهب حقاً الآن. آسف إن كنت قد قلتُ أشياء غير مناسبة.

ثم عبر الصالة وخرج من الباب الأمامي. ظل إيفانز واقفاً دون حراك في الصالة، ولم يصعد الدرج وينضم إلى الميجر بيرنابي إلاّ

بعدما سمع مزلاج البوابة يغلق خلف السيد غارفيلد. ودون أية كلمة أو تعليق تابع عمله من حيث كان تركه، ومضى عبر الغرفة فجثا أمام خزانة الأحذية.

في الساعة الثالثة والنصف انتهت مهمتهما. تم تخصيص صندوق من الملابس والملابس الداخلية لإيفانز، وتم حزم صندوق آخر بحيث أصبح جاهزاً لإرساله إلى ملجأ أيتام البحرية. وتم وضع الأوراق والفواتير في حقيبة صغيرة، ووُجهت تعليمات إلى إيفانز ليرى شركة محلية لنقل الأثاث بشأن خزن عُدد الصيد المختلفة ورؤوس الحيوانات، إذ لم يكن في بيت الميجر بيرنابي متسع لها. وبما أن هيزلمور قد استؤجر مفروشاً، فلم تبقَ مسائل أخرى تتطلب الحل.

وعندما تمت تسوية كل هذه الأمور تنحنح إيفانز مرة أو مرتين بارتباك وقال: أستميحك العذر يا سيدي، ولكن... سوف أكون محتاجاً لعمل أعتني فيه بشخص ما، كما كنتُ أعتني بالكابتن.

– نعم، نعم. بوسعك أن تخبر أي امرئ بأن يتصل بي حتى أزكّيك لديه. سيكون ذلك على ما يرام.

– أنا آسف يا سيدي، فلم يكن هذا تماماً ما قصدتُه. لقد تحدثتُ أنا وريبيكا في هذا الأمر بالتفصيل، وكنا نتساءل –يا سيدي– إن كان... إن كان بوسعك أن تجربنا؟

– آه! ولكن... ولكنني أعنى بنفسي كما تعلم. وتلك المرأة العجوز تأتيني يومياً وتنظف لي وتطبخ بعض الأشياء. هذا... هذا تقريباً

كل ما تسمح به إمكاناتي.

سارع إيفانز إلى القول: ليس المال هو ما يهم يا سيدي. أنت تعلم أنني كنتُ شديد التعلق بالكابتن و... ويمكنني أن أخدمك –يا سيدي– كما كنتُ أخدمه، فذلك... فذلك سيكون بالنسبة لي نفس الأمر إن كنتَ تفهم قصدي.

تنحنح الميجر وقلّب عينيه وقال: هذا إخلاص كبير منك والله. سوف... سوف أفكر في الأمر.

ثم هرب بسرعة حتى كاد يقطع الشارع ركضاً. وقف إيفانز ينظر خلفه وعلى وجهه ابتسامة تفهم، وتمتم قائلاً: كأنهما حبة قُسمت نصفين، هو والكابتن.

ثم ارتسم على وجهه تعبير حيرة وتمتم قائلاً: أين عساهما ذهبا؟ هذا أمر غريب بعض الشيء. ينبغي أن أسأل ريبيكا عن رأيها في ذلك.

* * *

الفصل الرابع والعشرون
المفتش ناراكوت يناقش القضية

قال المفتش ناراكوت: أنا غير سعيد كلياً بهذا الأمر يا سيدي.

نظر رئيس الشرطة إليه متسائلاً، فقال ناراكوت: نعم، إنني غير سعيد تماماً كما كنت.

– ألا تظن أننا أمسكنا بالرجل المقصود؟

– لستُ مقتنعاً. ففي البداية بدا أن كل شيء يشير بالاتجاه نفسه، أما الآن... فالأمر مختلف.

– ولكن الأدلة ضد بيرسن ما تزال كما هي.

– نعم، ولكن الكثير من الدلائل قد ظهرت إلى السطح يا سيدي، مثلاً: الشاب الآخر من عائلة بيرسن... برايان. لقد قبلتُ الزعم بأنه كان في أستراليا عندما كنا نشعر بعدم الحاجة إلى البحث بعيداً، ولكن

ها نحن نعلم الآن أنه كان في إنكلترا طوال الوقت. يبدو أنه وصل إلى إنكلترا قبل نحو شهرين، ويبدو أنه سافر على نفس السفينة مع هاتين المرأتين ويليت، ويبدو أنه أعجب بالفتاة وهم على متن السفينة. وهو –على أية حال– لم يخبر أحداً من أقاربه بأنه في إنكلترا، بغضّ النظر عن سبب ذلك؛ فلا أخته ولا أخوه كانا يعلمان بوجوده هنا. وفي يوم الخميس الماضي غادر فندق أورمزبي في ساحة راسل وسافر إلى بادينغتن. ومنذ ذلك الوقت وحتى التقاء السيد إندربي به ليلة الثلاثاء يرفض أن يعطي أي تفسير لتحركاته بأي شكل.

– هل بيّنتَ له خطورةَ مثل هذا التصرف؟

– قال إنه لا يأبه أبداً لذلك. قال إنه لا علاقة له بالجريمة، وإن علينا أن نُثبت العكس، وإن الطريقة التي قضى بها وقته هي من شؤونه هو ولا علاقة لنا بها، وقد رفض رفضاً باتاً التصريح بمكان وجوده وما الذي كان يفعله.

قال رئيس الشرطة: هذا غريب جداً.

– نعم يا سيدي. إنها قضية غريبة جداً. لا فائدة من التهرب من الحقائق، إن هذا الرجل من تلك النوعية التي يمكن أن تقوم بتلك الفعلة أكثر بكثير من أخيه. إن في مسألة إقدام جيمس بيرسن على ضرب العجوز بكيس رمل على رأسه شيئاً متناقضاً ما، ولكن ذلك يمكن أن يكون –بمعنى ما– إجراء عادياً من شخص مثل برايان بيرسن؛ فهو شاب حاد المزاج لا يقيم وزناً لشيء أو لأحد. وتذكّر أنه يستفيد من وفاة خاله بنفس القدر تماماً. نعم، لقد جاء مع السيد إندربي صباح

اليوم بأسلوب المنشرح تماماً والصريح الذي ليس لديه ما يخفيه، ولكن ذلك لا يغر أحداً يا سيدي، لا يغر أحداً.

- هممم... ماذا تعني؟

- إن موقفه هذا لا ينسجم مع الحقائق. لماذا لم يتقدم للإعلان عن نفسه من قبل؟ لقد نُشر خبر وفاة خاله في الصحف يوم السبت، وقد اعتُقل أخوه يوم الإثنين، ولم تظهر منه أية إشارة. وما كانت لتظهر منه إشارة أيضاً لو لم يلتقِ به ذلك الصحفي في حديقة سيتافورد في منتصف الليل.

- ماذا كان يفعل هناك؟ أعني إندربي؟

- أنت تعرف الصحفيين، دائماً يتطفلون ويتشممون الأخبار. إنهم غريبون.

- إنهم مصدر إزعاج رهيب غالباً، رغم أن لهم فوائدهم أيضاً.

- أظن أن الفتاة هي التي كلفته بذلك الأمر.

- الفتاة؟

- الآنسة إيميلي تريفوسيس.

- وكيف قُدر لها أن تعرف أي شيء عن الموضوع؟

- لقد كانت في منزل سيتافورد تتطفل وتتسقط الأخبار. وهي فتاة حادة الذكاء؛ لا يمكن أن يفوتها الكثير مما يجري.

- ماذا كانت رواية برايان بيرسن نفسه عن تحركاته هناك؟

- قال إنه أتى إلى منزل سيتافورد ليرى فتاته، أي الآنسة ويليت. وقد خرجت هي من البيت لملاقاته حيث يكون الجميع نياماً لأنها لا تريد أن تعلم أمها بالأمر. هذه هي قصتهما.

كان صوت المفتش ناراكوت ينطق بعدم التصديق، وقد مضى قائلاً: أعتقد -يا سيدي- أن هذا الشاب ما كان ليظهر أبداً لو لم يمسك به إندربي متلبساً. كان من شأنه أن يعود إلى أستراليا ويطالب بنصيبه من الإرث من هناك.

ارتسمت على شفتي رئيس الشرطة ابتسامة خفيفة وتمتم قائلاً: لا شك أنه قد لعن وباء أولئك الصحفيين المتطفلين كثيراً.

- وقد ظهر إلى العلن شيء آخر؛ إذ يوجد -كما تذكر- ثلاثة من عائلة بيرسن، وسيلفيا بيرسن متزوجة بمارتن ديرنغ، الروائي. وقد أخبرني أنه تغدى وقضى فترة العصر مع ناشر أمريكي ثم ذهب إلى عشاء أدبي في المساء، ولكن يبدو الآن أنه لم يكن في العشاء أبداً.

- من يقول ذلك؟

- إندربي أيضاً.

قال رئيس الشرطة: أظن أنني يجب أن أرى إندربي؛ يبدو أنه أحد العناصر المهمة في هذا التحقيق. لا شك أن لدى صحيفة ديلي واير بعض الشباب الأذكياء بين صحفييها.

مضى المفتش قائلاً: إن هذا قد لا يعني إلاّ القليل بالطبع، أو قد لا يعني شيئاً؛ فقد قُتل الكابتن تريفيليان قبل الساعة السادسة، ولذلك فما من فائدة في مسألة المكان الذي قضى ديرنغ فيه أمسيته. ولكن لماذا يتعمد الكذب في هذا الأمر؟ أنا غير مرتاح لذلك يا سيدي.

وافقه رئيس الشرطة قائلاً: نعم، يبدو ذلك غير ضروري بعض الشيء.

– إنه يجعل المرء يظن بأن كلامه كله كان زائفاً. أحسب أنه افتراض بعيد، ولكن كان بوسع ديرنغ أن يغادر باديتغتن بقطار الثانية عشرة وعشر دقائق، فيصل إلى إيكزامبتن بعد الخامسة بقليل، فيقتل العجوز ويأخذ قطار السادسة وعشر دقائق ليصل إلى بيته ثانية قبل منتصف الليل. إن الأمر بحاجة إلى تقصٍّ على أية حال يا سيدي. ينبغي أن نتحرى وضعه المالي ونرى إن كان في ضائقة مالية شديدة، فإنه سيسيطر على أية أموال ترثها زوجته. ما عليك إلاّ أن تنظر إليها لتعرف ذلك. علينا أن نتأكد تماماً من أن عذر غيابه لفترة العصر عذر صحيح لا يخامره الشك.

علق رئيس الشرطة قائلاً: الأمر كله غريب جداً، ولكنني ما زلتُ أرى أن الدلائل ضد جيمس بيرسن متكاملة جداً. أرى أنك لا تتفق معي. إن لديك شعوراً بأنك أمسكتَ بالرجل الخطأ.

اعترف المفتش قائلاً: الدلائل ضده لا بأس بها، ظرفية وغير ذلك، ومن شأن أية هيئة محلفين أن تدينه على أساسها. ومع ذلك فإن ما تقوله صحيح تماماً... أنا لا أراه قاتلاً.

– وهذه الشابة نشيطة جداً في هذه القضية؟

– الآنسة تريفوسيس؟ نعم، إنها امرأة لا شك بقوتها؛ فتاة رائعة حقاً، وهي مصممة تماماً على تخليصه. وقد سيطرت على ذلك الصحفي، إندربي، وهي تديره كيفما تشاء. إنها أفضل بكثير من أن تكون خطيبة للسيد جيمس بيرسن؛ ففيما عدا وسامته ما كنتُ لأعتبر أن فيه شيئاً من الشخصية.

– ولكن إن كانت من النوع المسيطر فهذه هي النوعية التي تستهويها.

– حسناً، ما من ناظم يفسر أذواق الناس. أنت توافقني -إذن- على أن من الأفضل أن أتابع عذر غياب ديرنغ عن مسرح الجريمة دون أي تأخير.

– نعم، باشر في التحقيق بذلك على الفور. ماذا عن المستفيد الرابع من الوصية؟ يوجد مستفيد رابع، أليس كذلك؟

– نعم، أخت الكابتن، ولا غبار عليها أبداً. لقد حققتُ في ذلك. لقد كانت في البيت الساعة السادسة بالتأكيد يا سيدي. سأبدأ التحقيق فوراً بأمر ديرنغ.

* * *

بعد خمس ساعات من ذلك وجد المفتش ناراكوت نفسه -مرة أخرى- في غرفة الجلوس الصغيرة لمنزل نورك، وقد كان السيد ديرنغ

في البيت هذه المرة. وقالت الخادمة –في البداية– إن من الممنوع إزعاجه، إذ أنه يكتب، ولكن المفتش أبرز بطاقته الرسمية وأمرها أن تأخذها إلى سيدها دون تأخير. وقد أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وهو ينتظر، وكان عقله يعمل بنشاط. وبين حين وآخر كان يأخذ شيئاً صغيراً عن الطاولة وينظر إليه بشرود ثم يعيده إلى مكانه. علبة لفافات تبغ من صنع أسترالي على شكل آلة كمان، ربما كانت هدية من برايان بيرسن. أخذ عن الطاولة كتاباً قديماً بالياً بعض الشيء، رواية «الكِبر والهوى». فتح غلافها ورأى الاسم المكتوب على الورقة الداخلية بحبر باهت بعض الشيء: مارتا رايكروفت. بدا له اسم رايكروفت مألوفاً بعض الشيء، ولكنه لم يستطع تذكر السبب في تلك اللحظة، ثم قوطعت أفكاره حين فُتح الباب ودخل مارتن ديرنغ الغرفة.

كان الروائي رجلاً متوسط الطول ذا شعر كستنائي كثيف، وكان وسيماً بأسلوب فظ بعض الشيء، ذا شفاه غليظة حمراء. ولم يرق منظره كثيراً للمفتش ناراكوت الذي قال: صباح الخير يا سيد ديرنغ. آسف لإزعاجكم جميعاً مرة أخرى.

– آه، هذا لا يهم أيها المفتش، ولكني لا أستطيع –فعلاً– أن أخبرك بأكثر مما قيل لك أصلاً.

– لقد وُضعنا في موقف فهمنا منه أن السيد برايان بيرسن كان في أستراليا، والآن نجد أنه كان في إنكلترا خلال الشهرين الماضيين، وأظن أنه كان بإمكانكم أن تُلمّحوا لي بذلك. لقد أخبرتني زوجتك بالحرف الواحد أنه في نيو ساوث ويلز.

– برايان في إنكلترا؟!

بدا ديرنغ مندهشاً بصدق وقال: يمكنني أن أؤكد لك أيها المفتش أنني لم أكن أعرف تلك الحقيقة أبداً، وأنا واثق أن زوجتي لم تكن تعلم أيضاً.

– ألم يتصل بكما بأي شكل؟

– لا، والحقيقة أنني أعرف تمام المعرفة أن سيلفيا قد كتبت له رسالتين إلى أستراليا خلال هذه الفترة.

– في هذه الحالة أنا أعتذر يا سيدي، ولكني ظننتُ طبعاً أن من شأنه أن يتصل بأقربائه، وقد استأتُ منكما قليلاً لإخفاء ذلك عني.

– لم نكن نعرف شيئاً كما قلتُ لك. هل لك بلفافة أيها المفتش؟ وبالمناسبة، أرى أنكم أمسكتم مجدداً بالمجرم الهارب.

– نعم، أمسكنا به في وقت متأخر من ليل الثلاثاء. لقد كان من سوء حظه نزول الضباب بذلك الشكل؛ فقد مشى على شكل دائرة، وقطع نحواً من عشرين ميلاً ليجد نفسه على بعد نصف ميل من سجن برنستاون في النهاية.

– غريب كيف يتحرك الجميع بشكل دائري في الضباب. من الجيد أنه لم يهرب يوم الجمعة؛ إذ أحسب أن جريمة القتل تلك كانت ستُعزا إليه بشكل مؤكد.

– إنه رجل خطير. كانوا يسمونه فريمانتل فريدي، وكان يقوم

بأعمال السطو والعنف والاعتداء، وقد عاش حياة مزدوجة بالغة الغرابة. إذ كان يقضي نصف وقته كرجل غني محترم ومثقف. أنا نفسي لستُ واثقاً من أن مكانه الصحيح لم يكن مستشفى المجانين؛ فقد كان ينتابه من حين لآخر نوعٌ من جنون الإجرام، فكان يختفي ويصاحب أسوأ الشخصيات.

– لا أحسب أن الكثيرين ينجون من سجن برنستاون، أليس كذلك؟

– هذا قريب جداً من الاستحالة، ولكن محاولة الهروب هذه بعينها كانت رائعة التخطيط والتنفيذ، ولم نكد نصل –بعد– إلى كل حقائقها.

نهض ديرنغ ونظر إلى ساعته قائلاً: حسناً، إلّم يكن لديك المزيد أيها المفتش... أخشى أنني رجل كثير المشاغل.

– آه، ولكن لديّ –بالفعل– شيء آخر يا سيد ديرنغ. أريد أن أعرف لماذا أخبرتني أنك كنتَ في العشاء الأدبي في فندق سيسيل ليلة الجمعة؟

– أنا... أنا لا أفهمك أيها المفتش.

– بل أظنك تفهمني يا سيدي. أنت لم تكن في ذلك العشاء يا سيد ديرنغ.

تردد مارتن ديرنغ. تنقلت عيناه بتردد من وجه المفتش إلى

السقف، ثم إلى الباب، ثم إلى قدميه. وانتظر المفتش بهدوء وتبلد، فقال مارتن ديرنغ أخيراً: حسناً، وماذا لو لم أكن؟ وما علاقة ذلك بك أنت؟ ما علاقة تحركاتي –بعد خمس ساعات من مقتل خالي– بك أنت أو بأي شخص آخر؟

– لقد أدليت لنا بشهادة معينة يا سيد ديرنغ، وأريد التأكد من تلك الشهادة. وقد تبين أن جزءاً منها كان غير صحيح، وعليّ أن أتحقق من النصف الآخر. أنت تقول إنك تغديت وقضيت فترة بعد الظهر مع صديق لك.

– نعم... مع ناشر كتبي الأمريكي.

– ما اسمه؟

– روزنكراون، إدغار روزنكراون.

– وعنوانه؟

– لقد غادر إنكلترا... غادر يوم السبت الماضي.

– إلى نيويورك؟

– نعم.

– إذن فسيكون في عرض البحر في هذه اللحظة. في أية سفينة سافر؟

– إنني... إنني لا أذكر حقاً.

– أتعرف الشركة الناقلة؟ أهي شركة كونارد أم وايت ستار؟

– إنني... إنني لا أذكر حقاً.

– حسناً. سنبرق إلى تلك الشركة في نيويورك، وسيعرفون.

قال مارتن ديرنغ بنكد: لقد كانت السفينة «غارغانتوا».

– شكراً لك يا سيد ديرنغ، لقد ظننتُ أنك ستتذكر لو حاولت. والآن فإن شهادتك تقول إنك تغديت مع السيد روزنكراون وقضيت معه فترة بعد الظهر. في أي وقت تركتَه؟

– أظن أن ذلك كان في حوالي الساعة الخامسة.

– وبعد ذلك؟

– أرفض الإجابة... هذا ليس من شأنك. هذا كل ما تحتاج لمعرفته بالتأكيد.

أومأ المفتش ناراكوت برأسه متأملاً. إن أكد روزنكراون شهادة ديرنغ فإن أية قضية ضد ديرنغ ستتبخر في الهواء، فكائناً ما كانت أنشطته الغامضة في تلك الليلة فإنها لا تؤثر على القضية.

سأل ديرنغ بقلق: ما الذي ستفعله؟

– سأبرق للسيد روزنكراون على متن السفينة غارغانتوا.

صاح ديرنغ: تباً لذلك كله، سوف تورطني في كل أنواع

الفضائح. اسمعني هنا...

ذهب إلى مكتبه، فكتب بضع كلمات على ورقة ثم أخذها إلى المفتش وقال بنكد: أحسب أنك مصمم على فعل ما تريد فعله، ولكن افعله على الأقل بطريقتي أنا. ليس من الإنصاف أن تورط رجلاً في الكثير من المتاعب.

كان مكتوباً في الورقة:

إلى روزنكراون على متن الباخرة غارغانتوا: أرجو أن تؤكد شهادتي بأنني كنتُ معك وقت الغداء وحتى الساعة الخامسة يوم الجمعة الرابع عشر من هذا الشهر.
مارتن ديرنغ.

ثم قال: دع جواب البرقية يأتي فوراً إليك أنت... لا مانع عندي في ذلك، ولكن لا تجعله يُوجه إلى سكوتلانديارد أو أحد مخافر الشرطة. أنت لا تعرف طبيعة هؤلاء الأمريكيين. إن أي إشارة توحي بأنني على علاقة بقضية مع الشرطة ستجعل هذا العقد الذي كنتُ أناقشه معه يذهب أدراج الرياح. اجعلها قضية خاصة أيها المفتش.

– ليس لدي مانع من ذلك يا سيد ديرنغ؛ فكل ما أريده هو الحقيقة. سأرسل هذه البرقية بحيث يُرسل الجواب إلى عنواني الشخصي في إيكزيتر.

– شكراً لك؛ أنت رجل لطيف. ليس من السهل أن يكسب المرء عيشه من الأدب أيها المفتش. سترى أن الجواب سيكون على ما

يرام. لقد كذبتُ عليك بشأن العشاء، ولكن الحقيقة أنني أخبرت زوجتي أنني كنتُ هناك، ورأيت أن من الأفضل أن أبقي على نفس القصة معك أنت. ولولا ذلك لكان من شأني أن أدخل في الكثير من المتاعب مع زوجتي.

- إذا أكد السيد روزنكراون شهادتك -يا سيد ديرنغ- فلن يبقى شيء آخر تخشاه.

ثم فكر المفتش وهو يغادر البيت قائلاً لنفسه: شخصية كريهة، ولكنه يبدو متأكداً من أن هذا الناشر الأمريكي سيؤكد صحة أقواله.

جاءت ذكرى مفاجئة لذهن المفتش وهو يقفز إلى القطار الذي سيعيده إلى ديفون، فقال لنفسه: رايكروفت، بالطبع... هذا اسم الرجل الساكن في أحد بيوت سيتافورد. مصادفة غريبة.

* * *

الفصل الخامس والعشرون

في مقهى ديلر

كانت إيميلي تريفوسيس وتشارلز إندربي جالسين إلى طاولة صغيرة في مقهى ديلر في إيكزيتر. كانت الساعة الثالثة والنصف، وفي تلك الساعة كان هناك هدوء نسبي. كان قليل من الناس يتناولون أكواب الشاي بهدوء، ولكن المطعم كان مهجوراً بصفة عامة.

قال تشارلز: حسناً، ما رأيك به؟

قطبت إيميلي جبينها وقالت: الأمر صعب.

كان برايان بيرسن قد تناول الغداء معهما بعد مقابلته مع الشرطة، وقد كان شديد الأدب مع إيميلي، بل أكثر تأدباً من الطبيعي برأيها.

لقد بدا لتلك الفتاة الذكية أن هذا الأمر غير طبيعي إلى حد ما. فها هو شاب منخرط بعلاقة حب سرية، ويأتي غريب متطفل ليتدخل في شؤونه، وقد تعامل برايان بيرسن مع الأمر كالحمل الوديع، ووافق على اقتراح تشارلز باستئجار سيارة والذهاب إلى الشرطة. فلماذا موقف

الخنوع هذا؟ بدا ذلك لإيميلي مناقضاً تماماً لشخصية برايان بيرسن كما حلّلتها هي. شعرت أنه لو قال لتشارلز: "اذهب إلى الجحيم" لكان ذلك أقرب بكثير إلى شخصيته.

لقد كان هذا السلوك الخانع مريباً، وقد حاولت أن تنقل لتشارلز بعضاً من مشاعرها هذه فقال: إنني أفهمك. إن لدى صاحبنا هذا ما يخفيه، ولذلك لا يستطيع أن يتصرف بأسلوبه المتعجرف.

- هذا هو الأمر بالضبط.

- أتظنين أنه قد يكون قتل تريفليان العجوز؟

قالت إيميلي وهي تتأمل: إن برايان شخص... يُحسب حسابه. وأظنه غير ذي وازعٍ إلى حدٍ ما، ولو أراد شيئاً فلا أحسب أنه سيترك المعايير التقليدية العادية تقف في طريقه. إنه ليس مجرد إنكليزي عادي خانع.

- إذا ما وضعنا كل الاعتبارات الأخرى جانباً فإنه صاحب مبادرة وفعل أكثر من جيمس.

- بل أكثر بكثير. من شأنه أن ينفذ ما يعنُّ له بشكل جيد إلى النهاية... لأنه لن يفقد أعصابه أبداً.

- هل ترين -بصدق يا إيميلي- أنه قد فعلها؟

- إنني... لا أدري. إنه يلبي الشروط... وهو الوحيد الذي يلبيها.

- ماذا تعنين بقولك يلبي الشروط؟

قالت وهي تعدد على أصابعها: «١» الدافع: نفس الدافع، عشرون ألف جنيه. «٢» الفرصة: لا أحد يعرف أين كان مساء الجمعة، ولو أنه كان في أي مكان يمكنه التصريح به لقاله بالتأكيد. ولذلك نفترض أنه كان -عملياً- في منطقة منزل هيزلمور يوم الجمعة.

- ولكنهم لم يجدوا أحداً رآه في إيكزامبتن، وهو شخص من السهل تماماً ملاحظته.

هزت إيميلي رأسها بازدراء وقالت: لم يكن في إيكزامبتن. ألا ترى يا تشارلز، إن كان قد ارتكب الجريمة فلا بد أنه قد خطط لها مسبقاً. وحده البريء المسكين جيمس جاء إلى هنا كالساذج المغفل وبقي في الفندق. توجد أماكن قريبة من هنا، مثل ليدفورد أو تشاغفورد أو حتى إيكزيتر. ربما كان قد مشى إلى هنا من ليدفورد... يوجد طريق عام، وما كان الثلج ليجعل المرور به متعذراً، بل كان من شأن تلك المسيرة أن تكون سهلة.

- أظن أن علينا أن نقوم بالتحري في كل المنطقة.

- إن الشرطة يقومون بذلك، وسيقومون به أفضل منا بكثير. كل الأمور العامة يقوم بها الشرطة بشكل أفضل، أما الأمور الشخصية (كالإصغاء إلى السيدة كيرتيس، وأخذ تلميح من الآنسة بيرسهاوس، ومراقبة السيدة ويليت وابنتها) فتلك هي الأمور التي ننجح بها.

- أو لا ننجح، حسب الحالة.

– لنعد إلى برايان بيرسن وتلبيته للشروط. لقد ذكرنا شرطين، الدافع والفرصة، وبقي الشرط الثالث. وهو الذي أظن -بشكل ما- أنه أهم شرط على الإطلاق.

– وما هو؟

– لقد شعرتُ منذ البداية أننا لا نستطيع تجاهل ذلك الأمر الغريب الخاص بتحضير الأرواح، وقد حاولت أن أنظر إلى هذا الأمر بكل ما يمكنني من منطقية ووضوح رؤية، وأنا أجد له ثلاثة احتمالات: «١» أنه كان أمراً خارقاً، وقد يكون كذلك، ولكني أستبعد ذلك شخصياً. «٢» أنه كان متعمداً... أي أن أحدهم فعله قاصداً، ولكن بما أن المرء لا يمكن أن يتوصل إلى أي سبب يمكن تصوره لذلك فيمكننا أن نستبعد هذا الاحتمال أيضاً. «٣» أنه كان بمحض الصدفة. أي أن أحدهم فضح نفسه دون أن يقصد ذلك، بل بالضد من إرادته؛ حالة من البوح الذاتي غير الواعي. وإن كان الأمر كذلك فإن أحداً من بين أولئك الأشخاص الستة كان يعرف -حازماً- إما أن الكابتن تريفيليان سيقتل في وقت معين من ذلك المساء أو أن لأحد لقاء معه قد ينتج عنه عنف. لا أحد من أولئك الأشخاص الستة يمكن أن يكون القاتل الفعلي، ولكن أحدهم كان -دون شك- على تفاهم ضمني مع القاتل. لا توجد أية صلة بين الميجر بيرنابي وبين أحد آخر، ولا بين السيد رايكروفت وأحد آخر، ولا بين رونالد غارفيلد وأحد آخر، ولكن عندما نأتي إلى المرأتين ويليت فالأمر مختلف. فها هي صلة بين فايوليت ويليت وبرايان بيرسن. هذان الاثنان على علاقة وطيدة، وتلك الفتاة كانت في غاية القلق بعد الجريمة.

– أتظنين أنها كانت تعرف؟

– هي أو أمها... إحداهما.

– بقي شخص واحد لم تذكريه، السيد ديوك.

– أعرف، وهو أمر غريب؛ فهو الشخص الوحيد الذي لا نعرف عنه شيئاً أبداً. لقد حاولتُ رؤيته مرتين وفشلت، ولا يبدو أنه كان بينه وبين الكابتن تريفيليان أي علاقة، أو بينه وبين أيٍ من أقرباء الكابتن تريفيليان. لا شيء أبداً يربطه بالقضية، ومع ذلك...

قال تشارلز عندما توقفت إيميلي: ماذا؟

– ومع ذلك فقد قابلنا المفتش ناراكوت وهو خارج من بيته. ما الذي يعرفه المفتش ناراكوت عنه ولا نعرفه نحن؟ ليتني أعرف.

– ماذا تظنين؟

– ماذا لو كان ديوك شخصية مشبوهة ويعرف الشرطة ذلك؟ ماذا لو أن الكابتن تريفيليان قد اكتشف شيئاً عن ديوك؟ تذكّر أنه كان شديد التدقيق في مَن يسكن بيوته، وماذا لو أنه كان يريد إبلاغ الشرطة بما يعرفه، ورتب ديوك الأمر مع شريك له بحيث يقتله. آه، أنا أعرف أن هذا كله يبدو ميلودرامياً جداً على هذا النحو، ولكن مع ذلك، ربما كان شيء من هذا ممكناً.

قال تشارلز بتمهل: إنها فكرة بالتأكيد.

سكت الاثنان وقد غرق كل منهما في أفكاره. وفجأة قالت

إيميلي: أتعرف ذلك الشعور الغريب الذي يخامرك عندما ينظر إليك شخص ما دون أن تدري؟ أشعر الآن أن عيني شخص ما تلهب قفا رقبتي. هل هذا مجرد خيال أم أن أحداً يحدق بي الآن؟

حرك تشارلز كرسيه قليلاً ونظر حوله في المقهى بأسلوب عرضي ثم قال: هناك امرأة تجلس إلى طاولة قرب النافذة، طويلة سمراء ووسيمة. وهي تحدق فيك.

– أهي شابة؟

– لا، ليست شابة تماماً. آه!

– ما الأمر؟

– رونالد غارفيلد. لقد دخل لتوه وهو يصافحها ويجلس إلى طاولتها. أظنها تقول شيئاً عنا.

فتحت إيميلي حقيبتها، ثم تظاهرت بوضع شيء من المسحوق على وجهها وهي تعدل المرآة الصغيرة لتصبح في الاتجاه المناسب، ثم قالت بهدوء: إنها الخالة جينيفر. إنهما ينهضان.

– إنهما يذهبان. هل تريدين الحديث معها؟

– لا، أظن أن من الأفضل لي أن أتظاهر بأنني لم أرها.

قال تشارلز: ولماذا يُستغرب -في نهاية الأمر- أن تعرف الخالة جينيفر رونالد غارفيلد وتدعوه لتناول الشاي؟

– ولماذا تدعوه؟

– ولماذا لا تدعوه؟

– آه، بالله عليك يا تشارلز! لا تجعلنا نمضي في ذلك إلى ما لا نهاية: تدعوه، لا تدعوه، تدعوه، لا تدعوه... هذا كله سخف بالطبع، وهو لا يعني شيئاً! ولكننا كنا نقول -لتونا- إنه ما من أحد آخر ممن حضروا جلسة تحضير الأرواح تلك له علاقة بالعائلة، وما كادت تمر خمس دقائق حتى رأينا رونالد غارفيلد يتناول الشاي مع أخت الكابتن تريفيليان.

– هذا يُظهر أنك لا تستطيعين الحزم.

– هذا يُظهر أنك مضطرٌ دوماً للبدء من جديد.

– وبأكثر من طريقة.

نظرت إليه وقالت: ماذا تعني؟

– لا شيء في الوقت الحاضر.

نظر إليها ملياً ثم قال: يجب أن نكمل هذا الأمر، وبعد ذلك...

– بعد ذلك؟

– أنا مستعد لفعل أي شيء من أجلك يا إيميلي، أي شيء...

– حقاً؟ هذا لطف منك يا عزيزي تشارلز.

* * *

الفصل السادس والعشرون
مناقشة للاحتمالات

بعد عشرين دقيقة فقط من ذلك كان تشارلز وإيميلي في سيارة الفورد الخاصة بإيلمر وهي تمضي بهما وكلاهما في صمت، وكانا قد اقتربا من إيكزامبتن عندما كسرت إيميلي حاجز الصمت بملاحظة غير متوقعة أبداً: تشارلز، هل أنت من لاعبي البريدج؟

- نعم، لماذا؟

- كنتُ أفكر. أتعلم ما يقولونه لك عندما تُقوّم قوة ما بيدك من أوراق؟ إن كنت في مرحلة دفاع فإنهم يقولون لك: "عُدّ الفائزين"، ولكن إن كنت تهاجم فإنهم يقولون: "عُدّ الخاسرين". والآن، فإننا نهاجم فيما نحن فيه من هذا الأمر، ولكن ربما كنا نقوم بذلك بالطريقة الخاطئة.

- ماذا تعنين؟

- لقد كنا نعدُّ الفائزين، أليس كذلك؟ أعني أننا كنا نستعرض الأشخاص الذين يمكن أن يكونوا قد قتلوا الكابتن تريفيليان، مهما بدا

ذلك بعيد الاحتمال منهم. وربما كان ذلك هو السبب فيما وقعنا فيه من حيرة وتشابك شديدين.

- أنا لم أقع في مثل ذلك.

- حسناً، لقد وقعتُ أنا فيه إذن. إنني في أشد الحيرة والاضطراب بحيث لا أستطيع التفكير أبداً. دعنا ننظر إلى الأمر من الزاوية الأخرى. دعنا نعدّ الخاسرين... أي الأشخاص الذين لا يمكن أن يكونوا قد قتلوا الكابتن تريفيلیان.

- حسناً، دعينا ننظر. لدينا -بدايةً- السيدة ويليت وابنتها، وبيرنابي ورايكروفت ورونالد... آه! وديوك أيضاً.

- نعم. نحن نعرف أن أحداً منهم لا يمكن أن يكون قد قتله، ففي الوقت الذي قُتل فيه كانوا جميعاً في منزل سيتافورد، وقد رأوا جميعاً بعضهم البعض، ولا يمكن أن يكذبوا جميعاً. نعم، كلهم خارج هذا الأمر.

- الحقيقة أن كل من كان في قرية سيتافورد خارج هذا الأمر.

ثم خفض صوته خشية أن يسمعهما السائق وقال: حتى إيلمر؛ لأن الطريق إلى إيكزامبتن كان مغلقاً أمام السيارات يوم الجمعة.

قالت إيميلي بصوت منخفض أيضاً: ربما كان قد مشى مشياً. إن كان بوسع الميجر بيرنابي أن يمشي إلى هناك في تلك الليلة فإن بوسع إيلمر أن يكون قد انطلق وقت الغداء، ووصل إلى إيكزامبتن في الساعة الخامسة، فقتله وعاد ماشياً.

هز إندربي رأسه وقال: لا أحسب أنه كان يستطيع العودة ماشياً مرة أخرى، تذكرين أن الثلج قد بدأ يهطل في حوالي الساعة السادسة والنصف. ولكني لا أحسبك تتهمين إيلمر على أية حال، أليس كذلك؟

– لا، رغم أنه قد يكون من المصابين بجنون القتل بالطبع.

– هشش، ستجرحين مشاعره إذا ما سمعك.

– على أية حال فإنك لا تستطيع القول –جازماً– إنه لم يكن ليستطيع قتل الكابتن تريفيليان.

– بل أكاد أستطيع؛ فلا يمكن أن يمشي كل هذا الطريق إلى إيكزامبتن ثم يعود دون أن تعرف سيتافورد كلها بذلك وترى أن ذلك أمر غريب.

وافقته إيميلي قائلة: إنه –فعلاً– مكان يعرف الجميع فيه كل ما يجري.

– بالضبط، ولذلك فإنني أقول إن كل من كان في سيتافورد هو خارج هذا الأمر. والشخصان الوحيدان اللذان لم يكونا في ضيافة السيدة ويليت هما الآنسة بيرسهاوس والكابتن وايت، وهما مقعدان ولا يمكن لهما أن يخرجا ويقطعا تلك المسيرة في عواصف ثلجية. ولدينا صاحبتنا العزيزة السيدة كيرتيس وزوجها. ولو أن أياً منهما فعلها فلا بد أنهما ذهبا بارتياح إلى إيكزامبتن لقضاء عطلة نهاية الأسبوع وعادا بعد أن انتهى كل شيء.

ضحكت إيميلي وقالت: لا يمكنك أن تغيب عن سيتافورد في

عطلة نهاية الأسبوع دون أن يلاحظ ذلك أحد.

– كان من شأن السيد كيرتيس أن يلاحظ الصمت المطبق لو ذهبت زوجته.

– آه، لا بد أن من ارتكبها هو ذلك الخادم الهندي بالطبع. سيكون ذلك منسجماً مع خلفيته، فمن شأنه أن يكون بحاراً هندياً، وأن يكون الكابتن تريفيليان قد رمى أخاه من فوق إحدى السفن أثناء عصيان ما... شيء من هذا القبيل.

قال تشارلز: "لا يمكنني أن أصدق أن ذلك الرجل البسيط البائس يمكن له أن يقتل أحداً أبداً". ثم صاح فجأة: عرفت!

قالت إيميلي بلهفة: ماذا؟

– زوجة الحداد؛ تلك التي تنتظر مولودها الثامن! فقد أقدمت المرأة الجريئة –رغم حالتها– على قطع الطريق إلى إيكزامبتن وضربت الكابتن بكيس الرمل.

– ولماذا بالله عليك؟

– لأن الحداد كان أبا السبعة السابقين، إلاّ أن الكابتن تريفيليان كان هو الأب للثامن القادم.

– تشارلز، لا تكن بذيئاً! وعلى أية حال فقد كان من شأن الحداد نفسه أن يفعلها، وليس هي. فكّر كيف يمكن لتلك الذراع السمراء أن تلوّح بكيس رملي! ولم يكن من شأن زوجته أن تلاحظ

غيابه بوجود سبعة أطفال تعتني بهم، بل ما كان لها من الوقت ما تنتبه به لوجود أي رجل.

– لقد انحدر بنا الأمر إلى سخف مجرد.

– نعم، هذا صحيح. إنّ عدّ الخاسرين لم يلاقِ نجاحاً عظيماً.

قال تشارلز: ماذا عنك أنت؟

– أنا؟

– أين كنتِ عندما ارتُكبت الجريمة؟

– ما أغرب ذلك! لم أفكر في ذلك أبداً. كنتُ في لندن. ولكني لا أدري إن كان بوسعي إثبات ذلك؛ فقد كنتُ وحيدة في شقتي.

– انتهى الأمر إذن. لديك الدافع وكل شيء آخر؛ فسيرث خطيبك عشرين ألف جنيه، ما الذي تريدينه أكثر من ذلك؟

– أنت ذكي يا تشارلز. يمكنني الآن أن أرى أنني شخصية مشبوهة بالفعل. لم أفكر في ذلك من قبل أبداً!

* * *

الفصل السابع والعشرون

ناراكوت يتصرف

بعد يومين من ذلك كانت إيميلي تجلس في مكتب المفتش ناراكوت، وكانت قد أتت من سيتافورد في ذلك الصباح.

نظر المفتش ناراكوت إليها نظرة تقويم. كان معجباً بجرأة إيميلي وبتصميمها الشجاع على عدم الاستسلام. لقد كانت مقاتلة، والمفتش ناراكوت يُعجب بالمقاتلين، وكان رأيه الشخصي أنها أفضل بكثير من أن تكون خطيبة لجيمس بيرسن، حتى لو كان ذلك الشاب بريئاً من تهمة القتل.

قال المفتش: من الوارد عموماً في الروايات أن يكون الشرطة حريصين على العثور على ضحية وغير مهتمين أبداً إن كانت تلك الضحية بريئة أم لا، طالما أن لدى الشرطة ما يكفي من الأدلة لإدانتها. ولكن تلك ليست حقيقة يا آنسة تريفوسيس؛ فنحن لا نريد إلاّ الرجل المذنب.

– هل تؤمن حقاً بأن جيمس مذنب أيها المفتش؟

- بوسعي أن أعطيك إجابة رسمية عن هذا السؤال يا آنسة تريفوسيس، ولكني سأقول لك ما يلي: إننا لا نكتفي بتحري الأدلة المتوفرة ضده فحسب، بل نتحرى الأدلة المتوفرة ضد الآخرين بكل تمحيص.

- أتعني ضد أخيه... برايان؟

- إن حالة السيد برايان بيرسن مقنعة تماماً؛ فقد رفض الإجابة عن أي أسئلة أو إعطاء أي معلومات عن نفسه، ولكنني أظن...

ثم اتسعت ابتسامة المفتش وأكمل يقول: أظن أن بوسعي أن أخمن بكثير من الدقة بعض أنشطته. وإلّم أكن مخطئاً فإنني سأعرف بعد نصف ساعة من الآن. ولدينا أيضاً زوج السيدة، السيد ديرنغ.

سألت إيميلي بفضول: هل رأيتَه؟

نظر المفتش إلى وجهها النضر وشعر بإغراء يدفعه للتقليل من حذره الرسمي. اتكأ في مقعده إلى الخلف ثم روى لها ما حصل في لقائه مع السيد ديرنغ، ثم أخرج من ملف عند مرفقه نسخة عن البرقية التي أرسلها للسيد روزنكراون وقال: هذا ما أرسلتُه، وها هو الجواب.

قرأته إيميلي:

السيد ناراكوت، ٣ شارع دريسديل، إيكزيتر. أؤكد تماماً أقوال السيد ديرنغ؛ فقد كان معي طوال عصر يوم الجمعة. روزنكراون.

قالت إيميلي: آه، يا له من إزعاج!

قال المفتش ناراكوت متأملاً: "نعم، إنه أمر مزعج، أليس كذلك؟". ثم انفرجت أساريره عن ابتسامة بطيئة من جديد وقال: ولكنني رجل شكّاك يا آنسة تريفوسيس. لقد بدت مبررات السيد ديرنغ مقبولة تماماً، ولكني رأيت أن من المؤسف أن أصدقه بشكل كامل بشكل يستفيد منه. ولذلك فقد أرسلتُ برقية أخرى.

ثم ناولها من جديد ورقتين. كانت البرقية الأولى تقول:

إن المطلوب معلومات بشأن مقتل الكابتن تريفيليان. هل تدعم شهادة مارتن ديرنغ بالغياب عن مسرح الجريمة بعد ظهر يوم الجمعة؟

مفتش المقاطعة ناراكوت، إيكزيتر.

أما البرقية الجوابية فقد أظهرت انفعالاً أكثر:

لم تكن لدي فكرة بأنها قضية جرمية. أنا لم أرَ مارتن ديرنغ يوم الجمعة، وقد وافقت على دعم أقواله كصديق لصديق ظناً مني أن زوجته تراقبه من أجل المضي بإجراءات الطلاق.

هتفت إيميلي: آه، آه!... أنت ذكي أيها المفتش.

بدا واضحاً أن المفتش يرى أنه كان حقاً ذكياً. كانت ابتسامته هادئة راضية. وقالت إيميلي وهي تنظر إلى البرقيتين: كيف يتستر

الرجال على بعضهم البعض! مسكينة سيلفيا. أحياناً أرى حقاً أن الرجال وحوش؛ ولذلك يكون الأمر رائعاً جداً عندما تعثر المرأة على رجل تستطيع الاعتماد عليه بالفعل.

ثم ابتسمت بإعجاب للمفتش الذي قال لها محذراً: هذا كله سري بالطبع. لقد مضيتُ أبعد مما ينبغي لي إذ أطلعتك على هذا.

- أظن ذلك رائعاً منك. لن أنسى لك ذلك أبداً أبداً.

حذرها المفتش من جديد قائلاً: حسناً، ولكن انتبهي، لا تبوحي بكلمة لأي شخص.

- أتعني أن عليّ ألاّ أخبر تشارلز... السيد إندربي؟

- إن الصحفيين يبقون صحفيين، بغض النظر عن مقدار تطويعك له يا آنسة تريفوسيس، فالخبر هو الخبر بالنسبة له، أليس كذلك؟

- لن أخبره إذن. أظن أنني فرضتُ عليه السكوت تماماً، ولكن الأمر كما تقول؛ فالصحفيون هم الصحفيون.

- لا تبوحي بالمعلومات دون ضرورة... هذه هي قاعدتي.

تلألأت في عيني إيميلي ومضة خفيفة، وكانت فكرتها التي لم تقلها هي أن المفتش ناراكوت قد خرق هذه القاعدة بشكل واضح في نصف الساعة الأخيرة.

خطرت لذهنها ذكرى مفاجئة، رغم أنها لم تكن تهم كثيراً الآن؛ فقد كانت كل المؤشرات تنحو نحواً مختلفاً تماماً. ولكن مع

ذلك، سيكون من الرائع أن تعرف. قالت فجأة: أيها المفتش! من هو السيد ديوك؟

- السيد ديوك؟

ظنت أن المفتش قد فوجئ قليلاً بسؤالها. قالت: أتذكر؟ لقد قابلناك وأنت تخرج من بيته في سيتافورد.

- آه، نعم، نعم، أذكر ذلك. إذا أردت الحقيقة -يا آنسة تريفوسيس- فإنني أحببتُ أن أسمع وصفاً محايداً لمسألة تحضير الأرواح تلك؛ فالميجر بيرنابي ليس متميزاً في الوصف.

قالت إيميلي بتأمل: ومع ذلك لو كنتُ مكانك لذهبتُ إلى شخص مثل السيد رايكروفت لهذا الغرض. لماذا السيد ديوك؟

ساد بعض الصمت، ثم قال المفتش: مجرد مسألة رأي.

- إني لأتساءل... أتساءل إن كان الشرطة يعرفون شيئاً عن السيد ديوك.

لم يجبها المفتش ناراكوت. كانت عيناه مركزتين بكل ثبات على الورق النشّاف.

قالت إيميلي: الرجل الذي يعيش حياة لا تشوبها شائبة! يبدو أن هذا الوصف ينطبق تماماً على السيد ديوك، ولكن ماذا لو لم يعش دوماً حياة لا تشوبها شائبة؟ ماذا لو كان الشرطة يعرفون ذلك؟

رأت رعشة خفيفة على وجه المفتش ناراكوت وهو يحاول

إخفاء ابتسامة، ثم قال بمودة: أنت تحبين التخمين، أليس كذلك يا آنسة تريفوسيس؟

– عندما لا يخبرك الناس بالأمور، فأنت تضطر للتخمين!

– إذا كان رجل –كما تقولين– يعيش حياة لا تشوبها شائبة، وإذا كان يزعجه ويضايقه أن تتم إثارة حياته الماضية، فإن على الشرطة المحافظة على أسراره. إننا لا نتمنى فضح الناس.

– فهمت. ولكنك ذهبتَ لرؤيته، أليس كذلك؟ ويبدو من ذلك كما لو أنك ظننتَ –بدايةً على الأقل– أنه ربما كانت له يد في هذا الأمر. ليتني... ليتني أعرف ماذا كان السيد ديوك حقيقة؟ وما هو الفرع المحدد من الإجرام الذي كان متورطاً به في الماضي؟

نظرت بتوسل إلى المفتش، ولكنه حافظ على وجه جامد كالخشب، وعندما أدركت أنها لن تستطيع التأثير عليه في هذه النقطة تنهدت واستأذنت بالانصراف.

وعندما ذهبت جلس المفتش يحدق في الورق النشّاف وأثر ابتسامة يلوح على شفتيه. ثم قرع جرساً فجاءه أحد مرؤوسيه، فقال له المفتش: حسناً، ماذا لديك؟

– صحيح تماماً يا سيدي، ولكنه لم يكن فندق داتشي في برنستاون، بل الفندق الذي في تو بريدجيز.

– آه!

أخذ المفتش الأوراق التي سلمها له مرؤوسه وقال: حسناً، هذا

يحل الموضوع. هل تابعتَ تحركات الشاب الآخر يوم الجمعة؟

– لقد وصل بالتأكيد إلى إيكزامبتن في آخر قطار، ولكني لم أجد –بعد– في أي وقت غادر لندن. التحريات تجري.

أومأ ناراكوت برأسه، وقال مرؤوسه: هذه هي صورة مما هو موجود في سجل الزيجات يا سيدي.

فتح ناراكوت الورقة. كانت صورة عن عقد زواج في عام ١٨٩٤ بين ويليام مارتن ديرنغ ومارتا إليزابيث رايكروفت. قال المفتش: آه! هل من شيء آخر؟

– نعم يا سيدي. لقد أبحر السيد برايان بيرسن من أستراليا على متن سفينة اسمها فيدياس. وقد مرت السفينة على كيب تاون في جنوب أفريقيا، ولكن لم تكن على متنها مسافرات باسم ويليت. لم تركب السفينة أي أم وابنتها من جنوب أفريقيا. كان هناك سيدة تدعى إيفانز مع ابنتها، وسيدة أخرى تدعى جونسن مع ابنتها، وكلهم جاؤوا من ميلبورن. والسيدة الأخيرة وابنتها تنطبق أوصافهما على السيدة ويليت وابنتها.

– هممم... جونسن. وربما لا يكون الاسم الصحيح أياً من جونسن أو ويليت. أظنني أمسكتُ بهما تماماً. هل من مزيد؟

لم يكن أي مزيد فيما يبدو، فقال المفتش: حسناً، أظن أن لدينا ما يكفي لنسير على هديه.

* * *

الفصل الثامن والعشرون

زوج من الأحذية الثقيلة

قال السيد كيركوود: ولكن –يا شابتي العزيزة– ما الذي يمكن أن تتوقعي العثور عليه في هيزلمور؟ لقد نُقلت كل أغراض الكابتن تريفيليان، وقد قام الشرطة بتفتيش دقيق للبيت. إنني أفهم تماماً موقفك ولهفتك على... على تبرئة السيد بيرسن إن أمكن. ولكن ما الذي تستطيعين فعله؟

أجابت إيميلي: أنا لا أتوقع العثور على شيء أو ملاحظة شيء أغفلته الشرطة. لا أستطيع أن أشرح لك ذلك يا سيد كيركوود. إنني... إنني أريد فهم جو المكان. أرجوك أن تعطيني المفاتيح؛ فليس في ذلك ضرر.

قال السيد كيركوود بشيء من الكرامة: طبعاً لا ضرر.

– إذن تلطف عليّ أرجوك.

وهكذا تلطف السيد كيركوود عليها وسلمها المفاتيح بابتسامة

محبة، وقد بذل كل جهده للذهاب معها، وكانت تلك كارثة قاومتها إيميلي بكل لباقة وحزم.

كانت إيميلي قد تلقت في ذلك الصباح رسالة، وكانت الرسالة من السيدة بيلنغ وتقول:

الآنسة العزيزة تريفوسيس،

لقد قلتِ إنك تودين أن تسمعي بأي شيء يمكن ان يحدث ويكون غريباً خارجاً عن المألوف بأي شكل حتى لو لم يكن مهماً. وبما أن هذا الأمر غريب، رغم أنه ليس هاماً بأي شكل، فقد رأيت أن من واجبي أن أُبلغك على الفور، آملة أن تصلك هذه الرسالة في آخر بريد مسائي الليلة أو في أول بريد غداً. لقد جاءت ابنة أختي وقالت إن الأمر ليس هاماً أبداً، الأمر الذي أتفق معها فيه. لقد قال الشرطة إن شيئاً من حاجيات الكابتن تريفيليان لم يؤخذ من البيت، والحقيقة أن أي شيء هام لم يؤخَذ، ولكن يوجد شيء مفقود رغم أن أحداً لم يلاحظه باعتباره غير مهم. يبدو –يا آنسة– أن زوجاً من أحذية الكابتن مفقود، وقد لاحظ إيفانز ذلك عندما ذهب لترتيب الأغراض مع المبحر بيرنابي. ومع أنني لا أظن أن لذلك أية أهمية يا آنسة، إلاّ أنني رأيت أنك قد تودين معرفة ذلك. لقد كان زوجاً من الأحذية الثقيلة السميكة التي تُفرك بالزيت، والذي كان من شأن الكابتن أن يلبسه إذا ما خرج في الثلج، ولكن بما أنه لم يخرج في الثلج فيبدو أن ذلك ليس له أي معنى. ولكن

الحذاء مفقود، ولا أحد يعلم من أخذه. ورغم أنني أعرف ألاّ أهمية لذلك فقد رأيت أنّ من واجبي أن أكتب لك. وآمل أن تصلك رسالتي، وألاّ تكوني شديدة القلق على السيد الشاب، وسأبقى دوماً المخلصة.

السيدة ج. بيلنغ

كانت إيميلي قد قرأت تلك الرسالة وأعادت قراءتها، ثم ناقشتها مع تشارلز الذي قال متأملاً: حذاء؟ لا يبدو لذلك أي معنى!

– لا بد أن يعني ذلك شيئاً. أعني... لماذا يُفقَد زوج من الأحذية؟

– ألا تظنين أن إيفانز ربما اخترع ذلك؟

– ولماذا يخترعه؟ وعلى كلٍ فإن الناس عندما يخترعون فإنهم يخترعون شيئاً معقولاً، وليس شيئاً سخيفاً لا هدف له كهذا.

قال تشارلز وهو يتأمل: الأحذية توحي بشيء ذي علاقة بآثار الأقدام.

– أعرف. ولكن آثار الأقدام لا شأن لها بهذه القضية أبداً. ربما لو لم يهطل الثلج مرة أخرى...

قال تشارلز: "نعم، ربما. ولكن حتى في تلك الحالة..."، ثم أضاف بعد صمت قصير: أيمكن أن يكون قد أعطاه لمشرد ما، ثم قام المشرد بقتله؟

– هذا ممكن، ولكنه لا يبدو من سمات الكابتن تريفيليان؛ فقد كان من شأنه –مثلاً– أن يعطي أحداً شلناً، ولكنه ما كان ليعطي أفضل أحذيته الشتوية لأحد.

– حسناً، إنني أستسلم.

– أما أنا فلن أستسلم؛ سأصل إلى قرارة هذا الأمر بأية وسيلة.

وبناء على ذلك جاءت إلى إيكزامبتن، وذهبت –بدايةً– إلى فندق ثري كراونز حيث استقبلتها السيدة بيلنغ بحماسة عظيمة.

– وما يزال خطيبك الشاب في السجن يا آنسة؟ يا له من عار! حيث لا يؤمن أحد منا أنه هو الذي فعلها أبداً. إذن فقد استلمتِ رسالتي؟ هل تودين رؤية إيفانز؟ حسناً، إنه يسكن بعد الزاوية تماماً، في المنزل رقم ٨٥ بشارع فور. ليتني أستطيع القدوم معك، ولكني لا أستطيع ترك الفندق، ولكن لا يمكنك أن تخطئي في العنوان.

ولم تخطئ إيميلي العنوان. كان إيفانز نفسه خارجاً، ولكن زوجته استقبلتها ودعتها للدخول. جلست إيميلي ثم دخلت مباشرة في الموضوع: لقد جئتُ لأتحدث حول ما قاله زوجك للسيدة بيلنغ؛ أعني حول زوج مفقود من أحذية الكابتن تريفيليان.

– إنه أمر غريب بالتأكيد.

– هل زوجك متأكد من الأمر تماماً؟

– نعم. لقد كان الكابتن يلبس ذلك الحذاء معظم أيام الشتاء،

وكان حذاء ضخماً ثقيلاً، وكان يلبس زوجين من الجوارب داخله.

أومأت إيميلي برأسها وقالت: ألا يمكن أن يكون قد أخذ للإصلاح أو لشيء من ذلك القبيل؟

قالت السيدة إيفانز بفخر: لا يمكن ذلك دون معرفة إيفانز.

– نعم، أحسب هذا.

– إنه أمر غريب، ولكن لا أحسب أن لذلك أية علاقة بالجريمة، ما رأيك أنت يا آنسة؟

وافقتها إيميلي قائلة: نعم، لا يبدو ذلك محتملاً.

– هل وجدوا جديداً في القضية يا آنسة؟

كان صوت الفتاة متلهفاً. وأجابت إيميلي: نعم، وجدوا بضعة أشياء... ولكنها ليست مهمة كثيراً.

– لقد رأيتُ المفتش القادم من إيكزيتر هنا ثانية فظننتُ أنهم ربما اكتشفوا شيئاً.

– المفتش ناراكوت؟

– نعم يا آنسة.

– هل جاء بنفس قطاري؟

– لا، بل بسيارة. وقد ذهب إلى الفندق وسأل عن أمتعة الشاب.

– أمتعة أي شاب؟

– الشاب الذي تخرجين معه يا آنسة.

حدقت بها إيميلي، فيما مضت الفتاة قائلة: لقد سألوا توم، وقد مررتُ على الفندق بعد ذلك مباشرة فحكى لي القصة. إن توم رجل شديد الملاحظة، وقد تذكر وجود مُلصَقين اثنين على أمتعة الشاب؛ مُلصق إلى إيكزيتر وآخر إلى إيكزامبتن.

أضاءت ابتسامة وجه إيميلي وهي تتخيل الجريمة وقد ارتكبها تشارلز ليؤمّن لنفسه سبقاً صحفياً مثيراً، ورأت أن بوسع المرء أن يكتب قصة فظيعة حول هذا الموضوع. ولكنها أُعجبت بدقة وشمولية المفتش ناراكوت في تحققه من كل صغيرة وكبيرة عند جميع الأطراف، مهما كانت صلتهم بعيدة بالجريمة. لا بد أنه غادر إيكزيتر بعد لقائها معه مباشرة، فمن شأن سيارة سريعة أن تسبق القطار، وكانت قد تغدت في إيكزيتر على كل حال. سألت مضيفتها: أين ذهب المفتش بعد ذلك؟

– إلى سيتافورد يا آنسة، فقد سمعه توم يقول ذلك للسائق.

– إلى منزل سيتافورد؟

كانت تعرف أن برايان بيرسن ما زال يقيم في منزل سيتافورد لدى السيدة ويليت.

– لا يا آنسة، بل لبيت السيد ديوك.

السيد ديوك مرة أخرى؟ شعرت إيميلي بالحيرة والانزعاج؛ فدائماً

تصطدم بديوك... العامل المجهول. شعرت أنه كان عليها أن تستنتج حقيقته من الدلائل المتوفرة، ولكن بدا أنه قد خلّف نفس الأثر لدى الجميع... رجل طبيعي عادي يبعث على الارتياح. قالت لنفسها: يجب أن أراه، سأذهب مباشرة إليه فور عودتي إلى سيتافورد.

ثم شكرت السيدة إيفانز وذهبت إلى السيد كيركوود فحصلت على المفتاح، وها هي تقف الآن في صالة منزل هيزلمور وتتعجب ماذا توقعت أن تشعر هناك.

صعدت الدرج ببطء ودخلت إلى أول غرفة عند قمة الدرج. بدا -بوضوح- أن تلك كانت غرفة نوم الكابتن تريفيليان. كانت قد أُفرغت من الأغراض الشخصية (كما قال السيد كيركوود)، ولم يتبقَّ في الخزانة شيء أبداً. وقد بدت خزانة الأحذية مجرد صف من الرفوف الخالية.

تنهدت إيميلي ثم استدارت ونزلت إلى الطابق السفلي. كانت هناك غرفة الجلوس حيث كان القتيل يتمدد والثلج يدخل من الباب الزجاجي المفتوح. وحاولت تخيل المشهد: يدُ مَنْ تلك التي امتدت وضربت الكابتن تريفيليان، ولماذا؟ هل قُتل في الساعة الخامسة وخمس وعشرين دقيقة كما يعتقد الجميع، أم أن جيمس قد فقد شجاعته فعلاً وكذب؟ هل فشل في إسماع أحدٍ طرقاته على الباب الأمامي فالتفّ وذهب إلى الباب الزجاجي خلفَ المنزل، ثم نظر فرأى جثة خاله الميت فاندفع هارباً في نوبة رعب؟ لو أنها تعرف فقط! لقد قال السيد داكرز إن جيمس قد أصر على روايته. نعم، ولكن ربما كان جيمس قد فقد شجاعته. لا يمكنها الجزم بذلك.

هل كان في البيت أحد آخر كما اقترح السيد رايكروفت؟ أحدٌ سمع المشاجرة واغتنم الفرصة؟ وإن كان الأمر كذلك، فهل يفسر ذلك -بأي شكل- مشكلة الحذاء؟ هل كان أحدهم في الطابق العلوي... وربما في غرفة نوم الكابتن؟

عبرت إيميلي الصالة من جديد وألقت نظرة عجلى على غرفة الطعام. كان هناك صندوقان محزومان بشكلٍ جيد وعليهما ملصقات تحدد وجهتهما، وكان الرف الجانبي فارغاً ليس عليه شيء؛ فقد كانت أكواب الفضة في بيت الميجر بيرنابي.

ولكنها لاحظت أن الروايات التي تلقاها الكابتن كجائزة -والتي استمع تشارلز لشرح عنها من إيفانز ورواه لها بكثير من التزويق- كانت قد نُسيت وتُركت مهجورةً على كرسي هناك.

نظرت حولها في الغرفة وهزت رأسها. لم يكن شيء هنا. وصعدت الدرج ثانية ودخلت غرفة النوم من جديد.

يجب أن تعرف لماذا فُقد ذلك الحذاء! فقد شعرت أنها لا تستطيع إزاحة هذا الموضوع من ذهنها ما لم تنجح في أن تبني لنفسها نظرية مقنعة إلى حد معقول تفسّر اختفاء الحذاء. كان موضوع الحذاء يتضخم إلى أبعاد هائلة تُقزّم كلَ المسائل الأخرى المتعلقة بالقضية. أليس من شيء يساعدها؟

سحبت الأدراج واحداً واحداً وتلمست خلفها؛ ففي الروايات البوليسية توجد -دوماً- قصاصة ورق تهدي المرء. ولكن من الواضح أن المرء لا يستطيع توقع مثل هذه الصدفة السعيدة في الحياة الواقعية،

أو أن المفتش ناراكوت ورجاله كانوا دقيقين في تفتيشهم إلى حد مُعجز. تلمست بحثاً عن ألواح خشبية مرتخية، تلمست أطراف السجادة كلها بأصابعها، تفحصت الفراش ذا النوابض. ولم تكد تعرف ما الذي كانت تتوقع العثور عليه في كل تلك الأماكن، ولكنها مضت في بحثها بإصرار عنيد.

وبعد ذلك، وهي تعتدل وتقف على قدميها، لفت نظرها أمر واحد بدا غير منسجم -بعض الشيء- مع كل هذا الترتيب الشديد في الغرفة؛ كومة صغيرة من السُخام في أرضية الموقد.

نظرت إليها إيميلي بتلك النظرة المسحورة التي ينظر بها طائر إلى أفعى. اقتربت ونظرت إلى الكومة، ولم يكن في الأمر استنتاج منطقي ولا محاججة عقلانية لسبب ونتيجة، كان الأمر -ببساطة- أن منظر السخام بهذا الشكل أشار إلى احتمال معين. رفعت إيميلي أكمامها وأدخلت كلتا يديها في المدخنة.

وبعد دقيقة كانت تحدق بفرح وعدم تصديق إلى كيس ملفوف بترتيب ضمن صحيفة. وبهزة واحدة نزعت الصحيفة لترى أمامها زوج الأحذية المفقود.

قالت: ولكن لماذا؟ ها هما. ولكن لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟!

حدقت في الحذاء، قلّبته، تفحصته من الخارج والداخل. وكان نفس السؤال يقرع ذهنها باستمرار: لماذا؟

فإذا ما سلّمنا أن أحدهم قد أخذ حذاء الكابتن تريفيليان وخبأه في المدخنة، فلماذا فعل ذلك؟ صاحت بيأس: آه، سوف أُجن!

وضعت الحذاء بحذر وسط أرض الغرفة، ثم سحبت كرسياً وجلست قبالته، وراحت تفكر بالأمور منذ البداية، مستعرضة كل نقطة كانت تعرفها بنفسها أو سمعتها من الآخرين. فكرت بكل شخص لعب دوراً في هذه المأساة أو كان خارجها.

وفجأة بدأت فكرة غائمة غريبة تتشكل في ذهنها... فكرة أوحى بها ذلك الحذاء المحايد الذي استقر هناك أبكم جامداً على أرض الغرفة. قالت لنفسها: ولكن إن كان الأمر كذلك... إن كان كذلك...

أخذت الحذاء بيدها وهرعت إلى الطابق السفلي. فتحت باب غرفة الطعام ومضت إلى الخزانة في الزاوية، وهناك كانت عدة الكابتن تريفيليان المنوّعة من أدوات الرياضة وألبستها. كل الأشياء التي لم يثق بوضعها في متناول من استأجر بيته من النساء: ألواح التزلج، والمجاذيف، وقدم الفيل، والأنياب، وقضبان صيد السمك... كل الأغراض ما زالت تنتظر شركة النقل لتحزمها جميعاً بشكل محترف ليُصار إلى خزنها بعد ذلك.

انحنت إيميلي والحذاء بيدها، وما هي إلاّ دقيقة أو اثنتان حتى انتصبت وقد احمرّ وجهها غيرَ مصدقة.

- هكذا كان الأمر إذن... هكذا كان الأمر.

رمت بنفسها على كرسي. كان ما زال أمامها الكثير مما لم تفهمه. وبعد عدة دقائق نهضت واقفة وتكلمت بصوت عالٍ قائلة: أنا أعرف من قتل الكابتن تريفيليان، ولكني لا أعرف لماذا. ولكن ينبغي ألاّ أضيع وقتاً.

أسرعت خارجة من هيزلمور. كان العثور على سيارة تقلها إلى سيتافورد مسألة لا تتطلب أكثر من دقائق قليلة. طلبت من السيارة أن تأخذها إلى بيت السيد ديوك. وهناك دفعت للسائق أجره ثم مشت في الممر المؤدي إلى الباب الأمامي فيما ابتعدت السيارة.

أمسكت بمطرقة الباب وقرعته بصوت عال. وبعد لحظات فتح البابَ رجلٌ مربوع ذو وجه يكاد يخلو من التعابير.

ولأول مرة قابلت إيميلي السيد ديوك وجهاً لوجه. قالت: السيد ديوك؟

– نعم.

– أنا الآنسة تريفوسيس. هل لي أن أدخل من فضلك؟

مضت لحظة تردد، ثم تنحى جانباً ليفسح لها مجال الدخول. مشت إيميلي إلى غرفة الجلوس، وأغلق هو الباب الأمامي وتبعها. قالت إيميلي: أريد رؤية المفتش ناراكوت. أهو هنا؟

ومرة أخرى مضت لحظة تردد. بدا السيد ديوك غير واثق من كيفية الإجابة، وأخيراً بدا أنه اتخذ قراره. ابتسم... ابتسامة غريبة بعض الشيء، وقال: المفتش ناراكوت هنا. لماذا تريدين رؤيته؟

أخذت إيميلي اللفافة التي كانت تحملها وفتحتها، ثم أخرجت منها زوج الأحذية ووضعته على الطاولة أمامها وقالت: أريد رؤيته بشأن هذا الحذاء.

* * *

الفصل التاسع والعشرون
الجلسة الثانية لتحضير الأرواح

قال رونالد غارفيلد: مرحى، مرحى.

توقف السيد رايكروفت بعد أن كان يصعد ببطء الطريق الصاعد من مكتب البريد حتى لحق به رونالد وقال له: أكنت في محلات هارودز الخاصة بقريتنا؟ لدى العجوز هيبرت.

– لا، بل كنت أتمشى قليلاً إلى ما بعد مشغل الحداد. الجو رائع اليوم.

رفع رونالد بصره إلى السماء الزرقاء وقال: نعم، إنه مختلف قليلاً عن الأسبوع الماضي. وبالمناسبة، أحسبك ستذهب إلى بيت السيدتين ويليت، أليس كذلك؟

– نعم، وأنت أيضاً؟

– نعم. فلديهما البقعة البهيجة الوحيدة في سيتافورد. يجب ألاّ تدع نفسك تكتئب... هذا هو شعارهما. الاستمرار في الحياة كالعادة.

خالتي تقول إن دعوتهما الناس لتناول الشاي بعد هذا الوقت القصير على الجنازة دليل على افتقارهما للّباقة، ولكن ذلك هراء. إنها لا تقول ذلك إلاّ لأنها منزعجة بشأن إمبراطور بيرو.

قال السيد رايكروفت مندهشاً: إمبراطور بيرو؟!

– إحدى تلك القطط التعيسة، التي تبين أخيراً أنها إمبراطورة أنثى، وقد أزعج ذلك الخالة كارولين بالطبع... ولذلك فإنني أرى أنها أفرغت ما في صدرها من غضب بإطلاق عبارات لئيمة على السيدة ويليت وابنتها. لماذا لا تدعوان الناس لتناول الشاي؟ فالكابتن تريفيليان لم يكن قريباً لهما أبداً.

– صحيح تماماً.

قال السيد رايكروفت ذلك وهو يلتفت ليتابع طائراً مرّ من فوقهما، وظن رايكروفت أنه رأى فيه نوعاً نادراً من الطيور، فتمتم قائلاً: يا للإزعاج! ليت منظاري معي.

– إيه! وبمناسبة الحديث عن تريفيليان، هل تظن أن السيدة ويليت ربما كانت تعرف ذلك العجوز أكثر مما تقول؟

– لماذا تسأل ذلك؟

– بسبب التغير الذي أصابها. هل رأيت مثل ذلك من قبل؟ لقد كبرتْ عشرين سنة في الأسبوع الماضي. لا بد أنك لاحظتَ ذلك.

– نعم، لقد لاحظتُه.

– حسناً، فالأمر كذلك إذن. لا بد أن موت تريفيليان كان أفظع صدمة تصيبها بشكل أو بآخر. غريب إذا ما تبين أنها زوجة الكابتن المفقودة منذ أمد بعيد، التي هجرها في شبابه ولم يستطع التعرف عليها هنا.

– لا أكاد أرى ذلك ممكناً.

– في ذلك الكثير من مبالغات السّنما، أليس كذلك؟ ومع ذلك فإن أموراً غريبة جداً قد تحدث. لقد قرأت بعض الأمور المدهشة حقاً في صحيفة ديلي واير... أمور ما كنتَ لتصدقها لو لم تنشرها صحيفة.

سأل السيد رايكروفت بشيء من اللوم: وهل تزداد مصداقيتها إذا ما نُشرت في صحيفة؟

– أنت تحمل ضغينة على الشاب إندربي، أليس كذلك؟

– إنني أكره دس الأنوف البغيض في الشؤون التي لا تعني المرء.

أصر رونالد قائلاً: نعم، ولكن تلك الأمور تعنيه بالفعل. أعني أن دس الأنف هو مهنة هذا الشاب المسكين. يبدو أنه قد طوّع بيرنابي العجوز أيما تطويع. غريب، إن ذلك العجوز لا يكاد يطيق رؤيتي. أنا بالنسبة له مثل قطعة قماش أحمر بالنسبة لثور.

لم يجبه السيد رايكروفت. فقال رونالد ثانية وهو ينظر إلى السماء: يا إلهي! هل تدرك أن اليوم هو الجمعة؟ قبل أسبوع بالضبط،

وفي مثل هذا الوقت تقريباً، كنا نسير إلى منزل السيدة ويليت كما نفعل الآن تماماً. غير أن في الطقس بعض التغيير.

- منذ أسبوع... يبدو ذلك أطول بكثير من أسبوع.

- بل أقرب إلى عام، أليس كذلك؟ مرحباً يا عبدو.

كانا يعبران بوابة بيت الكابتن وايّت التي كان الهندي الكئيب متكئاً عليها. قال السيد رايكروفت: مساء الخير يا عبدو. كيف حال سيدك؟

- حاله سيئة اليوم يا سيدي. لا يريد أن يرى أحداً، وهو لم يرَ أحداً منذ أمدٍ بعيد.

قال رونالد بعد أن عبرا: أتعلم، إن بوسع هذا الرجل أن يقتل الكابتن وايّت بكل سهولة دون أن يعلم أحد، ويمكنه أن يستمر لأسابيع وهو يهز رأسه ويقول إن سيده لا يريد رؤية أحد، ولن يرى أحدٌ في ذلك شيئاً غريباً.

أقر السيد رايكروفت بصحة ذلك، ولكنه قال: ولكن ستكون أمامه مشكلة التخلص من الجثة.

- نعم، تلك هي العقبة دوماً، أليس كذلك؟ إن جثة الإنسان مسألة مُربكة.

عبرا بيت الميجر بيرنابي. وكان الميجر في حديقته ينظر بإمعان إلى عُشبة ضارة نمت حيث لا ينبغي لها أن تنمو. قال له السيد

رايكروفت: مساء الخير أيها الميجر. هل ستأتي أيضاً إلى منزل سيتافورد؟

فرك الميجر أنفه وقال: لا أظن ذلك. لقد أرسلوا إليّ يدعونني، ولكن... ولكني لا أشعر برغبة بالذهاب. أحسب أنك ستفهم ذلك.

أحنى السيد رايكروفت رأسه دليلاً على تفهمه، ولكنه قال: ومع ذلك أود لو تأتي. فلديّ سبب لذلك.

- سبب؟ أي سبب؟

تردد السيد رايكروفت. بدا واضحاً أن وجود رونالد غارفيلد يمنعه من التصريح، ولكن رونالد -الغافل تماماً عن تلك الحقيقة- أصغى باهتمام شديد.

قال السيد رايكروفت أخيراً: أرغب بالقيام بتجربة.

سأله بيرنابي: أية تجربة؟

تردد السيد رايكروفت مجدداً وقال: أفضل عدم إخبارك بها مسبقاً، ولكن إذا أتيت فإنني سأطلب منك أن تدعمني في أي شيء أقترحه.

اشتد فضول بيرنابي وقال: حسناً، سآتي. يمكنك الاعتماد علي. أين قبعتي؟

انضم إليهما بعد دقيقة وقد ارتدى قبعته وعبر الثلاثة معاً بوابة منزل سيتافورد.

قال الميجر بيرنابي على سبيل الحديث: سمعتُ أنك تتوقع ضيوفاً يا رايكروفت.

ارتسمت على وجه السيد رايكروفت مسحة غيظ وقال: من قال لك ذلك؟

- تلك المرأة الثرثارة، السيدة كيرتيس. إنها نظيفة ونزيهة، ولكن لسانها لا يكف عن الحديث، وهي لا تلقي بالاً إن كنتَ تصغي إليها أم لم تكن.

- هذا صحيح تماماً. إنني أنتظر حضور قريبتي، السيدة ديرنغ، وزوجها غداً.

كانوا قد وصلوا إلى الباب الأمامي الآن، وحين قرعوا الجرس فتح لهم الباب برايان بيرسن. وبينما هم ينزعون معاطفهم في الصالة راقب السيد رايكروفت -باهتمام- الشابّ برايان ذا الكتفين العريضين. ثم فكر قائلاً لنفسه: إنه نموذج فريد، نعم، فريد جداً. ذو مزاج حاد قوي وزاوية غريبة لفكّه. يمكن أن يكون رجلاً شديد المراس يصعب التعامل معه في ظروف معينة. إنه ما يمكن للمرء أن يسميه شاباً خطيراً.

انتاب الميجر بيرنابي شعور غريب بعدم الواقعية وهو يدخل غرفة الجلوس، ونهضت السيدة ويليت لتحيته: رائع منك أن تأتي.

نفس كلمات الأسبوع الماضي. ونفس النار المتوقدة في الموقد. وخُيّل إليه -دون أن يكون واثقاً- أن ملابس المرأتين هي نفسها.

إن ذلك يثير في المرء شعوراً غريباً. كما لو أنه الأسبوع الماضي من جديد... كما لو أن جو تريفيليان لم يمت... كما لو أن شيئاً لم يحدث أو يتغير. ولكن قف، فهذا خطأ. لقد تغيرت هذه المرأة ويليت؛ غدت حطاماً، هذه هي الطريقة الوحيدة في وصفها! لم تعد تلك المرأة المزهوة المصممة الخبيرة، بل غدت مخلوقة عصبية منهارة تقوم بجهد واضح ومثير للشفقة لتبدو كعادتها.

فكر الميجر قائلاً لنفسه: ولكني لا أفهم أبداً ما الذي يمكن أن يعنيه لها موت جو.

وللمرة المئة سجل عقله انطباعاً بأن في أمر هاتين المرأتين شيئاً غريباً تماماً. ثم صحا -كالعادة- منتبهاً إلى أنه صامت وأن أحدهم يتحدث إليه. كانت السيدة ويليت تقول: أخشى أنه سيكون اجتماعنا الأخير.

رفع رونالد بصره فجأة وقال: ما هذا الذي تقولينه؟!

هزت السيدة ويليت رأسها بمشروع ابتسامة وقالت: نعم، إننا مضطرتان للتخلي عن بقية الشتاء في سيتافورد. أنا نفسي أحب العيش هنا بالطبع... الثلج والمرتفعات الصخرية والبرية وكل ذلك. ولكن مشكلة الخدم! مشكلة الخدم صعبة جداً، وقد غلبتني!

قال الميجر بيرنابي: لقد ظننتُ أنك ستأتين بخادم وسائق ورجل يقوم بمهام التنظيف.

هزّت رعدة مفاجئة جسد السيدة ويليت وقالت: كلا، إنني...

إنني مضطرة للتخلي عن هذه الفكرة.

قال السيد رايكروفت: يا عزيزتي، هذه ضربة عظيمة لنا جميعاً. أمر محزن جداً بالفعل. سنعود لنغرق ثانية في صغائر حياتنا الروتينية بعد ذهابكما. متى ستذهبان بالمناسبة؟

– يوم الإثنين كما أظن، إلاّ إذا استطعتُ السفر غداً. فالأمر فظيع جداً دون خدم. يجب عليّ –طبعاً– أن أرتب الأمور مع السيد كيركوود؛ فقد استأجرتُ البيت لأربعة أشهر.

سأل السيد رايكروفت: أأنتما ذاهبتان إلى لندن؟

– نعم، ربما في البداية فقط. وأظن أننا سنسافر بعد ذلك إلى الريفييرا.

قال السيد رايكروفت وهو ينحني بشيء من الشهامة: إنها خسارة عظيمة.

صدرت عن السيدة ويليت ضحكة صغيرة غريبة لا هدف لها وقالت: هذا لطف بالغ منك يا سيد رايكروفت. حسناً، هل نشرب الشاي؟

أُحضر الشاي، وقامت السيدة ويليت بصبِّه، فيما قام رونالد وبرايان بتوزيع الضيافة. وخيم على المجموعة نوع غريب من الحرج.

قال الميجر بيرنابي فجأة لبرايان بيرسن: وماذا عنك أنت؟ هل ستغادر أيضاً؟

– إلى لندن، نعم. من الطبيعي أنني لن أسافر خارج البلد حتى ينتهي هذا الأمر.

– هذا الأمر؟

– أعني حتى تتم تبرئة أخي من هذه التهمة السخيفة.

قذف بالكلمات إليهم بنوع من التحدي بحيث لم يعرف أحد ماذا يقول. ولكن الميجر بيرنابي خفف من وطأة الموقف قائلاً: لم أصدق أبداً أنه فعل ذلك، ولا للحظة واحدة.

قالت فايوليت وهي ترمقه بنظرة امتنان: لم يصدق أحد منا ذلك.

ساد –بعد ذلك– شيء من الصمت قطعه قرع على الباب، فقالت السيدة ويليت: هذا السيد ديوك. أدخله يا برايان.

كان برايان قد ذهب إلى النافذة فنظر منها ثم قال: إنه ليس السيد ديوك، بل ذلك الصحفي التعيس.

قالت السيدة ويليت: آه، يا إلهي! ولكن أحسب أن علينا أن نُدخله مع ذلك.

أومأ برايان برأسه ثم عاد للظهور بعد لحظات بصحبة تشارلز إندربي. ودخل إندربي بأسلوبه الفذ المعتاد مُظهراً الرضا المبتهج، ولم يبدُ أن احتمال كونه لا يلقى ترحيباً قد خطر له على بال.

– مرحباً يا سيدة ويليت، كيف حالك؟ فكرت بالمرور فقط

والاطمئنان. لقد تساءلت أين ذهب جميع أهل سيتافورد، وها أنا الآن أراهم هنا.

- هل لك في بعض الشاي يا سيد إندربي؟

- هذا لطف شديد منك، سأشرب الشاي. أرى أن إيميلي ليست هنا، أظنها مع خالتك يا سيد غارفيلد.

قال رونالد وهو يحدق به: لا أعرف إن كانت هناك، لقد ظننتُها ذهبت إلى إيكزامبتن.

- آه! ولكنها عادت من هناك. كيف عرفت؟ لقد أخبرتني العصفورة. العصفورة كيرتيس إذا أردت الدقة؛ فقد رأت السيارة تعبر أمام مكتب البريد وتصعد الطريق ثم تعود فارغة. وهي ليست في البيت رقم ٥ وليست في سيتافورد. تلك أحجية... أين هي؟ فإذا لم تكن لدى الآنسة بيرسهاوس فلا بد أنها تتناول الشاي مع فاتن النساء الرهيب، الكابتن وايت.

قال السيد رايكروفت: ربما صعدت إلى هضبة سيتافورد لتراقب مغيب الشمس.

قال الميجر بيرنابي: لا أظن ذلك، وإلاّ لكنتُ رأيتها تمر أمام بيتي؛ فقد كنتُ في حديقتي في الساعة الماضية.

قال تشارلز بمرح: حسناً، لا أحسب أن تلك مشكلة كبرى. أعني أنني لا أظنها اختُطفت أو قُتلت أو ما شابه ذلك.

دمدم برايان قائلاً: وهذا أمر مؤسف من وجهة نظر صحيفتك.

أجابه تشارلز: "ما كنتُ لأضحي بإيميلي ولو خصصوا لي عدداً كاملاً من الصحيفة". ثم أضاف متأملاً: إن إيميلي فتاة فريدة.

قال السيد رايكروفت: إنها فاتنة، فاتنة جداً. وأنا وهي... متعاونان.

قالت السيدة ويليت: هل أكملتم الشاي جميعاً؟ ما رأيكم بلعبة بريدج؟

قال السيد رايكروفت: هممم... لحظة.

ثم تنحنح بشيء من الأهمية، فنظر الجميع إليه، فقال: سيدة ويليت، إنني -كما تعلمين- مهتم كثيراً بالظواهر الخارقة. وقبل أسبوع من هذا اليوم، وفي هذه الغرفة نفسها، كانت لنا تجربة مدهشة، بل تجربة تثير الأسى حقاً.

صدر صوت ضعيف من الآنسة فايوليت فالتفت إليها وقال: أعرف يا آنستي العزيزة، أعرف. لقد أزعجتكِ التجربة، وقد كانت مزعجة بالفعل. أنا لا أنكر ذلك. والآن، منذ أنْ وقعت الجريمة كان الشرطة يبحثون عن قاتل الكابتن تريفيليان، وقد قاموا باعتقال السيد جيمس بيرسن، ولكن بعضنا -في هذه الغرفة على الأقل- لا يؤمنون بأنه المذنب. إن ما أقترحه هو أن نكرر تجربة الجمعة الماضية، رغم قيامنا بذلك بروحية مختلفة هذه المرة.

صاحت فايوليت: كلا.

قال رونالد: آه! هذا أمر غير مقبول. أنا لن أشارك على أية حال.

لم يأبه السيد رايكروفت له، بل قال: سيدة ويليت، ماذا تقولين؟

ترددت ثم قالت: بصراحة يا سيد رايكروفت، أنا لا أحب هذه الفكرة. لا أحبها أبداً. فذلك الأمر التعيس الذي حدث في الأسبوع الماضي خلّف عندي أثراً كريهاً جداً، وسيمر وقت طويل قبل أن أنساه.

سأل إندربي باهتمام: ما الذي تريد الوصول إليه بالضبط؟ هل تقترح أن الأرواح ستخبرنا باسم قاتل الكابتن تريفيليان؟ يبدو ذلك مطلباً مُستهجَناً.

- لقد كان أمراً مستهجَناً جداً كما تسميه عندما جاءتنا رسالة في الأسبوع الماضي تقول إن الكابتن تريفيليان قد قُتل.

وافقه تشارلز قائلاً: هذا صحيح. ولكن... أنت تعلم أن فكرتك هذه يمكن أن تأتي بعواقب لم تأخذها بحسبانك.

- مثل ماذا؟

- ماذا لو تم ذِكر اسم ما؟ هل يمكنك التأكد من أن أحد الحضور لم يقم عامداً بـ...

ثم توقف فأكمل رونالد غارفيلد عنه جملته: بالغش؛ هذا ما يعنيه. ماذا لو قام أحدهم بهزّ الطاولة ليغشنا؟

قال السيد رايكروفت بحماسة: هذه تجربة جادة يا سيدي؛ ليس من شأن أحد أن يفعل مثل هذا الأمر.

قال رونالد بارتياب: لا أدري، ولكني لا أستغرب ذلك منهم. أنا لا أعني نفسي. أقسم أنني ما كنتُ لأقوم بمثل ذلك، ولكن ماذا لو التفت أحدهم إليّ وقال إنني أنا الفاعل. سيكون ذلك فظيعاً جداً.

تجاهل الرجل الضئيل العجوز اعتراضات رونالد وقال: سيدة ويليت، إنني جاد. أتوسل إليك، دعينا ننفّذ التجربة.

ترددت وقالت: إنني لا أحب ذلك. لا أحبه فعلاً. إنني...

ثم تلفّتت حولها بقلق وكأنها تبحث عن مهرب وقالت: ميجر بيرنابي، لقد كنتَ صديقاً للكابتن تريفيليان، ما رأيك؟

التقت عينا الميجر بعيني السيد رايكروفت، وفهم أن هذا هو الاحتمال الذي توقعه الأخير. قال بتجهم: لِمَ لا؟

كان لذلك تأثير حاسم كصوت مرجّح؛ فذهب رونالد إلى الغرفة المجاورة وأحضر الطاولة الصغيرة التي استُخدمت من قبل. وضعها في وسط الغرفة واصطفت الكراسي حولها. لم يتكلم أحد، وبدا واضحاً أن التجربة لا تلقى استحساناً كبيراً.

قال السيد رايكروفت: هذا صحيح فيما أظن. إننا على وشك تكرار تجربة الجمعة الماضية في ظل نفس الظروف تماماً.

اعترضت السيدة ويليت قائلة: ليست نفس الظروف تماماً؛ فالسيد ديوك غائب.

قال السيد رايكروفت: هذا صحيح. من المؤسف أنه ليس هنا، مؤسف جداً. ولكن حسناً... سنعتبر السيد بيرسن مكانه.

صاحت فايوليت: لا تشارك في ذلك يا برايان. أتوسل إليك، لا تشارك.

أجابها برايان: وما أهمية ذلك؟ إنه هراء على أية حال.

قال السيد رايكروفت بحدة: هذه هي تماماً النفسية الخاطئة في مثل هذا الأمر.

لم يجبه برايان بيرسن، ولكنه جلس بجانب فايوليت.

همّ السيد رايكروفت قائلاً: سيد إندربي...

ولكن تشارلز قاطعه قائلاً: أنا لم أكن مشاركاً في هذا الأمر. وأنا صحفي، وأنتم لا تثقون بي. سآخذ بعض الملاحظات بطريقة الاختزال عن أية ظواهر... هذه هي الكلمة التي تستخدمونها لمثل هذا الأمر، أليس كذلك؟

استقرت الأمور على هذا الحال. وأخذ الستة الباقون أماكنهم حول الطاولة. أطفأ تشارلز الأضواء وجلس على طرف الموقد قائلاً: انتظروا لحظة. كم الساعة؟

ثم نظر إلى الساعة في معصمه وقال: هذا غريب.

- ما هو الغريب؟

- إنها تمام الخامسة وخمس وعشرين دقيقة.

أطلقت فايوليت صرخة، فقال السيد رايكروفت بحدة: صمت.

مرت الدقائق. كان هذا الجو مختلفاً كثيراً عن الجو الذي ساد في الأسبوع الماضي؛ فلم تكن لتُسمَع ضحكات مكتومة، ولا تعليقات هامسة... بل الصمت وحده، الذي قطعته بعد قليل طقطقة من الطاولة.

ارتفع صوت السيد رايكروفت: هل من أحد هنا؟

طقطقة خفيفة أخرى... بدت صوتاً غريباً مخيفاً بعض الشيء في تلك الغرفة المظلمة.

- هل من أحد هنا؟

لم تأت طقطقة هذه المرة، بل دقات هائلة تصم الآذان. صاحت فايوليت بحدة فيما صدرت صرخة عن السيدة ويليت.

ارتفع صوت برايان بيرسن مُطَمْئِناً: لا شيء في ذلك؛ هذا قرع على الباب. سأذهب وأفتحه.

ثم خرج من الغرفة، وبقي الجميع صامتين. وفجأة فُتح الباب بقوة وأضيئت الأنوار. ووقف على العتبة المفتش ناراكوت، وخلفه كانت إيميلي تريفوسيس والسيد ديوك.

خطا ناراكوت خطوة داخل الغرفة وتكلم: جون بيرنابي، إنني أتهمك بقتل جوزيف تريفيليان يوم الجمعة الرابع عشر من الشهر الجاري، وإنني أحذرك من أن أي شيء تقوله سوف يُسجل ويمكن أن يُستخدم دليلاً.

* * *

الفصل الثلاثون

إيميلي تشرح

تجمعت حول إيميلي تريفوسيس مجموعة أكثر ذهولاً مما يمكن للكلمات أن تصفه.

كان المفتش ناراكوت قد اقتاد سجينه خارج الغرفة. ووجد تشارلز إندربي صوته أولاً فقال: بالله عليك انطقي بها يا إيميلي. أريد الوصول إلى مكتب البرق؛ فكل دقيقة في غاية الأهمية.

قالت إيميلي: لقد كان الميجر بيرنابي هو الذي قتل الكابتن تريفيليان.

– حسناً، لقد رأيت ناراكوت يعتقله، وأحسب أن ناراكوت إنسان عاقل... لم يفقد عقله فجأة. ولكن كيف يمكن أن يكون الميجر قد قتل تريفيليان؟ أعني كيف يمكن أن يكون ذلك ممكناً إنسانياً؟ إن كان تريفيليان قد قُتل الساعة الخامسة وخمس وعشرين دقيقة...

– لا، لم يُقتل في تلك الساعة، بل قُتل في حوالي السادسة إلاّ ربعاً.

– حسناً، ولكن حتى في هذه الحالة...

– أعرف. ما كان لك أن تخمن ذلك أبداً ما لم يصادف أن تفكر في هذا الأمر تماماً. ألواح التزلج... ذلك هو التفسير... ألواح التزلج.

كرر الجميع وراءها: ألواح التزلج؟

أومأت إيميلي برأسها وقالت: نعم. لقد قام بتدبير مسألة تحضير الأرواح عامداً. لم تكن مجرد حادث تم دون وعي كما ظننا يا تشارلز، بل كان الخيار الآخر الذي رفضناه؛ وهو أنه أمر تمّ عن عمد. فقد رأى أن الثلج سيهطل قريباً، ومن شأن ذلك أن يجعل الأمر آمناً تماماً ويمحي كل الآثار. ثم أشاع الانطباع بأن الكابتن تريفيليان قد مات وجعل الجميع يقلقون، ثم تظاهر بأنه قلق جداً وأصر على الانطلاق إلى إيكزامبتن.

ذهب إلى البيت فركّب ألواح التزلج (وكانت في السقيفة في الحديقة مع الكثير من عُدد الرياضة الأخرى) ثم انطلق. كان خبيراً في التزلج، والطريق إلى إيكزامبتن منحدر كله... مجالُ تزلج رائع. لن يأخذ ذلك منه إلاّ نحواً من عشر دقائق.

وصل إلى الباب الزجاجي وقرعه، فأدخله الكابتن تريفيليان دون أن يخامره أي شك، وعندما أدار الكابتن تريفيليان ظهره استغل فرصته

وأخذ واحداً من أكياس الرمل تلك ثم... ثم قتله. أوف! إن التفكير بذلك يثير الاشمئزاز.

ارتعدت، ثم مضت قائلة: كان الأمر كله سهلاً، وكان لديه الكثير من الوقت. ولا بد أنه مسح ألواح التزلج ونظفها ثم وضعها في الخزانة في غرفة الطعام، حيث حشرها بين الأغراض الأخرى. ثم أحسبُ أنه قام بفتح الباب الزجاجي بالقوة مرة أخرى وفتح الأدراج وغير ذلك... ليجعل المشهد يبدو كما لو أن أحداً قد اقتحم البيت.

وقبل الثامنة بقليل لم يكن عليه إلاّ أن يخرج فيقوم بدورة يصعد بها قليلاً في الطريق ثم يعود نحو إيكزامبتن وهو يلهث وينفخ البخار وكأنه مشى كل الطريق من سيتافورد. وطالما أن أحداً لم يشكّ بأمر ألواح التزلج فإنه سيكون في أمان تام، ولا يمكن للطبيب إلاّ أن يقول أن الكابتن قد قُتل منذ ساعتين على الأقل، وبذلك سيتمتع الميجر بيرنابي بعذر غياب تام عن مسرح الجريمة طالما أن أحداً لم يشك بمسألة التزلج كما قلت.

قال السيد رايكروفت: ولكنهما كانا صديقين... بيرنابي وتريفيليان؛ صديقين قديمين. كانا دوماً كذلك. هذا أمر لا يُصدق.

- أعرف، وهذا ما ظننتُه أنا. لم أستطع أن أفهم لماذا. وقد فكرتُ وفكرت، وفي النهاية كان عليّ أن آتي إلى المفتش ناراكوت والسيد ديوك.

توقفَتْ ونظرت إلى السيد ديوك ذي الملامح الحيادية وقالت: هل لي أن أخبرهم؟

ابتسم السيد ديوك وقال: إذا شئتِ يا آنسة تريفوسيس.

- لا... ربما كنتَ تفضّل ألاّ أخبرهم. ولكنني -على كل حال- ذهبتُ إليهما، والتقينا فتوضح الأمر لنا. هل تذكر -يا تشارلز- أنك أخبرتني كيف ذكر لك إيفانز أن الكابتن تريفيليان اعتاد أن يُرسل حلول المسابقات باسم إيفانز نفسه؟ كان يرى أن منزل سيتافورد سيكون عنواناً أفخم بكثير من المطلوب. حسناً... وقد كان ذلك ما فعله في مسابقة كرة القدم الذي أعطيتَ جائزتها للميجر بيرنابي. لقد كان الحلُّ حلّ الكابتن تريفيليان في الواقع، وقد أرسله باسم الميجر بيرنابي؛ فقد ظن أن عنوان البيت رقم ١ في سيتافورد يبدو أفضل بكثير. هل فهمتم ما الذي حدث؟ لقد استلم الميجر بيرنابي صباح يوم الجمعة الرسالة التي تبلغه بأنه فاز بجائزة قدرها خمسة آلاف جنيه (وبالمناسبة فقد كان ينبغي لذلك أن يثير شكوكنا؛ فقد أخبرَكَ -يا تشارلز- أنه لم يستلم الرسالة... وأن أية رسائل لم تصل إلى سيتافورد بسبب الطقس. وكانت تلك كذبة؛ فقد كان صباح الجمعة آخر وقت وصلت فيه رسائل إلى سيتافورد). ماذا كنتُ أقول؟ آه! نعم... استلام الميجر بيرنابي للرسالة. كان بحاجة لتلك الآلاف الخمسة... بحاجة ماسة إليها؛ فقد كان يستثمر في بعض الأسهم الخاسرة وفقد مبلغاً كبيراً من المال.

لا بد أن الفكرة قد خطرت له فجأة فيما أظن، وربما خطرت له عندما أدرك أن الثلج سيهطل في ذلك المساء. فإذا ما مات تريفيليان... لكان بوسعه أن يحتفظ بذلك المال، وما كان أحد ليعلم بذلك.

تمتم السيد رايكروفت قائلاً: مدهش، أمر مدهش تماماً. لم

أحلم أبداً... ولكن يا آنستي العزيزة، كيف عرفتِ بكل ذلك؟ ما الذي وضع قدميك على الطريق الصحيح؟

وجواباً على ذلك شرحت إيميلي مسألة رسالة السيدة بيلنغ، وروت كيف اكتشفت الحذاء في المدخنة، ثم قالت: لقد كان نظري إلى الحذاء هو الذي وضع الفكرة في رأسي؛ فقد كان حذاء من النوع الذي يُستعمل للتزلج، وقد جعلني ذلك أفكّر بألواح التزلج. وفجأة تساءلت عن مغزى الأمر... هرعتُ إلى الطابق الأول حيث الخزانة، وهناك وجدت -بالفعل- مجموعتين من ألواح التزلج، وكانت الألواح في إحداهما أطول منها في الأخرى. وقد تناسب قياس الحذاء مع الأطول، ولكنه لم يناسب لوحي التزلج الأقصر! فقد كانت الواقيتان اللتان تدخل بهما مقدمة الحذاء مثبتتين عليهما بحيث تناسبان حذاءً أصغر بكثير. أي أن اللوحين القصيرين كانا لشخص آخر.

قال السيد رايكروفت بشيء من الانتقاد الفني: كان عليه أن يخفي لوحي التزلج في مكان آخر.

قالت إيميلي: كلا... كلا، أين عساه يخبئهما في غير ذلك المكان؟ لقد كان حقاً مكاناً ممتازاً؛ فخلال يومين كانت كل تلك العدة ستُخزن، وفي أثناء ذلك لم يكن من المحتمل أن يشغل الشرطة أنفسهم بمسألة ما إذا كان لدى الكابتن تريفيليان زوج واحد من ألواح التزلج أم زوجان.

- ولكن لماذا خبأ الحذاء؟

- أحسب أنه كان خائفاً من أن يخطر للشرطة ما خطر لي أنا

تماماً؛ إذ أن منظر حذاء التزلج ربما كان سيوحي للشرطة بألواح التزلج. ولذلك حشر الحذاء في المدخنة. وقد كانت تلك -حقاً- هي النقطة التي أخطأ فيها بالطبع، لأن إيفانز لاحظ اختفاء الحذاء، وبذلك عرفت أنا بالأمر.

سأل برايان بيرسن غاضباً: هل قصد إلصاق التهمة بجيمس عامداً؟

- لا. لقد كان ذلك مجرد حظِّ الحمقى المعتاد الذي يصيب جيمس. وقد كان أحمق بالفعل، ذلك الحمل المسكين.

قال تشارلز: لم يعد عليه بأس الآن، لا حاجة لأن تقلقي عليه. هل أكملت كل القصة يا إيميلي؟ فإن كنتِ قد أكملت فإن عليّ الإسراع إلى مكتب البريد. اعذروني جميعاً.

ثم انطلق خارجاً من الغرفة، فقالت إيميلي: شعلة النشاط!

قال السيد ديوك بصوته العميق: لقد كنتِ أنت شعلة نشاط أيضاً يا آنسة تريفوسيس.

وأردف رايكروفت قائلاً بإعجاب: لقد كنتِ كذلك حقاً.

قالت إيميلي فجأة وهي ترمي نفسها مُتعَبة على كرسي: آه، يا إلهي!

قال لها رونالد: إن ما تحتاجينه هو كوب من الشاي يريح أعصابك.

قالت إيميلي باكتئاب: إن ما أحتاجه هو قليل من مسحوق التجميل. لقد نسيتُ علبة المساحيق في السيارة، وأعرف أنني أتوهج من الانفعال.

أخذتها فايوليت إلى الطابق العلوي طلباً لمريح الأعصاب هذا! وهناك قالت إيميلي وهي تضع المساحيق على وجهها: هذا أفضل. يا له من لطف منك! إنني أشعر بتحسن الآن، وقد بدأت أشعر أنني آدمية.

قالت فايوليت: لقد كنتِ رائعة، جريئة جداً.

– ليس كثيراً في الواقع؛ فتحتَ هذا الغطاء التمويهي كنت أرتعد مثل كتلة هُلام وأحس بالخوف في معدتي.

– أعرف. لقد شعرتُ أنا نفسي بنفس الشعور، وكنت خائفة كثيراً على برايان في الأيام الأخيرة. لم يكن بوسعهم طبعاً أن يشنقوه بسبب مقتل الكابتن تريفيليان، ولكنه لو قال –مرة واحدة– أين كان خلال هذا الوقت لكانوا اكتشفوا فوراً أنه هو الذي خطط لفرار والدي.

توقفت إيميلي عن معالجة زينتها وقالت: ماذا تقولين؟

– لقد كان أبي هو المجرم الذي هرب من السجن، ولهذا السبب جئنا إلى هنا، أنا وأمي. مسكين والدي، لقد كان مسكيناً دوماً، وكان يغدو غريب الأطوار أحياناً، ثم قام بتلك الأمور الفظيعة. وقد التقينا ببرايان في طريق قدومنا من أستراليا، ثم كان من أمري أنا وهو أننا...

قالت إيميلي تساعدها: أعرف، هذا طبيعي تماماً.

– أخبرته بكل شيء، ثم قمنا جميعاً بوضع خطة. لقد كان برايان رائعاً. من حسن الحظ أن لدينا الكثير من المال، وقد وضع برايان كل الخطط. من الصعب جداً الهروب من سجن برنستاون كما تعلمين، ولكن برايان دبر هذا الأمر، وقد كانت تلك –بالفعل– أقرب إلى معجزة. كان الترتيب يقضي بأن يذهب والدي بعد هروبه فوراً عبر الريف إلى هنا ويختبئ في كهف بيكسي، ثم يأتي لاحقاً هو وبرايان بحجة أنهما خادمان لنا. وقد تصورنا أن قدومنا إلى هنا قبل فترة طويلة من شأنه أن يبعد عنا الشبهات تماماً، وقد كان برايان هو الذي أخبرنا عن هذا المكان واقترح علينا أن نعرض على الكابتن تريفيليان أجرة ضخمة.

– أنا آسفة جداً... أعني لفشل كل هذا التدبير.

– لقد حطم ذلك والدتي تماماً. أظن أن برايان رائع؛ فقليل من الشبان يمكن أن يبدوا استعداداً للزواج بابنة مجرم سجين. ولكنني لا أحسب أن الخطأ كان خطأ والدي حقاً؛ فقد تعرّض لرفسة شديدة على رأسه من حصان قبل نحو خمسة عشر عاماً، ومنذ ذلك الحين أصبح غريب الأطوار بعض الشيء. ويقول برايان إن أبي كان سيجد عفواً لو تأمنت له مشورة قانونية جيدة. ولكن دعينا من الحديث عني أكثر من ذلك.

– ألا يمكن فعل شيء؟

هزت فايوليت رأسها بالنفي وقالت: إنه مريض جداً... من بقائه

في العراء، في هذا البرد الفظيع. لا أملك إلاّ أن أشعر بأن موته... يمكن أن يكون راحة له حقاً. يبدو من الفظيع أن أقول ذلك، ولكنك تعرفين ما أعنيه.

- يا عزيزتي المسكينة! إنه لموقف صعب فعلاً.

هزت الفتاة رأسها بأسى وقالت: إن لديّ برايان، وأنت لديك...

ثم توقفت مُحرَجة، فقالت إيميلي بتأمل: نعم، هذا صحيح.

* * *

الفصل الحادي والثلاثون
الرجل المحظوظ

بعد ذلك بعشر دقائق كانت إيميلي تسرع في مشيها في الشارع، وكان الكابتن وايت متكئاً على بوابة بيته فحاول أن يوقفها قائلاً: مرحباً يا آنسة تريفوسيس. ما كل هذا الذي أسمعه؟

قالت إيميلي وهي تغذ الخطى: إنه صحيح كله.

- نعم، ولكن اسمعيني. تعالي... تناولي كوباً من الشاي. لديك متسع من الوقت؛ لا حاجة للسرعة. هذا أسوأ ما فيكم معشر المتمدنين.

قالت إيميلي وهي تسرع: أعرف، إننا فظيعون!

بعد ذلك دخلت على الآنسة بيرسهاوس بقوة كأنها قنبلة وقالت: لقد جئتُ لأخبرك بالقصة كلها.

ثم روت لها مباشرة القصة بحذافيرها. وقد تخلّلتْ روايتَها للقصة العديدُ من صيحات: «يا إلهي!» و«قولي غير ذلك!» و«فليرحمنا الله» من

الآنسة بيرسهاوس.

وعندما أكملت إيميلي سردها رفعت الآنسة بيرسهاوس نفسها قليلاً معتمدة على مرفقها ثم أشارت بإصبع مُنذِرة وقالت: ألم أقل لك؟ لقد قلتُ لك إن بيرنابي رجل حسود. ويقولون أصدقاء! لأكثر من عشرين عاماً كان تريفيليان يقوم بالأمور بشكل أفضل قليلاً من بيرنابي؛ كان يتزلج أفضل منه، ويتسلق الجبال أفضل منه، ويصيد أفضل، ويحل الكلمات المتقاطعة أفضل. ولم يكن بيرنابي رجلاً كريم الطبع بحيث يتحمل ذلك. وقد كان تريفيليان غنياً، وكان هو فقيراً. لقد كان ذلك يحتمل منذ زمن بعيد. يمكنني أن أؤكد لك أن من الصعب على المرء الاستمرار حقاً في حب رجل يقوم بكل شيء على نحو أفضل مما يستطيعه ذلك المرء. وقد كان بيرنابي رجلاً ضيق الأفق والصدر قليل المروءة، وقد سمح لهذا الحسد بأن يثير أعصابه.

قالت إيميلي: أحسب أنك محقة. حسناً، لقد كان عليّ أن آتي وأخبرك؛ فقد بدا أن من الإجحاف أن تكوني خارج هذا الأمر كله. وبالمناسبة، هل تعلمين أن ابن أختك يعرف خالتي جينيفر؟ لقد كانا يتناولان الشاي معاً في مقهى ديلر يوم الأربعاء.

- إنها عرابته؛ والدته بالمعمودية. هذا هو إذن «الصاحب» الذي أراد رؤيته في إيكزامبتن. لقد كان يقترض المال إذا صحّت معرفتي به. سأتحدث معه.

- إنني أمنعك من توبيخ أحد في يوم بهيج كهذا. وداعاً... يجب أن أسرع؛ فلدي الكثير مما ينبغي فعله.

- ما الذي عليك فعله أيتها الشابة؟ أظن أنك أديت واجبك.

- ليس تماماً. ينبغي أن أذهب إلى لندن وأرى المسؤولين في شركة التأمين التي كان جيمس يعمل فيها كي أقنعهم بعدم مقاضاته بشأن تلك المسألة الصغيرة الخاصة باقتراضه أموال الشركة.

- هممم.

- لن يكون في الأمر بأس. سيستقيم جيمس تماماً في المستقبل؛ لقد أخذ درساً.

- ربما. وهل تظنين أنك ستنجحين في إقناعهم؟

قالت إيميلي بحزم: نعم.

- حسناً، ربما استطعتِ. وبعد ذلك؟

- بعد ذلك أكون قد انتهيت وفعلت كل ما أستطيعه من أجل جيمس.

- ماذا لو قلنا إذن: وبعد ذلك؟

- ماذا تعنين؟

- وبعد ذلك؟ أو إذا أردت السؤال أكثر وضوحاً: أيٌّ منهما؟

- آه!

- نعم؛ هذا ما أريد معرفته. أيهما سيكون الرجل سيء الحظ؟

ضحكت إيميلي، ثم انحنت وقبّلت العجوز قائلة: لا تتظاهري بالغباء؛ أنت تعرفين تماماً أيهما.

ضحكت الآنسة بيرسهاوس. وهرعت إيميلي بخفة خارج البيت، ثم إلى البوابة في نفس الوقت الذي جاء تشارلز مسرعاً في الشارع.

أمسك بكلتا يديها وقال: حبيبتي إيميلي!

– تشارلز! أليس كل شيء رائعاً؟

– إنني رجل ناجح يا إيميلي. والآن اسمعيني يا حبيبتي، ما رأيك؟

– ما رأيي بماذا؟

– أعني... طبعاً، ما كان للأمر أن يكون مناسباً بوجود المسكين جيمس في السجن. ولكنه قد بُرّئ الآن... أعني، لا بد أن يتقبل الحقيقة كغيره من الناس.

– ما الذي تتحدث عنه؟

– أنت تعرفين حق المعرفة أنني مجنون بحبك، وأنت معجبة بي. لقد كان بيرسن مجرد غلطة. ما أعنيه هو... أنني –أنا وأنت– قد خُلقنا لبعضنا البعض. وطوال هذا الوقت كنا نعرف ذلك، كلانا، أليس كذلك؟

– إن كنتَ تشير إلى الزواج فلن يكون شيء كهذا.

– ماذا؟ ولكن...

– كلا.

– ولكن... إيميلي...

– إن كنتَ مصراً على معرفة الحقيقة فإنني أحب جيمس، وبقوة!

حدق تشارلز بها بذهول تخونه الكلمات، ثم قال: لا يمكنك!

– بل يمكنني. وأنا أحبه! وقد أحببته دوماً! وسأحبه دوماً!

– لقد... لقد جعلتِني أظن...

قالت إيميلي باحتشام: لقد قلتُ إن من الرائع أن يكون لديّ مَن أستطيع الاعتماد عليه.

– نعم، ولكنني ظننتُ...

– لا دخل لي فيما تظنه أنت.

– أنت لئيمة ولا وازع لديك يا إيميلي.

– أعرف يا عزيزي تشارلز، أعرف. أنا كل ما تود أن تقوله عني، ولكن لا تبتئس. فكّرْ كم ستصبح عظيماً. لقد حصلتَ على سبقك الصحفي! أخبار خاصة بصحيفة ديلي واير وحدها. أنت رجل ناجح. ما قيمة المرأة على أية حال؟ ما من رجل قوي حقاً يحتاج إلى

امرأة؛ فليس من شأنها إلاّ أن تعيقه بتعلقها به كشجرة اللبلاب! إن كل رجل عظيم يكون مستقلاً عن المرأة. العبرة في المهنة... ليس أروع ولا أكثر إقناعاً للرجل من مهنة ناجحة عظيمة. وأنت رجل قوي يا تشارلز، رجل يستطيع الوقوف وحده.

– هل لك أن تكفي عن الكلام يا إيميلي؟ إن كلامك كالنصائح التي تُوجّه للشباب في المذياع! لقد حطمتِ قلبي. لا تدرين كم كنتِ رائعة جميلة وأنت تدخلين إلى تلك الغرفة مع ناراكوت، بكل ذلكَ الزهو المنتصر المنتقم.

طرقت أصوات خطوات على الشارع، وظهر السيد ديوك، فقالت إيميلي: آه! ها أنت يا سيد ديوك. أريد أن أخبرك يا تشارلز: هذا هو السيد ديوك الذي كان سابقاً كبير المفتشين في شرطة سكوتلانديارد.

صاح تشارلز وقد تذكر الاسم الشهير: ماذا؟ المفتش ديوك نفسه؟

– نعم. عندما تقاعد جاء للعيش هنا، ولكونه لطيفاً متواضعاً لم يُرِدْ لشهرته أن تنتشر. أنا أفهم الآن لماذا رمش المفتش ناراكوت بعينيه عندما أردتُ منه أن يخبرني عن نوع الجرائم التي ارتكبها السيد ديوك.

ضحك السيد ديوك. وتردد تشارلز؛ كان في داخله صراع قصير بين العاشق والصحفي. وقد فاز الصحفي، فقال: أنا سعيد بلقائك أيها المفتش. إنني أتساءل –الآن– إن كان بوسعي أن أقنعك بأن تكتب لنا

مقالة قصيرة عن قضية تريفيليان، ولنقل بثمانمئة كلمة.

هرعت إيميلي مبتعدة ودخلت بيت السيدة كيرتيس، وهناك صعدت إلى غرفتها بسرعة وسحبت حقيبتها. كانت السيدة كيرتيس قد لحقت بها وقالت: لا أحسبك ذاهبة يا آنسة؟

– أنا ذاهبة. لديّ الكثير من العمل... في لندن، وصاحبي.

اقتربت منها السيدة كيرتيس وقالت: أخبريني يا آنسة، أي منهما هو؟

كانت إيميلي ترمي بملابسها في الحقيبة كيفما اتفق. قالت: ذلك الذي في السجن طبعاً؛ فلم يكن في قلبي أبداً غيره.

– آه! ألا تظنين –يا آنسة– أنك ربما كنت ترتكبين خطأً. أأنت واثقة أن الشاب الآخر يساوي ما يساوية هذا الشاب؟

– آه! لا، إنه لا يساويه... هذا الشاب سينجح.

ثم نظرت من النافذة إلى حيث كان تشارلز ما زال ممسكاً بالمفتش السابق ديوك في نقاش حاد، ثم أكملت قائلة: إنه من الشبان الذين وُلدوا لينجحوا، ولكني لا أدري ما الذي سيحدث للآخر إن لم أكن بجانبه لرعايته. انظري أين كان مصيره الآن لولاي أنا!

قالت السيدة كيرتيس: "لا يوجد أبلغ من هذا يا آنسة". ثم عادت إلى الطابق السفلي حيث كان زوجها جالساً يحدق في الفراغ، فقالت له: إنها صورة حية لبيليندا ابنة عمتي سارة؛ فقد رمت نفسها

على ذلك البائس جورج بلانكيت في فندقه ثري كاوز، وقد كان الفندق مرهوناً مثقلاً بالديون، وخلال عامين كانت قد وفت بقيمة الرهن وأصبح الفندق مشروعاً ناجحاً.

قال السيد كيرتيس: "آه!"، ثم نقل غليونه قليلاً بين شفتيه.

قالت السيدة كيرتيس وهي تتذكر: كان جورج بلانكيت رجلاً وسيماً.

– آه!

– ولكن بعد زواجه من بيليندا لم يعد ينظر إلى امرأة أخرى أبداً.

– آه!

– لم تكن تعطيه فرصة لذلك.

– آه!

* * *